راوي حاج

كرنفال

رواية

مدونة أبو عبدو
أبو عبدو البغل

حائز جائزة
إيمباك دبلن
الأدبيّة العالمية
(IMPAC)

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

راوي حاج

كرنفال

رواية

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

Arabic Copyright © All Prints Distributors & Publishers s.a.l.

© جميع الحقوق محفوظة

لا يسمح بإعادة طبع هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل

ALL PRINTS DISTRIBUTORS & PUBLISHERS s.a.l.

الجناح، شارع زاهية سلمان

مبنى مجموعة تحسين الخياط

ص.ب.: ٨٣٧٥ - ١١ بيروت، لبنان

تلفون: ٨٣٠٦٠٨ ١ ٩٦١+ فاكس: ٨٣٠٦٠٩ ١ ٩٦١+

email: tradebooks@all-prints.com

website: www.all-prints.com

الطبعة الأولى ٢٠١٤

ISBN: 978-9953-88-790-6

Copyright © 2012, Rawi Hage.

All rights reserved.

Canada Council for the Arts — Conseil des arts du Canada

We acknowledge the support of the Canada Council for the Arts for this translation.

ترجمة، ريتا بستاني

تدقيق لغوي، وفيق زيتون

تصميم الغلاف، ريتا كلزي

الإخراج الفني، فدوى قطيش

صورة الغلاف، Copyright © Monique Vanhalst

www.flickr.com/april-mo

إلى مادلين ثين

«الجديّة الحقيقيّة المنفتحة لا تخاف السخرية أو التهكم أو أي شكل آخر من أشكال الضحك الخفيف، لإدراكها أنها جزء لا يتجزّأ من وحدة متكاملة غير مكتملة».

ميخائيل باختين، رابليه وعالمه

* * *

«أولئك الذين لا يتوقفون عن التجوال على سطح الأرض هم رحالة. وأولئك الذين يفرّون من أرض لا تتوقف عن الدوران هم ملازمو البيوت.

لكن أولئك الذين يفرّون من أرض لا تتوقف عن الدوران، وفي الوقت نفسه لا يتوقفون عن التجوال على أرض لا تتوقف عن الدوران، فمن يكونون يا ترى؟».

جان ماري غوستاف لوكليزيو، الهروب

الفصل الأوّل

الأم

تكوّنتُ في سيرك جوّال من أب رحّالة كان يملك جملاً، وأم تترجّح على الحبال. عندما قذفتني أمي، تلك الفنانة اللامعة بخصلها الذهبية، من رحمها، وسط تصفيقات الفِيَلة والفقمات، كانت الدنيا تمطر في الخارج، والقوافل على وشك الرحيل. أرضعتني عبر مسالك الطرقات ووسط حماقات المهرّجين، وعلى وقع أغانٍ حزينة كان ينشدها قزم عجوز، تنبّأ لي بحياة رديئة أقضيها بين العناكب والبهائم.

أما مالك السيرك فسرعان ما خطّط لمستقبلي. قال: نحن بحاجة إلى رجل قوي ومروّض أُسود. وأخذني من ذراعَيْ أمي ليتلمّس حجم فخذيّ وشكل رأسي. لكني في الواقع، نشأتُ لأصبح عرّافاً ومخمّناً، يستقبل الناس في خيمة، وسط صرخات صيّاح، كان يرفع قبعته الطويلة خلال العرض، ويخبط بعصاه خشبة المسرح المكشوف لينادي الناس قائلاً: اقتربوا سيداتي، سادتي... اقتربوا وتعرّفوا إلى الطفل العرّاف! وإذا فشل في معرفة وزنكم، أو لم يحزر عمركم، أو ما تبقّى لكم من سنوات قبل أن تأووا إلى مضجعكم الأخير، ستستعيدون أموالكم بالتأكيد. وأنا، الذي تعلمتُ كيف أخمّن عدد

السنين المتبقية من عمر الناس من حجم أقدامهم، ومن شدّ أحزمتهم، ومن ثقل عيونهم وتعبها، ومن تضخّم خدودهم. نشأتُ لأصبح محدّقاً حذقاً رأى أمه تشنق نفسها، وأباه ينوء تحت ثقل لحيته.

بعد رحيل أبي وموت أمي، همْت في السيرك، بين كواحل العمالقة اللطفاء وأيادي الأقزام الصغار وطبيعة غريبي الأطوار المحبّين. في عمرٍ مبكر، تعلمتُ كيف أشدّ الحبال، وأعقد ربطات العنق للقرود. اكتشفتُ أن التنانين الضاحكة ليست سوى وشم على جسد فتاة تشد بشرتها، ولعبتُ مع ولد معتدل الطول، كان ابن أقصر امرأة وأطول رجل في العالم. نشأتُ داخل تلك الخيم الدائرية، ووسط عروضها المتعاقبة، وتنقلتُ على خراطيم الفيلة إلى ما وراء الحدود، إلى الأراضي الغريبة.

تعلّمتُ أيضاً كيف أخمّن وكيف أقتل.

«أيها الطفل العارف»، كما أخطأت إحدى السيدات البدينات في مناداتي، «لقد أفرحتني لأنك اكتشفتَ خفة دمي المخفية تحت ثقل وزني». ثم قبّلت وجهي المشع وغادرت الخيمة، تتلمّس الغيوم على شعرها، وتداعب الطيور المحلّقة في السماء. مع مجيء الشتاء، وإنزال الخيم، وإثر معاناتنا من موجات الصقيع، قتلتُ حصاناً وأطعمتُه للوحوش.

القوارض

على مدى السنوات الخمس الماضية، عشتُ في مبنى يعجّ بأناسٍ طباعهم غريبة، وقوارض وحشرات تظهر وتختفي على هواها. على يسار شقتي، تقيم سيدة رومانية كانت يوماً لاعبة جمباز. وعندما أصبحت وحيدةً معوزة، راحت تقدّم نفسها، من وقتٍ إلى آخر، إلى طبيبٍ عجوزٍ ذي لحية طويلة لا تكفّ عن النمو، وسيارات حديثة لا تكفّ عن التجدّد.

عرفتُه من عيادته التي كانت تقع في حيّنا. وفي آخر زيارة لي إلى تلك العيادة، سألني بضعة أسئلة عن ملف عائلتي الصحي، ثم طلب إليّ التمدّد على سرير المعاينة، وانشغل بالنقر على ظهري، والضغط بعوده الخشبي على لساني، ثم أمسك بخصيتَيّ حتى أجبرني على إطلاق سعلةٍ أو اثنتين من حلقي. عبس وهو يضيف ملاحظاته إلى ملفي.

هز رأسه. وقبل أن يخبرني عن حالتي، بادرتُ قائلاً:

- يا دكتور، لست مضطراً إلى قول شيء. أعلم أنه علَيّ خسارة بعض الوزن، صدقني، أعرف ذلك يا دكتور... لأنني نظرتُ إلى كاحلَيّ هذا الصباح، وحدقتُ إلى وجنتَيّ في المرآة... كل واحد منّا له عيوبه يا دكتور، ولا أستبعد أن تكون الشراهة هي عيبي الكبير. لكن ارتكاب خطيئة واحدة من سبع ليس أمراً سيئاً إلى هذا الحد.

ولا علاقة لكلامي بالدين أو ما شابه... فقد قامرتُ في السابق ولم يجدِ ذلك نفعاً. كما عاشرتُ نساءً كثيرات، وكل مرة كانت أشد مرارة من سابقتها، فالجشع لا يرحم أحداً... أعتقد يا دكتور، أنك ستطلب إليّ أن أغيّر عملي. إنّ قيادة سيارة أجرة لساعات طويلة في اليوم من دون توقّف، أو القيام بأي حركة، والتحديق مطوّلاً إلى الطريق يبلّد عقلك... كل ما أفكر فيه من وقتٍ إلى آخر هو قدَري... قدَري وليس قدْري. يا للسخرية يا دكتور! يا لمضيعة الحياة، ويا لي من مهرج... الذنب ليس ذنبي يا دكتور، ومن يقدر على المقاومة؟ تجذبني كل تلك اللافتات، والإعلانات الصاخبة، تشدّني إلى المطاعم التي تقدّم البيتزا ذات الحجم العائلي، والتشيز برغر المزدوج، والدجاجات التي تفتح سيقانها الأربع دون أن تنظر إليك لتناديك، وهي مغلّفة بزيها الأصفر الشهي. ولا ننسى الميلك شايك المحضّر من الحليب الطازج، المستخرج مباشرةً من أثداء بقرات استُنسخت حديثاً... ما زلتُ أجد الحليب الطازج لذيذاً جداً مع دزينة من الدوناتس الشهية، الأكبر حجماً في العالم. كان علَيّ أن أعرف أكثر يا دكتور. أنا أخمّن، دائماً أخمّن، لكنني لا أعرف أبداً...

- حسناً، ما أشخّصه هنا هو بعض الخلل في الدماغ. أقول ذلك لأنني لاحظتُ رجفة يديك، وارتعاشة عينيك، ناهيك بحديثك الطويل الذي لا ينتهي، وهذيانك حول قرود المكتبات التي تتآمر ضد العالم. لذلك أفضّل أن أكشف على دماغك. أقترح أن أحيلك اليوم

إلى طبيبٍ نفسي، يمكنه أن يشخّص كل هذه الأعراض والأفكار الجامحة. ما رأيك؟ يمكنني أن أرشدك إلى أحدهم فوراً...

يتعرّف الطبيب إليّ كلما التقيته على درج المبنى الذي أعيش فيه، أو كلما ركن سيارته قرب حائط المرآب، تحت شرفتي، خلال استراحة الغداء، وهو آتٍ لزيارة السيدة الرومانية التي تعيش في الشقة المجاورة.

كنتُ أراقبه وهو يصعد الدرج، متهيئاً لخلع بنطلونه تحت أنظار العناكب المتربّصة. وما إن يخطو أول خطاه داخل المبنى، حتى تطلق الكلبات الهائجات عويلاً على إيقاع هيجانها، ويتكّ فكّ السيدة الواقفة على الرصيف المقابل وهي تُطلق نمائمها همساً كالأفاعي، كما تتراقص حوافر الخيول في البيت المجاور على إيقاع مطرقة الإسكافي في أسفل الشارع، عند الزاوية. إنه موسم عشق ونكاح يوميّين!

إذاً، يا دكتور، أعتقد أن هذا ما ستؤول إليه الحال بعد سنوات طويلة من الجهد في الدراسة، وبعد استظهار مراجع ضخمة عن التهاب الرئة، وانكماش الكلى، وتصنيف العظام، والشرايين، والشروج، وقنوات فالوب، والقلوب، والأعضاء التناسلية. هذه هي مكافأة مقاومة الإغماء أو التقيّؤ في الصف، أمام جثث شاحبة مفتوحة على طاولة التشريح.

أعتقد أن الأطباء انتهازيون، ينتهكون حرمة الموت، حرمة

الجثث التي لا يطالب بها أحد، والتي تعود إلى شعراء عاشوا حياتهم مشرّدين! الأطباء هم آخر الأوصياء على هؤلاء التائهين الذين جابوا الشوارع، مردّدين مونولوجات على مسامع أصدقاء وهميين، تنسلّ أذرعتهم الطويلة كأذرعة القردة من أصفاد السحرة لتصل إلى جوف حاويات المدينة ليظهر الطعام، وتختفي الصفائح الصدئة، ويعاد تدويرها لتصبح طاولات معدنية، يُعرض عليها بؤساء الأرض، أولئك الأموات الذين لم يطالب بهم أحد، ذوو الصدور المفتوحة والأحذية الممزّقة.

فوق شقتي، تعيش سيدة بولونية عجوز، نجت من معسكرات الحرب العالمية الثانية. ابنها، بوّاب العمارة، يملك دراجة نارية من نوع هارلي، وينتعل حذاءً طويلاً، ويرتدي سترةً سوداء بالية. إنه عديم المعرفة، يتكلّم ويتكلّم، ولا يكف عن النظر إلى وجهه المجعّد في مرآة المدخل. يعدّل دائماً بنطاله الجلدي قبل أن يرتب شعره المتطاير. أطرق بابه أحياناً، حين ترشح ماسورةٌ في شقتي، أو حين يخترق المطر والهواء نافذتي. فيفتح لي، عابساً في وجهي، يقول: اترك ملاحظة في الصندوق المعلّق على الباب، وسأنظر إليها لاحقاً.

وكنتُ، حين أفعل ذلك، أُشعِره بأن الحالة طارئة ومروّعة. كنتُ أكتب ملاحظاتي بأسلوب شاعري وغاضب، مع إشارة تهديد لسلامته وسلامة الجميع. وأحاول أن أفسر له أن كل الأشياء في هذا العالم مترابطة، حتى أن تسرّباً بسيطاً للهواء من أي نافذة، يمكن أن

يزعزع التوازن الحراري داخل المبنى، ويؤدي إلى نموذج مصغّر من الاحتباس الحراري العالمي. كنتُ أذكّره دائماً بأن طبيعتنا واهنة.

لكنه، كما قلتُ سابقاً، جاهل، ولا يمكنه فهم الدعابة في أسلوبي الأدبي التهكّمي. فدراجته السريعة قضت تماماً على اهتمامه بالتاريخ وبالجنس البشري.

وبرغم ذلك، كان ينتهي الأمر بظهوره أمام باب شقتي، ملوّحاً برسالتي وهو يقول: ما هي المشكلة بالتحديد؟ أنت لست فتاةً صغيرةً لتخاف من العناكب. ثم، ماذا تعني بعبارات: أنهار شرعية من الدم... السلم والحرب... الصريح والمباح... هل تحاول إخافتي بهذه الكلمات الطنّانة؟ عرضتُ رسالتك على محامٍ يا صاح. من الأفضل لك أن تنتبه لما تكتبه، لأن محاميّ قادر على زجّك في السجن إذا واظبت على تهديدي، وعلى كتابة رسائلك بالحبر الأحمر موقّعةً «بأعلام القراصنة»...

ليس لديّ وقتٌ لهذا! قد يكون من الأفضل أن أضاعف الإيجار، أو أطردك نهائياً. شقتك يا عزيزي مكتظة بالكتب والأوراق، وهذا وحده، يستقطب جميع أنواع الحشرات والقوارض. عليك أن تتركني بسلام، وتتقبّل وجود العناكب لتخلّصك من القوارض. والآن، أين الطوفان الذي تحدّثت عنه... ومن هو السيد موسى؟ هل يعيش معك هنا...؟

إشارة التاكسي

في الشقة السفلى تقيم طالبة غريبة الأطوار، تشتكي دائماً من وقع خطواتي البليدة، ومن تمايل وركيّ كسفينةٍ في بحرٍ هائج، على فراشٍ مصابٍ بأرقٍ مستمر. والموجات فوق السمعية لسجادتي الطائرة تمنعها من التفوّق في دروسها، مدمرةً مستقبلها الحافل بالدبلومات والشهادات العليا، حائلةً دون تحقيق طموحاتها إلى شراء سيارة فخمة، ومنزل كبير فيه حوض سباحة، وزوج تجرّه وراءها، وكلب يتجوّل بحرية في الحديقة.

هددتني مرات كثيرة بالبوليس. كانت تظهر لي من شقتها بثياب النوم و«شبشب» ميكي ماوس العابس في وجهي. كانت تبدو، من شعرها، وكأنها خضعت لعلاج نفسي أو صدماتٍ كهربائية. ولطالما وعدتُها بأن هذه هي المرةً الأخيرة التي تسمع فيها صوتاً صادراً من شقتي، ولطالما أنحيتُ باللائمة على كومة كتب أدبية سقطت أرضاً، ثمّ ارتدّت بسرعة لخفّتها. لكنها لم تَسْتَسِغ دعاباتي، ربما عُزي ذلك إلى أنها طالبة في قسم الهندسة حيث يُحسَبُ ألف حساب للسقوط.

وفي أسفل الأسفل، في مرأب السيارات، كنتُ أركن سيارتي بعدّادها، وإشارة التاكسي على سطحها، ومرآتها الخلفية البيضوية الطويلة. وكنتُ أبقي داخل السيارة علبة مناديل ورقية، على لوحة العدّادات، بين الزجاج الأمامي والمقود، أستعملها لالتقاط الأوساخ،

أو لإيقاف السوائل الغزيرة، وتلك الزاحفة من الأنف، بدلاً من مسحها بيدٍ عارية. كنتُ أستخدمها أيضاً لأسدّ أنفي لئلاّ أشمّ روائح الفقراء والسكارى النتنة، وروائح الركاب الذين لا يستحمون، والتي تذكّرك برائحة عفن الجثث وبؤس الحضيض.

عندما يعم الهدوء مساءً، وعندما يعود غريبو الأطوار في مبنانا إلى مآويهم، فيتحلّقون حول مواقدهم لتناول الطعام، ثم يتسمّرون في مقاعدهم أمام شاشات التلفزيون، للتزوّد بجرعة الفيتامين (د) اليوميّة، من وجه مذيع نشرة الأخبار الشهير، أستقل سيارتي وأجول في أرجاء المدينة المسكونة بالعتمة.

العناكب

ثمة نوعان من سائقي التاكسي: «العناكب» و«الذباب».

«العنكبوت» هو السائق الذي يركن سيارته في موقفٍ لسيارات الأجرة، وينتظر نداء المُنَظِّم، أو زبوناً يقصده حيث يقف ليستقل سيارته التوّاقة إلى من يستقلها. ويمكن إيجاد هذه الحشرات البشرية على أرصفة المدينة يقلّبون الصحف، ويعقدون مقارنةً بين السيارات، ويتذكرون الزبائن أو حياتهم الشخصية. ينتظرون الفرص في الزوايا لتأتي إليهم، والعمر يمر. باتوا مجردين من أسمائهم، وتحوّلوا آلاتٍ عاملة، يُعرّفون بأنفسهم بأرقام سياراتهم. الـ١٠١ خاض شجاراً، زوجة ٥٦ حامل، الـ٩٧ توفّي...

لكني أسميهم «عناكب».

أما السائق الذبابة، فهو سائق التاكسي الذي يطوف وحده بسيارته في شوارع المدينة ليقل من يلوّح له أو يصفّر. يسرح في المدينة، دون توقف، وبلا هدف. يبحث عن يدٍ مرفوعة إلى الأعلى تقطع عليه رحلته، أو مطرٍ يشغله قليلاً عن أحلامه، أو إشارة تاكسي تلمع فوق أسقف السيارات، مثل سفنٍ مبحرةٍ تاركةً وراءها مجاعة كبيرة، وراسيةً بوافدين جدد. هؤلاء السائقون «الذباب» لا يدوسون أبداً على مكابحهم ليرتاحوا أو يأكلوا، ولا أحد من بينهم يختار يوماً المسار نفسه مرتين.

وأنا كنتُ «ذبابة».

خلال مناوبتي المسائية، غالباً ما كنت أمرّ بمقهى «بوليرو». فهوّ يفتح أربعاً وعشرين ساعة في اليوم، وكثرٌ هم سائقو التاكسي الذين يتوقفون هناك ليرتاحوا، ويأكلوا، ويتعارفوا. كنتُ أجلس في الزاوية وأستمع إلى قصصهم وشكاويهم. فأجد العزاء عندما أتعرف إلى تعبهم من وجوههم، وأرى مفاصل أيديهم تنطلق لتحرّرهم من قبضة المقود، ومسكة الباب، وعدّ الفكّة. كنتُ غريباً وسط هؤلاء السائقين، لكني كنتُ أراقب أساليبهم، وأستمع إلى كلماتهم، وأتعقَب تحركاتهم بين الطاولات والكراسي. وكنتُ أعيَن لهم أسماء لئلاّ أنسى أرقامهم.

والسائقون العناكب يجيئون في أشكالٍ وهيئاتٍ وألوانٍ مختلفة. فهذا هو العنكبوت النائم، سيداتي، سادتي! ويُعرف بـ «مِسْتِر غرين». هو يغطّ في نومٍ خفيف كل مرة يتوقف فيها عند إشارة حمراء. ويستفيق فور عودةً الإشارة إلى اللون الأخضر. يقول بعض السائقين إنه يغلق جفنيْه فقط، لكنه لا يغفو، بل يبقى واعياً لكل ما يدور من حوله. ويقول آخرون إن لديه، تحت جفنيه، جهازاً لكشف الألوان. لكن الحقيقة تقول إنه يستفيق من النوم كلّما تحسّس بصره لوناً أخضر، معتقداً أنه عاد إلى موطنه، إلى قلب غابات الجنوب الخصبة. قيل إنه كان يوماً في مقهى بوليرو، فغطّ في النوم وهو يتناول وجبته، حتى تدلّى رأسه فوق طبقه. لكنه سرعان ما استفاق عندما جاءت ابنة صاحب المقهى بطبق سلطة خضراء. هكذا حصل صاحبنا على لقب «مِسْتِر غرين».

والآن سيداتي سادتي، هيّا نرحب بالعنكبوت «البوّال». السائق الذي لا يفارق سيارته أبداً! يعمل عليها عشرين ساعة في اليوم في سبيل تنفيذ خطة رسمها لنفسه. هدفه هو التقاعد يوماً ما في جزيرة، والعيش في بيته هناك مع زوجةٍ شابة.

ولأنه لا يترك سيارته أبداً، فهو بالكاد يستحم. والأسوأ من ذلك، أن هذا العنكبوت يحمل معه دائماً وعاءً فارغاً مقاوماً للتجمّد ليبول فيه. فالذهاب إلى الحمام مضيعة لوقته. يخشى أن يفوته نداء المنظّم أو زبونٌ في الشارع. قيل إن امرأة شابة جلست قربه

يوماً على المقعد الأمامي، وسرعان ما طلبت إليه إيقاف السيارة وخرجت لتتقيأ على حافة الطريق. لو كنتُ زبونه، لتركتُ الفكّة لهذا الخنزير، وما مسست شيئاً مسّته يداه، ولأصبحت واهباً سخياً لأساهم في الحد من انتشار الأوبئة حول العالم. فهذا العنكبوت يمكن أن يبتليك بالتيفوئيد، والطاعون، والتهاب الكبد أ، وب، وج، والأبجدية الفينيقية كلها.

العنكبوت البوّال رجل قد يفوز في أي نوع من المصارعة. فلو أمسكك بخِناقك ووضع أنفك تحت إبطه فقط، لقضى على حاسة شمّكَ، أو سبّب لكِ انقطاعاً فورياً في الطمث. وإذا هبّت رائحة من روائحه كانت أشد قوة من روائح آلاف الصليبيين القذرين مجموعين. وستتوسّل الرحمة والهواء النقي، وتركع على ركبتيك منشداً صلاة «الأبانا» ست مرات و«السلام» خمس مرات.

لكنه أيضاً رجل عصر النهضة. فلمعرفته الواسعة للفن وعلم السوائل الجارية والراكدة، ولتصوّفه العظيم الذي يعبّر عنه بأسلوب حياته المتنسك، ولقدرته على القيادة لساعات طوال، ولمواهبه في الكيمياء وجمع الذهب... لكل ذلك، كان رفاقه يُكْبِرونه، وكان خصومه يخافونه. هو خليفة حقيقي لسلالات الملوك الأوروبيين النبلاء، وأنا أدعوه العنكبوت البوّال. لكنه لم يستحق مقامه الملكي فعلاً إلا حين اشتهر بين زملائه السائقين باسم لويس الرابع عشر، تيمّناً بالملك الفرنسي الذي لم يستحم يوماً في حياته. حين كانت

الشمس تضرب لوحة العدّادات في سيارة ملك الشمس، كان انعكاسها يتحوّل إلى طبقة غبار كثيفة، كافية لعشر بصمات أصابع على المعابر الحدودية. وفي شهر كانون الأول/ديسمبر من كل عام، كان يقول: بعد عام في مثل هذا اليوم، سأكون في طريقي إلى عروسي الشابة على الشاطئ. إلا أن طبقات الغبار المتراكمة في سيارته، هي التي تحوّلت رمالاً وشطآناً، وصارت رائحة مقعده رائحة القديم والمألوف، وأصبحت الفجوة في كرسيه فخاً من البؤس، ومستنقعاً عكِراً اختلط فيه الطمع بالحقارة، والدفء بالأمان.

في الصباح الباكر، حين أنتهي من عملي، بعد أن أكون قد مسحتُ الشوارع كلها، والتقطتُ بعض البوم والضباع ومجموعة من القردة الليلية المتحفّزة للعودة إلى منازلها، أركن سيارتي في المرأب تحت المبنى، وأعدّ المال الذي جمعته، ثم أخبئه تحت معطفي الطويل.

عند انتهاء كل مناوبة، تحتفظ سيارتي بآثار ما أدخله الزبائن من طعام، وسلعٍ منسية وضعوها جانباً ليخلعوا أحذيتهم ويومئوا بأصابعهم إلى اتجاهات مختلفة. وجدتُ قبعات، ومحافظ، وأوشحة، ووثائق، وفكّة. ووجدتُ أيضاً فيها طلاء أظافر، وعلب ماكياج وسكاكين، وآثار مخدرات، ومظلات مقفلة، صغيرة وكبيرة، مبلّلة في معظم الأحيان. وبات صندوق سيارتي خزنةً تحفظ كل شيء. أما داخل هذه الآلة، في المساحة الممتدة ما بين زجاج

الأبواب، فإن كل كلمة، وكل حركة، وكل شكوى أو اتهام، وكل ضحكة، تمتصها الإسفنجة العطرة المتدلية من المرآة الأمامية على شكل شجرة أرز.

هذه هي أسعد أوقاتي، حين أنقّب عن آثار الليل، وعن كل ما ينساه الركاب قبل أن يتركوا سيارتي. الناس ينسون أشياء، ويتركون أشياء، وهم يخبرونك أصدق القصص عن حياتهم الخاصة. ركب معي يوماً مقامر بكى وناح، ولام زوجته على إدمانه. فبعد أن قضى ثلاث ليالٍ يلعب القمار، حان موعد العودة إلى البيت. وعندما وصلنا كان الليل في منتصفه، فسألني أن أدخل معه. قال: «سأطلب من زوجتي أن تدفع لك، وستعرف حينها أنني خسرتُ كل شيء». وقفتُ عند المدخل أراقب المرأة تصرخ وتكسّر الصحون، في حين كان صغارها، في ثياب النوم، يبكون تحت أقواس الأبواب.

زينب

أما جارتي التي تقطن الشقة المجاورة فاسمها زينب، وهي آنسة مجتهدة، رصينة وهادئة، ومبتسمة دائماً. إنها من نوع أمناء المكاتب الذين يطمرون بركاناً في داخلهم، وقد ينفجرون في وجهك في أي لحظة. فيشعلوك ويحوّلوك إلى عجيبة مشرَّحة.

زينب! آهِ زينب. من تخشى الآخرة، لا تتبرّج ولا تتأنّق، وبالكاد

ترتدي ثياباً ملوّنة. تلعب دور المتقشفة المثقفة... فتبدو محافظة، لكني على ثقة أن وراء هذا كله لغزاً يجب حلّه. كل شيء فيها يقول: «إن لم تنظر إلَيّ بإمعان، وإن لم تغص عميقاً في بساطَتي لتكتشف البركان المتأجّج داخلي، فأنت لست هو». إن تجار السجاد، والمترجّحين على الحبال، والمسؤولين المؤقتين بستراتهم الجلدية، وسائقي التاكسي بأطوارهم الشاذة، وكل أولئك الرجال الذين يرغبون في شك الريش في أقفيتهم ليتمايلوا كالطاووس، هم مصدر للتسلية، لكنهم ليسوا هو.

قد أكون مخطئاً، لكني أفترض أن زينب تبحث عن النوع المتأمّل الذي يقصد الكهوف، ويتسلّق الجبال، وينتظر الوحي الإلهي عبر دخان علبة سجائر، أو ربما النوع البسيط الذي تبدو كل كلمة من كلماته نبوية وعميقة، ترن مع صوت الهدير النابع من الصور والأبواق السماوية. أو قد يكون رجلاً بشاربين، يقوم بدور المايسترو في فرقة أوبرالية مصرية، يسرّح شعره مع فِرْقٍ جانبي، منتظراً في حصنه بسالفيه وبذلته الرسمية اللماعة، يحمل سيجارة في يده، ينفثها ويردّد: مصر أم الدنيا... أم الدنيا... أم الدنيا.

غالباً ما ألتقي زينب عند الصباح. فنقف ونتحدّث بتهذيب. ثم أخبرها قصة أو اثنتين عن ليلتي في العمل. غالباً ما تقهقه أو تضحك، وإلا تكتفي بالابتسام والاستماع إلَيّ. ثم نواصل الحديث عن الكتب، وعن مواضيع مختلفة مثل وحشية التاريخ، وادّعاءات

الجنس البشري، والحياة وسخفها. ثم ننتقل إلى الأدب، وإلى مسائل فكرية صعبة متعلّقة بالموت والهجرة، وخسائر أخرى. وحينذاك تتحول ابتساماتها نظرات تأمّل، فتتذكر أنّ عليها العودة إلى كتبها ودراستها.

وقبل أن تتركني عادةً، أسألها أو ألمّح إلى موعدٍ لاحتساء فنجان قهوة، أو تناول عشاءٍ وكأس نبيذ أحمر في شقتي. ولئلا نسرّع الأمور، أدعوها إلى وجبةٍ في مطعم تختاره بنفسها. لكنها في كل مرة، تبتسم وتخبرني بألاّ وقت لديها. وتشرح لي أنها مشغولة بعملها في المكتبة الوطنية، وأن أطروحتها تسرق منها الوقت الباقي.

أخبرتني زينب مرة أن دبلومها الجامعي في الدراسات الإسلامية، وأن كلمة جهاد تأتي من الاجتهاد، أي تكريس النفس للبحث والمساءلة والإصلاح. حتى أنها دونت لي أسماء بعض الكتّاب مثل محمد عبده، والغزالي. لكن قبل أن تضيف المزيد، قاطعتُها قائلاً: ولكن يا زينب، يا عزيزتي، إن الإله قد مات! قتلتُه بنفسي ذاك اليوم. دهستُه بسيارتي وهو يجتاز الطريق والإشارة حمراء. أعتقد أنه كان عليه أن يعرف أكثر، لأنه إله... وقبل أن يغمض عينيه، ويتلو صلاته الأخيرة لنفسه، قال لي: يا بني، تشرّفتُ بلقائك. يا بني، حسناً فعلتَ بقتلي الآن، لأن كل هذه الألغاز حول البابوات وقبعاتهم المثلّثة المضحكة وعصيّهم الرعويّة، فضلاً عن الراكعين على سجاداتهم، الذين لا يكفّون عن الانتشار، والباحثين قصيري النظر عن المعابد

المنقرضة، والقبائل التائهة لعدم معرفتها الاتجاه الصحيح، باتت اليوم أموراً تصعب السيطرة عليها. ثم، لسببٍ وجيه، أو ربما غير وجيه، تابع حديثه بالفرنسية وقال: انظر يا بني، ربما تعرف ذلك جيداً، لكن عرب الصحراء الساميين، والسريان، والآراميين، والنساطرة، والأنباط، واليهود، فهموا كل شيء بالمقلوب، والأسوأ من ذلك، أنهم فسّروه حسب ميولهم. وحصروه بالطعام والفرج، كما لو أن مدرّبي اللياقة البدنية في هوليوود قاموا بوضع نجمة منطفئة على نظام رياضي وحميةٍ غذائية. فذرية إبراهيم مهووسة بخلط العناصر الغذائية، وبتغطية شعر المرأة، وحلاقته، وجدله، لتنظيم دورات فرْجها... نعم سمعتني جيداً. قلتُ الفرْج وليس الفرَج... فهموه كلهم بالمقلوب، حفنةُ المثقفين الرجعيين أولئك. وها هم اليوم يحاولون ترقيعه بقليلٍ من القصائد والتبريرات، لأنهم يعجزون عن رؤية ما وراء الكثبان الرملية، فوق طرف صندلي الكبير، وأنا على ثقة أنه، بعد هذا الحادث المشؤوم، أو غير المشؤوم، بات في الجهة الثانية من الطريق... احرص على أن يدفنوه معي!

ابتسمت زينب بحيرةٍ وذهول، وهزت رأسها كفراً بي، ثم تركتني مرةً أخرى مع أفكاري وهي تدور، وتدور، حول نيران جهنم الملتهبة.

الصباح

كل صباح، نعم أقول لكم كل صباح، بعد أن تنهض زينب عن

ركبتيها المثنيتين لتهبط الدرج، وهي في طريقها إلى الجامعة، وسط النداءات النائية، والصدى البعيد الآتي من الأعالي. كل صباح أفتح راحة يدي باتجاه الشمس، وأتمدّد على سجادة أبي، ثم أمارس بكل نشوة عادتي السرية.

أنا جارٌ نبيل روحه كريمة. في أحلامي الصباحية، أدعو الناس إلى الانضمام إلَيّ في ابتكار أحداث هذا العالم وإعادة ابتكاره: الظلم العالمي، حركة النجوم المتكرّرة، وكل ما يتعلّق بالوجود الأنتروبولوجي. في خيالاتي الجامحة، أكشف النقاب عن الشق المضحك الهزلي، الأحمق، الذي يرهق تاريخ البشرية. كنتُ أتسلّقُ أبراجاً وجدراناً، وأقاتل حراساً وأشباح وحوش، وأشارك في معارك، وأحرّك يديّ على وقع طبول الحرب المنتظمة، وإيقاع مسيرة الأبواق القاتمة، ورفرفة رايات جيوش من المهابل العاصفة، الجاهزة للانفراج ونسخ العالم ملايين المرات. فأضرب وأضرب حتى أسمع شهيق جهنم من الثقوب الوردية، وفروج الثدييات والديناصورات الوحشية، وساقي السيدة الضفدعة الواثبة، وأثداء أخواتنا المستترات شبه البارزة، أولئك اللواتي تحرّرن بلطفهن من إدانة المذاهب المقدّسة.

هناك دائماً علبة مناديل ورقية بجوار سريري، وفي داخل سيارتي. ويوجد أيضاً «شبشب»، وقِمم وجبال من الكتب. حين يكون خيالي منصفاً، وحين يُنقَذ العالم ويُحرّر بنشوة إبداعي، وحين

نُقوِّم كل كلمة، وتُوَقِّت كل محادثة، وحين تصيب كل رصاصة هدفها، وتصل حماقة التاريخ إلى نهاية سعيدة، فيقتل اليتامى الطغاةَ بمسدّساتهم يوم العيد، أشعر بالنشوة وأقذف إلى أبعد من البعيد. أستطيع أن أطلي الجدران بدفقات كثيفة من ملاحم شعرية نديّة، وكتلٍ بيضاء مقطَرة من رموز مجرّدة. وأحياناً أقذف بعيداً، وألطَخ عينيّ، وأصيب نفسي بالعمى. باحثاً عن المياه، أسير باتجاه صوت الأنابيب المقعقعة، وصنابير هذا المبنى القديم الصدئة، فأجد نفسي مجدّداً داخل زنزاناتٍ واسعة، وحمّاماتٍ مشتركةٍ قذرة، وأماكن استحمامٍ خالية من الصابون، لأنه زمن حرب، وجميع السجناء حفاة صعاليكٌ، يحتشدون في الصقيع، ويُطمرون مع صيحات الحرّاس ونباح الكلاب.

ولكن، لحسن حظ ضحايا التاريخ وأولئك الرجال الضعفاء، أصلُ أخيراً إلى النهر، وأغسل القذارة التي دخلت عينَيّ. أمشي في الصقيع باتّجاه الأسلاك الشائكة، فتُضاء الشباك الحديدية من الخلف بمصابيح الحراس، وأنقذ أولئك السجناء المساكين، وأحرّر الفتاة. (الرجاء أخذ العلم بأنني قد أمارس العادة السرية أكثر من مرة في اليوم).

عندما ألتقي زينب على الدرج، نتصرّف بتهذيبٍ وأدب وأخلاق. وبابتسامات محتشمة، وعيون منخفضة، ومسافة بضع خطوات تفصل بيننا، فضلاً عن خط الدرابزين الذي يحمينا من

الإغراءات، أحاول أن أستدرجها إلى الكلام، فأسألها عن حياتها، وتسألني عن حياتي.

ذات مرة، سألتني زينب من أين أتيتُ. فقلتُ لها إنني نشأتُ في سيرك. لكن أبي الذي كان رائد السجادة الطائرة، تركنا ذات يوم ليذهب نحو الشرق، في رحلة حج بحثاً عن الله وأسمائه الحسنى التسعة والتسعين.

سألتني إن كنتُ مسلماً، فقلتُ لها: نعم ولا، لأنني أشرب وأزني، وأداعب الممثلات الحقيرات في أيام العطلة، وألتهم الخنازير الوردية، ولا أولّي وجهي إلى الشرق ولا إلى الغرب.

- وأمك؟ سألت زينب.

- أمي كانت تترجّح على الحبال. وكانت تعشق الأقزام حين يلتهمونها في مؤخرة ركبتيها. كما كانت تحتجزني في الغرفة الخلفية، عندما يأتي المهرجون إلينا ليحضروا مزيداً من الطعام وحلوى غزل البنات. قالت لي يوماً إن الجنة في متناول أيدينا، وإن الجحيم يقع في مكانٍ ما بين الصحراء والقطب الشمالي.

ثم سألتني زينب عن اسم والدي، فأجبتُها:

نسيتُ اسمه منذ زمن بعيد. لقد هجرنا قبل أن تتسنّى لي رؤيته على الأرض. لكنني أذكر جيداً أنه كان يضع عمامة خلال عرضه وهو يطير بسجادته عالياً. وذات يوم، توقّفت سجادته عن الطيران،

وسقطت على مرأى من آلاف المشاهدين. فشعر بالخزي، وتمنى الموت، ولعن الحياة.

ما زلتُ أذكر اللحن الذي كان يرافق طيرانه. لحّنه له غجر يهود، وعزفته فرقة أرانب إيطالية مزعجة. كان يشبه الموسيقا التي تغوي الأفاعي، وتُخرجها من سلالها مستسلمةً، هادئةً ومطيعة، فيُبارك رجل العمامة ويستمتع الجنس البشري.

- أكره الأفاعي وخبثها، قالت زينب.

- وأنا أحب جرأتها المطلقة، أجبتُها. أحبها لأنها تتدلّى على الأغصان لتزوّدنا بالحكمة. وتحذّرنا من تلك المخلوقات المزيفة والمغرورة التي تأمرنا بألاّ نمارس الجنس من الخلف تحت شجرة الصبار (يُعرف عن أشواكها المروّسة بأنها مؤلمة)، وألاّ نقذف في ممالكها، ونلطّخ سجاداتها المزينة بغيوم بيضاء خفيفة وأشجار بازيلاء عملاقة. أحب الأفعى لأنها ترقص وهي تحدق مباشرةً إلى العينين، تطرح إهابها وتتوارى بهدوء.

سألتُها: وأنتِ يا زينب، هل كان أبوك رحّالة وأمك مترجّحة على الحبال؟

- نعم، قالت. والدي أيضاً جال في حياته. فقدَ منزله وتشرّد وهو في الثامنة عشرة من عمره. سُلبت منه أرضه، فاضطر إلى التجوال فترة. وحين تعرّف إلى أمي، استقر مجدّداً، وعمل جاهداً، وصلّى كثيراً، وربّانا على هذا النحو.

- وأملكِ؟

- لن أحدّثك عن أمي أو عن حياتها البسيطة. لكني أرجوك في المرة المقبلة، ألا تتردّد في متابعة الحديث عن أمك.

بهذه الكلمات، تركتني زينب ورحلت.

المركب

سيارتي، أو كما أدعوها مركبي، وفي بعض الأحيان طائرتي أو منزلي أو مكتبتي، نظيفة، وبرّاقة دائماً، وجاهزة لنقل الركاب الذاهبين إلى العمل، أو إلى شهر العسل، أو للحاق بطائرة أو الانضمام إلى رحلة بحرية مع فرقة راقصة وطاقم مضياف من سقاةٍ، وربابنةٍ، وأطباءٍ عُزْب.

أفتخر بالخدمة التي أقدّمها لأننا، أنا وأمثالي، حمّالو هذا العالم، وناقلوه، وأدوات ربطه. حاول أن تتخيل مصير أي سلالةٍ عظيمةٍ من دون حمار أو فيل أو جمل. لن أبدأ الكلام عن الخيل، ولكن تخيَّلْ أين سيكون الهيكسوس اليوم من دون عرباتهم، أو الغزاة المحمديون من دون خدمهم الحُدب، حاملي التمور والسيوف والمياه وحليب الماعز! أولئك الرائعين! ولولا خدمات الجمل، لكان البيزنطيون المهزومون ما زالوا يتجادلون حتى اليوم حول جنس الملائكة، وهم يمدحون أنفسهم على طهارة سيدة الحَبَل بلا دنس.

في سيارتي، أخفي عصا ريشٍ ومفكّاً. أضع العصا تحت مقعدي والمفك إلى جانبي.

لقد أخذتُ بنصيحة صديقي مامادو، العنكبوت السنغالي الذي يقصد مقهى بوليرو. قال لي يوماً: إياك أن تحمل مسدساً، ولا حتى سكيناً. أبقِ معك عصا غليظة ذات ريش نعام لتُبقي القذارة والمشاكل بعيداً عنك. واترك معك مفكاً تطعن به عند الحاجة. فلا يمكن للبوليس أن يتّهمك بالعنف المقصود. يمكنك الادّعاء دائماً بأنك كنت تدافع عن نفسك بشيء وجدته في متناول يدك.

ومع ذلك، قدتُ لسنوات من دون أي منهما، إلى أن بدأت سيارتي تتّسخ وتنهار تدريجاً. كل شيء فيها بدأ يهتزّ ويرتجف، فخفتُ سقوط المرايا، وترجّح الأبواب أثناء فتحها أو غلقها، وانجذاب الفقراء المعدمين يرجونني لأقلّهم مجاناً. مثل ذلك المتشرّد الذي أركبته ذات ليلة اشتد فيها البرد، وأقفرت الشوارع. بدا لي الرجل وكأنه على وشك الانهيار. وقف أمام سيارتي، غافلاً عن ازدحام السير، فتغيّرت الإشارة وراء كتفه، وبدا قدّيساً يشع نوراً. رمى أكياسه وسط الطريق، ورفع يديه كالمسيح، وتوسّلني أن أدعه يركب سيارتي.

فتحتُ نافذتي فاقترب مني وقال: «إلى هناك»، وأشار بإصبعه إلى السماء خلفه. «لستُ ذاهباً بعيداً. أرجوك، أشفق على عظامي

الهشّة. الطقس بارد، وليس لديّ مال لأستقل الحافلة. أنا جائع، وأريد الذهاب إلى المأوى حيث يقدّمون الحساء».

تركتُه يركب السيارة، فجلس على المقعد الأمامي، وجمع أكياسه بعضها فوق بعض في حضنه، فغطّت لوحة العدّادات، وعبرت حدود مقعده إلى مقعدي. كانت تفوح منه رائحة فقيرٍ مُعدم. وراح يتحدث عن اللّه وملائكته، فقال إنه رآهم في تلك الليلة.

- من؟

- الملائكة، الملائكة. وبدأ يتكلم. كانت شفتاه ترتجفان مثل أجنحةٍ من دون ريش، واصفاً الملائكة الذين حطّوا على حافةٍ قرب النهر. أما الكيس الأسود الكبير، فكان يخشخش بصفائحه الفارغة وكأنه مسكون بشياطين وأفاعٍ. أنزلتُه تحت الجسر. وما إن خرج من السيارة حتى بدأ يركض، ويصرخ: «سأصلي من أجلك. سأصلي من أجلك»، وكانت أكياسه ترتطم بعقبيه.

بعد دقائق، كنتُ أرد الفكّة إلى أحد الزبائن، فعرفتُ أن الرجل الذي وعدني بأن يصلي من أجلي، قد مرّر يده من تحت أكياسه وسرق محفظتي. أما الزبون الذي كان يسترسل في الحديث عن زوجته وصغاره في المدرسة، ويشتكي من زيادة معدل الجرائم في المدينة، فقد أخذ يثرثر حول سائقي التاكسي، وافتقارهم الدائم إلى الفكّة.

- أعتقد أنكم تتعمدون ذلك، قال الرجل. فبهذه الطريقة تحصلون على مالٍ أكثر.

كم هو شكّاك، فكرتُ في نفسي. العالم كله شكّاك، ولا يراعي مشاعر الآخرين.

كلهم يأتون بأوراق نقدية يضغطون بها على أكتافنا، ويلوّحون بها بكبرياء الأغنياء، ويسلبوننا كل الفكّة. ونحن نسأم من فتح نوافذنا بموازاة نوافذ زملائنا السائقين، ومن مد الخمسينات اللامعة تحت الضوء الأحمر هاتفين: أخي، هل لديك فكّة. ونمتعض من التوقّف عند محطات الوقود لشراء الحلوى والسكاكر وفك الأوراق، ونستغل الفرصة لنغسل وجوهنا في حمامات معتمة قذرة، تحوّل ورق الحمّام فيها سجادةً على أرضٍ مبلّلة مثل أوراق ملوّنة في صباح اليوم التالي للكرنفالات والمعارض.

ذات مرة ركب معي فتى نحيل أراد أن يذهب إلى ملهى «كاراج» الليلي. كنتُ أعرف هذا الملهى، فقد ذهبتُ إليه مرة، ولكن تلك قصة ثانية. ارتعش وتحدث، ثم ارتعش وشمّ. وعندما نظرتُ في المرآة الخلفية مجدداً، لم أتمكن من رؤيته. اعتقدتُ أنه اختفى أمام ناظري. فتحققتُ من قعر مركبي، لأنني كنت أعرف أنه من الوزن الخفيف الذي قد يغرق في مياه مضطربة، فرأيتُ إبرة في يده مهيّأة للشك.

انتظَر الوقوف عند الإشارة الحمراء قبل أن يغوص في عالمه.

أوقفتُ السيارة لأراقبه. كان صغيراً متقوقعاً، ويداه ممدودتان فوق ظهر المقعد. بدأت السيارة خلفي تزمّر وتلعن، ولكن عليك أحياناً أن تتجاهل الضوء الأخضر. ألقيتُ مرساتي ليبقى مركبي في مكانه فعلت أصوات الأبواق من خلفي. إلا أنني انتظرتُ حتى دخلت الإبرة في عرقه. أردتُ أن تحط إبرة هذه الجثة الطافية في المكان الصحيح، ولا تُهدر في العضل أو العظام. أردتُه أن ينهي ذلك ويترك سيارتي ويطير. أن يرقص، ويحيا، ويهرب من واقعه لفترة قصيرة.

أنا لا أحكم على من لا يحلمون، وعلى من يحتاجون إلى شكّ أذرعهم ليبتكروا عوالم مختلفة تحت سطح جلدهم، لأنني محظوظ في الأشياء التي اخترتُها للهرب من واقعي. فأنا، في أي لحظة، قادر على ركن سيارتي تحت الجسر، وقادر في ثوانٍ على ارتداء بذلة المناضل من أجل الحرية، مثل أي بطل رسوم هزلية، والطيران فوق أنقاض الرجال، لأدَع سعادتي تحط مباشرةً بين يدي.

- خذها معك، قلتُ له. لا تترك هذه القذارة في سيارتي. أرني إياها.

فاستجاب فوراً. ثم فتح الباب، وخرج من السيارة، ومشى باتجاه أقرب جدار وعانقه.

المسدسات

يوجد رجال على كل سائق تاكسي أن يحذر منهم: إنهم رجال هادئون ضاقت سُبُلهم. أولئك الذين تقود بهم لساعات طويلة وتسلك معهم منعطفات تثير الغثيان. أولئك الذين يصيبونك بالاشمئزاز والنفور، ويجلبون لك البؤس والقمل، أو يدخلونك في غيبوبة الفُرش الملطّخة في مصانع المخدرات والسجون.

الليلة الماضية، ركب معي اثنان من هذا النوع.

بدا لي الرجل ابن ساقطة حقيراً. وكانت صديقته تحمل أكياساً كثيرة. كانت تتحدث وهو صامت، وبالكاد يومئ. ينظر إلَيّ في المرآة، ثم ينظر إلى الخارج، ويغمض عينيه، ويلقي برأسه إلى الأمام تحت ثقل ثرثرتها وشكاواها.

- القمر مكتمل، قالت له. حبيبي، لنصعد الليلة إلى السطح، ونراقبه.

أضافت بعض التفاهات عن صديقاتها، وعن الفساتين، وغيرها... وغيرها. فطلب منها الرجل أن تخرس، فصرخت، ورفعت الوسطى في وجهه. حين وصلنا، نقدني المال وتركني أحتفظ بالباقي، فشكرته. بالكاد رد علَي. فاتر جداً هذا الرجل، وكريم جداً، وثري جداً، ومترفّع جداً عن شكاوى النساء وبقية أجرة الرحلة.

ابتعدتُ عنهما وأنا أرتب المال في محفظتي، مفرّقاً الأوراق

النقدية الكبيرة، واضعاً إياها في صندوق لوحة العدّادات، تاركاً النقود المعدنية إلى جانبي. أشعر بضيق عندما تخشخش محفظتي بالنقود المعدنية. فثقلها يذكّرني بأن عليّ أن ألصق فخذَيّ بالمقعد بضع ساعات إضافية.

بعد مروري بمبانٍ عدة، ألقيتُ نظرةً سريعةً في المرآة، فبانت لي مسكة كيس على المقعد الخلفي. لقد نسيت السيدة أكياسها. أوقفتُ السيارة، ورحتُ أبحث فيها. كل شيء كان لماعاً وواسعاً. ولو كانت أمي على قيد الحياة، لقدّمتُ لها هذه الملابس اللماعة لترتديها على الحبال. ولو كان المهرج «بينكي» لا يزال في الجوار، لأعطيتُه هذه البنطلونات الفضفاضة، والقمصان الواسعة، والقبعات الملونة. كم هو رائع أن يفكر المرء أولاً في أصدقائه وعائلته في زمن السلب والنهب هذا.

عدتُ أدراجي، وأوقفتُ السيارة في وسط الشارع، دون أن أتذكر أي منزلٍ دخلا بالتحديد. كان الوقت متأخّراً، وبرغم ذلك زمّرتُ بقوةٍ أمام جميع المباني، آملاً أن يطل رأس، أو تلوّح يد وتطلب أن أنتظر قليلاً، فتسرع صاحبتها هابطةً الدرج بفرح، وفي يدها مكافأة. أو أحظى على الأقل ببعض التصفيق.

أطلّت المرأة بشعرها الذهبي الغزير وكعبها العالي، وأسرعت نحو سيارتي صارخة: «أنت رجل طيب». وفتحت الباب الخلفي وأمسكت بأكياسها.

- سيهتم بك جيداً، أيها السائق، لا تقلق. كن كريماً معه يا زي، قالت لصديقها عندما أطل وراءها. كن كريماً.

وبكل ثقة، تقدّم الرجل ببطء من سيارتي، وأعطاني ورقة نقدية كبيرة. وقبل أن أغلق النافذة من جديد، ربّت بيده على كتفي وقال: لمَ لا تعمل مع رجلٍ كريمٍ مثلي؟

- أين، وماذا؟ سألتُه.

- هنا. تبقى في سيارتك، في مكتبك يا رجل، وتجول بي في الأرجاء. وأنا أجلس على المقعد الخلفي مثلما فعلتُ منذ قليل، وأقول لك إلى أين تذهب. بضع ساعات في اليوم، وسأهتم بك جيداً.

- هل ثمّة شيء غير قانوني؟ سألتُه.

- غير قانوني؟! ردّد ورائي. وما هو القانوني يا رجل؟ هل التاريخ قانوني؟ هل كانت فيتنام قانونية؟ بحق الجحيم ما هو القانوني في هذا الكون؟ فالنجوم يأكل بعضها بعضاً، والذئاب تأكل الخنازير، والجدات يستغللن قصة ليلى ذات الرداء الأحمر.

- لا شيء قانوني، بالطبع.

- بلا شك، لا شيء قانوني.

- موافق، قلتُ.

- أنتظرك هنا ليلة الإثنين. هنا بالتحديد، وفي تمام الثامنة مساءً.

ثم فاجأني بابتسامة واسعة تلتها قبضةٌ من يده على قلبه.

تركتُ المكان وسرت بعض الوقت. كانت الشوارع مبلّلة، والمياه تجري تحت أقدام المشاة، والمطر يدور ويدور مثل هالات حصى رُميت على سطح بركة ماء. رحتُ أقود في حلقات دائرية كما يدور الكون، وينفجر، ويملأ نفسه بالغبار والسوائل، لا أعرف إذا كنتُ أدور يميناً أو يساراً، وإذا كنتُ أحدّق في بريقه القادم من زمن ما قبل التاريخ، أو في نجومه العملاقة.

واصلتُ القيادة، لكنني لم أُقلّ أي زبون في تلك المدينة الشمالية الغارقة بالمياه. واسيتُ نفسي بالتفكير في أن البحارة والرجال يثملون في هذه الساعة في الحانات، ويتناولون عن البار رقائق البطاطا المقرمشة وهم يتحلقون حوله، في حين يدور سحاب من الذباب الدائخ من رائحة الحيوانات المشوية فوق الرؤوس الصلعاء المدوّرة الغليظة.

شعرتُ بالجوع وأوقفتُ السيارة.

دخلتُ مطعم وجباتٍ سريعة، وتوجهتُ مباشرةً إلى الحمام. هناك وجدتُ شرطياً يبول في مغسلة الحائط البيضاء. غسلتُ يدَيّ، وشعرتُ كأنه يراقبني. فدخلتُ الحجرة وأقفلتُ الباب، خوفاً من أن تصفعني الدولة بغرامةٍ لعدم غسل وجهي، أو لعدم إفساح الطريق

أمام السلطة، أو لاستهلاكي كميةً كبيرةً من الصابون الذي يُرغي، فتفاجئك فقاعاته مثل طلقات نارية، وتصيبك بالذعر والهلع.

انتظرتُ رحيله. ثم خرجتُ من الحجرة، وحزامي لا يزال رخواً، أبحث في جلده عن الثقب. أخيراً شبكتُ الحزام، وغسلتُ يدَيَ مجدداً لأقضي نهائياً على الجراثيم. لا شك في أن بعضها أفلت من المطهّر. ذهبتُ إلى الكونتوار لأطلب شطيرة وقهوة. ثم قررتُ أن أقود باتجاه الجبل لأتحقّق إذا كان القمر قد اكتمل أم ما زال فارغاً.

أبي

«لا يوجد فراغ»، قالت السيدة الملتحية التي ربّتني بعد رحيل أبي وموت أمي، «ثمة حركة فقط». ثم طلبت مني أن أملأ الدلو لأنظّف عجلات القافلة.

قالت: كان أبوك يقود جملاً عندما ظهر من وراء كثبان الرمل، وكان يحمل على ظهره كومةً من السجاد، وأحجاراً زرقاء يدفع بها عين الحسود. كان تاجراً يحب الطيران. وما إن وقعت عينا أمك عليه، حتى ذابت في بحر ابتساماته التي أنقذت حياتها من العزوبية. رموشه الطويلة دغدغت مؤخرة أذنيها، وحاجباه السميكان المقوّسان تبارزا على صدرها مثل سيوف هندية قاطعة. سجادات أبيك كانت تطير دائماً فوق الأرض، وهو لم يحنِ يوماً رأسه إلى الأسفل. كانت

عيناه محدقتين دوماً إلى النجوم. غيّر اتجاه الرياح بعمامته، ووجّه سجاداته الطائرة بشاربيه. طار فوق أعمدة الخيم، وسط دهشة المتفرجين وسيل تصفيقهم.

التقى والداي عالياً فوق الأرجوحة، في عرض مشترك حقق نجاحاً كبيراً. اندفعت أمي بحبلها إلى سجادته، فالتقطها أبي وصاح، تمسّكي جيداً يا مريم! (كان يصر على مناداتها مريم بدلاً من ماري، تيّمناً باسمها كما ذُكِر في الكتاب المقدس). وكانت هي تطير وراءه كما لو أنها تتزحلق على مياه الفضاء.

ذات يوم، التقى أبي برجل ملتحٍ يرتدي ثوباً طويلاً. كان ذلك الرجل قادماً من الشرق، تماماً مثلُ أبي. تحدّثا معاً عن الحياة والموت، وعن خطر الطيران. وفي ليلة مقمرة، اعترف أبي علناً بأنه صار مؤمناً، وقال إن السجّاد وُجد ليبقى ثابتاً على الأرض. «السجّاد للمصلين فقط، وليس للفنانين البارعين، والمهرجين الطائرين»، قال الرجل لأبي. «والسجادة طبقة رقيقة تقوم بين الأرض والسماء».

ارتدى أبي ملابسه القديمة، وامتطى جمله، ولفّ واحدة من سجاداته التي لم تعد تطير، وغادرَنا. بعد رحيله، لم يبقَ أي من سجاداته على الأرض. عادت كلها لتدور فوق الخيم مثل الذباب الطنّان. كانت تطير هنا وهناك، جانبياً، وصعوداً نحو الملائكة والطيور. أما الصورة الوحيدة التي بقيت لي من أبي فكانت ملصقاً

يظهره وهو جالس على سجادة طائرة، ساقاه مطويّتان، وشارباه مفتولان، ووراءه قرود تصفّق، وهررة تبتسم، ومهرجون من كل شكلٍ ولون.

بعد رحيل أبي، لجأت أمي إلى الحبال، وقضت أياماً تترجّح عليها، وتبكي وتنتحب فوق الخيمة. نسجت شبكة واسعة في الفضاء فخاً للمهرجين، ومروّضي الأسود، ومبتلعي السيوف، والرجل التمساح الاستوائي، الوحيد والفريد من نوعه، وجرّتهم كلهم إلى مقطورتنا الصغيرة، وراء خيمة السيرك الرئيسية.

كانت تحتجزني في مضجع العناكب، وتحاول تنويمي لأغفو، ولتتمكّن هي من اللعب. لكنني كنتُ أستيقظ في حالة ذهول، ربما مع وصول الصبي الذئب أو رجل الهيكل العظمي. كنتُ أمتطي واحدة من سجادات أبي، وأطير تحت السقف لأراقب أمي بعين صقر، متشابكةً مع زميلٍ بهلوان على الحبال، مغلولةً بسحر ساحر، أو مطلقة زئيراً مثل لبوةٍ تحت الحذاء الجلدي الطويل لمروّضها. وأنا، الذي كنتُ أشعر بالإطراء لقدوم مدير الحلبة إلى بيتنا، وبالسعادة لمشاهدة كرنفالات من الأجساد، واللهاث، وهمهمات اللذة، صرت أتمدّد أيضاً على السجادة لأراقب تصرفات أمي، وأتخيّل أبي على جمله عابراً حدود العالم، وأمارس عادتي السرية منتشياً.

لطالما تساءلنا إذا كان أبي سينجو في رحلة عودته إلى الديار. «في النهاية»، قالت السيدة الملتحية، «تسهل علينا رؤية الجمل

لطوله. فالجِمال لا يمكنها الاختباء. وهي خاملة جداً فلا يمكن أن تطير، وصبورة أيضاً. وهي فضوليّة وعنيدة ومتشبّثة، لا تركع أمام اللصوص، ولا تقع تحت الطغاة، ولا تهرب من البرد».

اليوم، عندما أتذكر أمي وشلّتها المتعرية، وعندما أتمدّد على واحدةٍ من سجادات أبي وأطير فوق العالم، أسافر عبر الزمن فوق أراضي المسدسات، والخنادق، والدماء، والأقطار المضطربة، حيث يقيم السلاف، والألمان، واللاتين، والأشوريون، والعرب، والأتراك، والأكراد، والإغريق، فوق تلك الأمم التي جُنّد فيها شباب، وبكت نساء، وهُجّرت جماعات، وجاعت شعوب، واحترق ملايين، هناك أحط بسجادتي لأشهد، وأعدّل، وأطير من جديد.

الكتب

- كيف حالك؟ سألتني زينب حين أطلّت، بكتبها وشعرها الرطب المسرَّح، من وراء باب المدخل.

- كانت ليلةً طويلة، قلتُ. نحن نعيش في سيرك، وسنبقى دائماً على هذا النحو. أريد أن أريك كتاباً.

- هل تحمله معك؟

- لا، إنه في شقتي. لماذا لا تصعدين؟ سأحضّر لك فنجان قهوة قبل أن ترحلي. القهوة ستبقيك مستيقظةً ومصغية، لأن الاستماع إلى

كلام اللّه قد يوقعك في حيرة مع كل تلك التناقضات. أخاف أن أقع في دوامة الملل الأبدي. ثم، إن شعرك ما زال رطباً. ربما عليك أن تغطيه، أو تنتظري قليلاً قبل أن تخرجي. اشربي فنجان قهوة ريثما يجف، وهكذا لن تصابي بالزكام.

بكل حذرٍ ولطفٍ قالت: لا وقت لديّ للدخول، فأنا لم أنتهِ بعد من كومة الكتب التي تركتها الأسبوع الماضي على بابي. ولستُ أفهم لمَ تعتقد أنني قد أكون مهتمة بـ «تاريخ مهرّجي البلاط» أو بـ «تاريخ الغروتسك الكوميدي». هل تحاول أن تقول لي شيئاً، يا فلاي؟ اسمحْ لي أن أذكّرك بأن أطروحتي موضوعها الدين.

- نعم بالتأكيد، أعتقد أن المهرجين قد يكونون إضافةً أساسيةً إلى أطروحتكِ. هل هناك شيء، على الأرض أو في السموات، أكثر قوةً من جرعة سخريةٍ أو كمية ضحكٍ كبيرة؟

- آه يا فلاي، أنت تأخذ الحياة بجدية قاسية. قالتها وهي تقهقه على نكتتها.

أضافت: لا تقلق كثيراً على شعري. سأكون على ما يرام.

- هل قمتِ أنت أو أي فرد من عائلتكِ برحلة حج إلى الحجر الأسود؟ سألتُها.

- ما هذا السؤال الغريب في هذا الصباح الباكر؟

- كنتُ أفكر في أبي الذي قام برحلةٍ إلى الحجر.

- أهكذا تسميه الآن؟ حجراً؟

- حسناً. هذا ما هو عليه.

- وماذا عمّا يمثله؟

- لمن؟ سألتُها.

- لنا نحن البشر. ليس كلنا، ولكن لعدد ضخم. ومن يدري، ربما سيصبح يوماً ما لنا كلنا.

- بالخضوع؟

- بالنقاش. قالت وهي تعبس في وجهي.

- بالمحبة أو بالقوة؟

- بالمحبة. هذا أفضل.

وقبل أن أنقضّ عليها، سألت: كيف كانت ليلتك؟ أخبرتها بعرض الرجل.

أصغت جيداً ثم سألتني: ولكن، لماذا قبلت؟

- قال لي أن لا شيء قانوني في هذا الكون، فوافقته الرأي. لذلك قلتُ نعم.

- نحن بحاجة إلى فرض بعض القوانين، قالت زينب، وإلا ستعم الفوضى في كل مكان.

- قوانين اللّه؟

- قوانين الإنسان، أو قوانين اللّه. قوانين الطبيعة. بعض التوجيهات من قوة أعظم.

- قوانين الإنسان تخدم نفسها، وقوانين الطبيعة استبدادية. لكن قوانين اللّه، بحاجة ضرورية إلى بعض التحديث.

- مثل ماذا؟

- تحريم الخمر، على سبيل المثال. علماً بأنني أكره هؤلاء المعقَّدين المتفاخرين وطريقة إمساكهم بالكأس وشمهمَ للنبيذ وبصقه. ألم يحن الوقت ليقوم هؤلاء الآلهة بنوعٍ من التعديل؟ أو بوضع ملحق، أو نسخةٍ ثانيةٍ أو ثالثةٍ مع مقدمة يضعها مترجم، مفسراً مساوئ النبيذ، أو مؤكداً منفعته؟ وما قولك في بيانٍ اعتذاري يدافع عن النص الذي لم يعد في محلّه في عصر الاكتشافات العلمية العظيمة هذا. وما رأيك بدراسةٍ حول أهمية الحرية في الحب؟ الكثير من رجال الدين الذين ينتمون إلى الجيل القديم يحتاجون قطعاً إلى النظر بعينٍ مختلفةٍ إلى الحب... وماذا تقولين في أئمة عظماء شبه غائبين أصبحت قوانينهم هي أيضاً قديمة بقدم حِيَل تدريب الكلاب؟

- ولكن، ربما هم غائبون بالنسبة إليك فقط.

- *Heureusement*(*) قلتُ، وأنا أؤدي دور الفرنسي الأنيق الذي

(*) لحسن الحظ!

يحمل شمبانيا وباقة ورد. شيء رهيب حتماً أن تلتقي بواحدٍ منهم. إن مجرد رؤية الدماء على أيديهم يثير رغبتي في تقييدهم بسريري وصفعهم حتى الموت...

ابتسمت، ثم ضحكت وقالت:

- أنت ممازح ماهر. والآن عليّ الرحيل.

البرازيل

في الليلة التالية، ركب معي أربعة حمقى سكارى. ولسببٍ غامضٍ كانوا يرتدون كلهم بدلات بيضاء. كانوا مشاكسين، وبعد أن انتهوا من قذف بعضهم بعضاً بكلمات مثل *Fuck*، والسخرية بعضهم من بعض بألفاظٍ مثل *Oh yeah, Oh yeah*، نظر إلَيّ كبش الفداء بينهم، ربما لتلطيف الأجواء العنيفة السائدة، وسألني: «من أين أنت»؟

توقعتُ بالضبط إلى أين سيقودني هذا السؤال. فقلتُ: «من البرازيل». لأن إجابة كهذه ستحوّل الحديث إلى الشواطئ، و«شبشب الإصبع». وإذا كان حظي سعيداً، ستحوّله إلى ملاعب كرة القدم، والكرنفالات. وسيجدون ما يتّفقون عليه، مثل النساء على الشطآن، وراقصات البيكيني، ورياضة ركوب الأمواج. وعبارة *Oh Yeah* ستدل مجدّداً على الموافقة. أما كلمة *Fuck* فستستعيد معناها الأصلي البذيء.

نظر واحد من أولئك الدواهي إلى اسمي المعلّق على لوحة العدّادات، وبدأ بالصراخ: أي نوع من الأسماء البرازيلية اسمك؟ أنت صاحب عمامة حقير أو واحد من أولئك القادمين من الصحراء والقذارة. نعم برازيلي! هذا واضح.. تباً لك. أنت راكب جمال كاذب، وأراهن على أنك سلكت الطريق الأطول.

وصرخ آخر: لم أرَ فندقنا حتى الآن، يا صاح. هل تأخذنا كسواح في جولة؟ قد نكون من خارج المدينة، لكننا ما زلنا أبناء هذا البلد! لا يمكنك أن تخدعنا.

بقيتُ ساكتاً، في حين ظلوا يصرخون عليّ ويسخرون.

ثم قال أحدهم، وأنا أوقف السيارة أمام الفندق: كاذب. من الأفضل لك أن تعود إلى البرازيل، يا كاذب. وصرخوا كلهم: «البرازيل؟ هذا واضح!». وأغلقوا الباب بعنف، دون أن يدفعوا الأجرة.

قالوا ورائحة الكحول تفوح من أفواههم: «لا ندفع للكاذبين، ولا للمخادعين».

تبعتُهم إلى الفندق، ومفك الفيليبس مخبّأ تحت كمّي. فقد قطعتُ عهداً على نفسي بأن أجعل الكل يدفع لي. أخبرتُهم بأنّ من الأفضل لهم إعطائي أجرتي وإلا سأحوّل بدلاتهم البيضاء رقعاً ملطّخة بالدماء، وسأطاردهم في الحانات، وأنتظرهم طوال الليل إذا لزم الأمر. فأنا بارع في سحب الغطاء برشاقة من تحت رؤوسهم

النائمة دون إيقاظهم. ويمكنني أن أخرج عاهراتهم من داخل خزائن صديقاتهم، وأستبدل أزياح الكوكايين بخيوط قصبة الصيد لتغرق في أنوفهم وتسبح نحو دماغهم. وبوسعي أن أتلاعب بكرات البولينغ، وهم يقفون يوم الأحد أمام موقد الشواء وسط المروج الخضراء. لكنهم سخروا سوياً: كاذب، كاذب! ومشوا باتجاه المصعد، باستثناء شاب قصير بقي وحده في الخلف.

تقدّم مني مبتسماً، وأخرج ورقة من فئة العشرة دولارات وأعطاني إياها. ضحك وقال: «البرازيل! نكتة موفقة. خذ الباقي يا صاح». ثم ربّت على كتفي ورحل.

عدتُ إلى سيارتي، وخبّأتُ المفك في مكانه إلى جانبي.

في الليلة نفسها، ركب معي رجل ادّعى أنه هارب لتوّه من مستشفى للأمراض العقلية. فتح الباب الأمامي، وجلس قربي وهو يلهث. قال إنه هرب من باب المستشفى عندما وقف دافع الكرسي المتحرك بينه وبين رئيسة الممرضات التي أرادت أن تقيده إلى السرير. ثم ضحك قليلاً، ودلّني على آثار الرباط حول معصمه، فنظرتُ محدقاً، لكنني لم أرَ أي أثر. ادّعى أنه قادر على الهروب من جميع القيود، ومن أي حاوية تحت المياه، لأنه يملك المعرفة.

- أي معرفة؟ قلتُ.

- كل الرجال مقيّدون، قال، إلى أن يسمعوا النداء.

سألتُه إلى أين يريد أن يذهب، لكنه لم يجب. فأوقفتُ السيارة وقلتُ: اسمع يا صاح، إذا لم تقل لي إلى أين نذهب، فقد تضطر إلى الخروج من السيارة، لأنني لن أقلّك أبعد من هنا. عليك أن تشاركني بعضاً من معرفتك وتدلني على الطريق.

لهث وقال: الوقوف موت.

- حسناً، ولكن إلى أن يصل الموت علينا أن نتحرّك. والآن قل لي إلى أين؟

- إلى المطعم القبرصي.

- حسناً، أنت محظوظ، لأنني أعرف هذا المطعم. أنت محظوظ بالفعل، لأنني لو لم أكن أملك هذه المعرفة بالذات، لعدتَ إلى الشارع، لتتابع هربك من رئيسة الممرضات.

سألتُه إن كان يملك مالاً، فأجاب بأن أخاه قبرصي، وبأنه من سيدفع لي. فأوصلتُه إلى المطعم.

قلتُ له وأنا أتبعه إلى الداخل: لا أقصد الإهانة، ولكن ألا تعتقد أن في الاسم مبالغة فهو لا يوحي بمثل هذا المكان شبه المهدّم؟

لكن الرجل تابع المشي وكأنه لم يسمع شيئاً.

أما المكان فكان حانة رديئة فارغة، ليس فيها أي دخان أو حتى

موسيقا لأصفها. وفجأةً اختفى الرجل المجنون. ربما قصد الحمام، مع أنني لم أرَ أي سلّم أو بابٍ غير الذي دخلنا منه. انتظرت على البار لفترة، ثم سألتُ الساقي إن كان قد رأى رجلاً بشعرٍ طويلٍ يمر أمامه.

لم يكن الساقي، على عكس الصور الشائعة، يحمل فوطةً بيضاء بين أصابعه يلمّع بها الكؤوس، ويرفعها باتجاه الضوء. نظر إلَيّ ثم أدار رأسه نحو الكأس التي بات يمسكها الآن، ويلف قطعة قماش داخلها. قال: إذا وعدك لوسيان بشرابٍ أو مال، فلن تحصل عليهما مني.

- من سيدفع لي إذاً؟ سألتُه.

- راجع الطاولة الخلفية، قال الساقي.

نظرتُ حولي متسائلاً عن أي طاولة يتحدث.

- هناك، أشار بإصبعه وهو يمسك بالفوطة، ويغمز بعينه.

حين تراجعتُ قليلاً إلى الخلف، أدركتُ أن القاعة كانت أكبر مما تهيّأ لي أولاً. رأيتُ طاولة بلياردو، ثم دخاناً، ثم طاولة أخرى أبعد يجلس حولها رجلان. أحدهما صاحب بنية ضخمة، غطّى الوشم ذراعيه، والآخر أكبر سناً يضع قبعة على رأسه.

نظر كلاهما إلَيّ وكأنهما تفاجآ بوجودي.

- أنا أبحث عن لوسيان، قلتُ. فهو مدين لي بأجرة تاكسي.

- تفضّلْ بالانضمام إلينا، قال الأكبر سناً. سأدفع لك الأجرة، ولكن دعني أولاً أقدم لك كأساً. ماذا تشرب؟

- أشرب عصيراً، قلتُ.

- عصير! وضحك. الرجل في حانة ويطلب عصيراً. لكنه أشار إلى الرجل الآخر ليجلب لي شرابي.

- وكيف تجري الأعمال مع سيارة التاكسي؟

- تتحسّن حين يبدأ الكرنفال.

- الجميع في هذه المدينة ينتظرون الكرنفال ليجمعوا المال، لكني أعتقد أن على كل رجل أن يرسم قدره بنفسه. أنا قبرصي، أخو لوسيان، وأنا مسرور لأن لوسيان أتى بك إلى هنا. كنتُ أفكر... حسناً... لدي ابن أخت، من النوع... كيف أقولها لك دون أن أهين أختي؟.. الضائع، ولكن ليس إلى حدّ بعيد. وضرب على رأسه، ثم أضاف: ليس كلوسيان. ابن أختي فتى بارع، لكنه لا يحب تلقي الأوامر.

- أتقصد أنه لا يحب التعامل مع السلطة؟

- أجل، أنت قلتها. لا يمكنه التعامل معها. في كل مرة ينتهي أمره معها بقصة. ذات مرة، قام بضرب مديره حتى الموت... عمل

السنة الماضية على دولاب الهواء، لكنه تعارك مع سيدة عجوز رفضت النزول من الدولاب في نهاية آخر جولة. قالت له إنها تخاطب اللّه أفضل من فوق. فحاول ابن أختي أن يخرجها عنوةً، لكنها صرخت. وماذا تريده أن يفعل؟ شغّل الدولاب وتركها معلقةً في الفضاء طوال الليل. كان محظوظاً تلك الليلة لأنها لم تمطر، وغفت السيدة وهي تصلي. وبرغم ذلك، طردوه من العمل. حاولتُ أن أشغّله في المطعم، لكنه أمضى معظم وقته في الخارج، يدخن. إنه يحب الهواء النقي، ماذا يمكنني أن أقول؟ لذا فكّرتُ في أنه قد ينجح كسائق تاكسي.

- على ابن أختك أن ينجح في اختبار سائقي التاكسي أولاً، قلتُ.

- سأحرص على أن يدرس جيداً، قال القبرصي.

- عليه أن يحفظ كل الطرقات وأسماء الشوارع. أو يمكنه ببساطة أن يشتري أسئلة الامتحانات من المطعم الصيني في زاوية الشارع، ويستذكر الإجابات.

- هل يمكنك أن تدوّن لي اسم المطعم على ورقة؟ سألني.

- لا أذكر اسمه بالضبط. أعتقد أن له علاقة باللوتس، أو ربما كونفوشيوس. لقد نجحتُ في اختباري من دون غشّ ولا خداع. ونظرتُ خلفه، لعلّي أجد لوسيان مجدداً.

- لوسيان يعود بعد قليل. ها هو عصيرك الآن... هل تعرف أنَ أخي كان نابغةً في صغره. أحياناً، يعتقد نفسه منجّماً، وأحياناً بهلواناً. وأنا أعتقد أن هذه المدينة هي وراء جنون كل من يعيش فيها. هل أنت من هنا؟

- لا. أقصد، أعيش هنا منذ مدة طويلة.

- إذاً لقد عايشت الكرنفالات مرات عديدة.

- نعم.. كثيراً.

قد تكون المنطقة ملائمة للأعمال، لكنها مسيئة إلى عقل أخي. عندما يبدأون بالتحضير للكرنفال، يعود هو إلى هذيانه. وباقي أيام السنة، بالكاد يتكلم. أي قصة أخبرك هذه المرة؟ هل كانت قصة هروبه من المستشفى أم عراكه مع الوحش؟ فهذه القصة هي المفضّلة لديه.

- قصة المستشفى، قلتُ. علَيّ الذهاب.

- حسناً، شكراً على المساعدة، وهذه أجرتك.

- شكراً على العصير، قلتُ.

عندئذ أطلّ لوسيان، تائهاً وقلقاً. راح يدور ذهاباً وإياباً حول طاولة البلياردو. فخلع القبرصي سترته، وناولها لأخيه.

- خذ يا لوسيان، أرِ سائق التاكسي حِيَل هروبك.

أخذ لوسيان سترة أخيه ولف نفسه داخلها. ثم لف ذراعيه حول نفسه، وحرّك جذعه الأعلى يميناً ويساراً، ذهاباً وإياباً، جيئة وذهاباً، تماماً كما لو كان يحاول تحرير نفسه من السترة الضيقة.

حزنتُ عليه ورحلتُ.

الفصل الثاني

عائشة

بعد وفاة السيدة الملتحية، تركتُ شقتها ومشيتُ وحدي هائماً في هذه الأرض الجديدة. بدا لي وكأنه لم يعد يربطني بأقفاص هذا العالم شيء. حتى المتشردون يتوقفون يوماً عن التجوال. سرتُ باتجاه خيم الكرنفال، ومررتُ بين أروقته وألعابه. حملتُ بندقيةً، وأطلقتُ النار على بطّ خشبي عائم. ملأتُ فم المهرج بمياه المسدس إلى أن طغت البالونات، وانفجرت محدثةً أصوات خسارةٍ وضحك. مشيتُ، وفي جيبي كتاب، وعلى رأسي قبعة. فزتُ في كل لعبةٍ لعبتُها، وسرتُ مع بعض الحيوانات المحشوّة المتدلّية حول كتفَيّ مواسية. أمسكتُ بمسدسٍ آخر، ولكن قبل أن أصوّبه إلى عينَيْ ثور، سألني الرجل من داخل الكشك إن كنتُ أبحث عن عمل.

- ربما، قلتُ له.

- أرى أنك تعرف الألعاب.

- نعم، أعرفها.

- هل كبرت في أرجاء الخيم؟

أومأتُ إليه برأسي.

- إذاً يمكنك مساعدتي هذا الموسم.

فوافقتُ.

- لا حاجة إلى أن تسرق شيئاً. سأدفع لك بإنصاف.

أومأ كلّ منّا إلى الآخر لأننا كنا نعي تماماً الغش المعتمد في هذا النوع من الألعاب. فكل من يعمل داخل هذه الأقفاص يسرق أولاً ثم يخوض معركةً أو يهرب.

هكذا تعرّفتُ إلى أوتو. كان يعمل في الأقفاص وهو الذي وظّفني فيها.

في الليل، كنا نتشارك خيمة. وعندما يحل الظلام، كان يرتدي ملابسه، ويركب شاحنةً صغيرة، وينطلق باتجاه المدينة. لم يدعني يوماً للانضمام إليه، ولم أسأله يوماً إلى أين كان يذهب. كنتُ أنا من يفتتح الركن في الصباح، وأتركه ينام حتى الظهر.

ذات مرة، في الصباح الباكر، خرجتُ من الخيمة ومشيتُ نحو الموقد لأحضّر القهوة عليه، وأنقذ منه قطعة خبز. رأيتُ امرأةً تجلس بالقرب من النار، على كتفيها بطانية، وفي شعرها خرز مشكوك.

أومأتُ إليها، فأومأت إلي. ثم نظر كلانا بصمت إلى الجمر المتوهّج تحت الرماد.

- لا بد أنك فلاي(*).

- نعم، أجبتُها.

- أنا عائشة صديقة أوتو.

- اسم جميل.

- قال لي أوتو إنك قارئ، وابتسمت.

- وهل انتبه أوتو لذلك؟

- أوتو معجب بك. لديكما أشياء مشتركة أكثر مما تعتقدان. هل تعرف إلى أين يذهب كل ليلة؟

- لم أسأله يوماً.

- يأتي إلى شقتي. يجلس ويعمل حتى ساعات الفجر الأولى.

- أي نوع من الأعمال؟

- أعمال نضالية. اكتفت بقول ذلك ولم تضف شيئاً آخر.

حضّرتُ القهوة وقدّمتُ إليها فنجاناً. وقبل أن أتركها قالت لي: انتبه لنفسك، يا فلاي. أنا متأكدة من أننا سنلتقي مجدداً.

حل الشتاء وحلَلْنا معه الخيم، فسبتت الحيوانات المحشوَة، وانقطعت البنادق عن الفرقعة، وأقفل المهرجون المائيون أفواههم.

(*) فلاي باللغة الإنجليزية تحمل معنيين: الذبابة وفعل الطيران.

سألني أوتو حين كنت أرتّبُ آخر قميص لي في الحقيبة: هل لديك مكان تُقيم فيه؟

- سأذهب الآن وأقرر لاحقاً.

- طلبت مني عائشة أن أقول لك: يمكننا استضافتك لبعض الوقت.

عندما وصلنا إلى الحي الذي تقيم فيه عائشة، أومأ أوتو بإصبعه إلى الشقة. فحملنا الحقائب وصعدنا الدرج.

قبّلتني عائشة وقالت: إنها شقة صغيرة، لكنّنا سنتدبّر الأمر. ارتاحا الآن أيها الشابان، وسنلتقي لاحقاً. أوتو، هل تساعدنا الليلة؟

أومأ إليها برأسه.

- فلاي، أهلاً بك إذا أردت الانضمام للمساعدة، قالت عائشة. ستُسرّ فتيات المركز بلقائك. ثم غمزتني، وضحكت قبل أن ترحل.

لف أوتو سيجارة ماريجوانا، ومدّها لي.

- هل سبق أن دخّنت؟

- أجل.

- هل بدأت في سن مبكرة؟

- أجل ثم سحبت نفَسَ دخانٍ عميقاً، وحبسته في صدري.

شغّل أوتو موسيقا الجاز، ثم فتح الصوان وأخرج منه قنينة فودكا وقال:

- تفضّل يا رفيق، هذه الكأس لك. فالجاز والفودكا هما غذاء المقاومة.

في المساء، نزلنا إلى الشارع ومشينا حتى وصلنا إلى مدرسة. قال لي أوتو إن عائشة كانت مصلحة اجتماعية وإنها تتطوع بتقديم الطعام للجياع ليلتين في الأسبوع. في طابق المدرسة الأرضي، رأيتُها تضع مئزراً وتقدّم الطعام لطابور من الكبار والصغار. كان الصغار يصرخون عالياً وصدى صراخهم يتردّد بين الأسقف المنخفضة والأرض الواسعة. كان بعضهم يركض في حلقات، وبعضهم الآخر يتصارع على الألعاب، والباقون يجلسون حول طاولات صغيرة، يلتهمون طعامهم بشراهةٍ وصمت. كان أوتو يعرف كثيراً منهم، فقدّمني إلى الحاضرين يميناً ويساراً. ثم أمسك بمئزرين، وعلّق واحداً حول عنقي، وربط آخر حول خصره، ووقفنا وراء الطاولات نقدّم الطعام.

كانت عائشة تبتسم لي طول الوقت، ثم مرّت من خلفي ولمست ظهري، وقالت بصوتٍ عالٍ إن المتطوعين هنا يتناولون الطعام أخيراً. وبصوتٍ خافتٍ أضافت: هذا كل ما يمكنك تناوله. ضحكت الفتيات من خلفنا وردّدن وراءها: هذا كل ما يمكنك تناوله.

مكثتُ عند أوتو وعائشة شهوراً عدة. لم يتذمّرا مني يوماً ولم

يطلبا مني الرحيل. كان أوتو يعمل على قضاياه، وكنتُ أسمعه يطبع طوال الليل. كان يتناوب الكنبة وسرير عائشة، وكنتُ أنام في غرفةٍ صغيرةٍ خلف المطبخ. أما أنا وعائشة فكنا نتبادل أسماء الكتب. هي أيضاً كانت قارئة، مثلنا. في عيد مولدي، اشترت لي قالب حلوى وكتاب *The Ways Of White Folks* (عادات الأنسباء البيض) الذي يروي قصصاً قصيرة للانغستون هيوز. أطفأت بضع شموع، ورفعَت صوت الموسيقا ثم دعتني إلى الرقص.

رقصنا أنا وعائشة متلاصقين. أمسكتني من الخلف وحفّت فخذَيْها على ردفَيّ، ثم انتقل الدور إلَيّ فقمتُ بالمثل. جلس أوتو حول الطاولة، يشرب الفودكا ويراقب خطواتنا، وابتسامة باهتة تلوح على وجهه.

نادت عائشة على أوتو: هيّا يا حبي، تنازلْ وارقصْ معنا، أرِنا مهارتك في الرقص.

وقف أوتو ورقص لتضحك عائشة من جديد.

ذات مرة، كان أوتو خارج البيت، وكنتُ ممدّداً على سريري. فككتُ سحّاب بنطلوني لأبلغ قمة النشوة وأنا أهذي وأضرب بيدي. فجأةً، فُتح الباب ودخلت عائشة. رأتني وقالت: ليس عليك أن تبقى وحدك، افسح لي مكاناً. خلعَت قميصها ثم مدَّت يدها إلى صدري وقبّلتني في رقبتي.

بعد أن انتهينا، شعرتُ بخوفٍ وخجل، أما الحزن فجعلني أرغب في البكاء.

قلتُ لعائشة: سيصل أوتو في أي لحظة.

فأجابت: أوتو لن يمانع. أقفل الباب وعُدْ إلى السرير، فكل شيء سيكون على ما يرام.

ماري

كل يوم، أختار من المجموعة الكبيرة التي تملأ شقتي كتاباً أو كتابين، لأقرأهما في السيارة. ربما غفلتُ عن إخباركم بأن شقتي مردومة بالكتب. فيها أبراج تشهق بكل اتجاه. عندما تدخلها امرأة، تستقبلها أنفاق من الكتب، وتقفز عند كل زاوية مجموعة من الأبطال مرحّبة بها، أما أنا فأقودها مباشرةً إلى الداخل وسط تصفيق الكتّاب والفئران.

كنتُ أجلس على الكتب، وأنام عليها، وأتنشقها، وأرتّبها حسب أسلوبها، وحسب لون سمائها ومدار رؤوس مؤلفيها. فعلى سبيل المثال، أضع مؤلفات جيمس جويس في المدخل لحجم جمجمته. أما روسو فيأتي في المؤخرة، قرب النافذة، لسببين اثنين. أولهما، حجم رأسه الممشوق. وهذا بالطبع وفقاً للمقاييس التجريبية التي اختبرتُها بنفسي (مستنداً إلى معايير الفلسفة البريطانية). ثانيهما، حاجته الملحة إلى عتق نفسه والاقتراب أكثر من الطبيعة. فلا شيء

يضاهي علاج حالات التهاب المثانة، وعقدة الاضطهاد، والتفكير الديكارتي، مثل الهواء النقي.

باختصار، لديّ طريقة في التوثيق أتحدّى بها باقي المناهج الموضوعة والمصوّرة. مكتبة تلمّ العالم، كما سيقول أي أرجنتيني. لغز حقيقي أحتفظ به لنفسي، وأتشاركه مع أمثال ماري، عاشقة الكتب.

التقيتُ ماري، ذات ليلة، وسط أغرب الظروف التي قد تواجهك في حياتك، وأكثرها إحراجاً. ماري، ماري الحلوة، البريئة، ماري خاصتي... ركبَت معي هي وزوجها لأقلهما في سيارتي.

كنتُ أعمل في أرجاء المدينة الجامعية، حيث فتيات الجامعة يمضغن اللبان وهن يستوقفن التاكسي للذهاب إلى المراقص الليلية. كل ليلة خميس، كنّ يظهرن بتنانيرهن القصيرة، ويحشرن أنفسهن على المقعد الخلفي. يتكلمن في الوقت نفسه، ويتقاسمن علبة اللبان نفسها. يحجبن عني الرؤية في المرآة الخلفية لقوة انعكاس أحمر شفاههن الفاقع، وارتفاع مدار تسريحاتهن اللامتناهي. وعند الإشارة الحمراء، يتوقّفن فجأة عن الثرثرة ليتخذن وضعيات مثيرة تنعكس على واجهات المتاجر الممتدة على جانبي الطريق.

غالباً ما تجلس رئيسة الجوقة على المقعد الأمامي قرب السائق، لتناديني «مستر تاكسي»، وتستفسر عن حياتي الضائعة، وتضحك

على الدمى البهلوانية التي تحتل لوحة العدّادات. فهي ترى أن تلك الدمى تشبه دمى لجنود ثملين بقبعات ملونة. أما فقاعات لبانهن المغيظة، وقهقهات الكورس على المقعد الخلفي، فقد جلبت لي العار عندما مررت - لسوءِ طالعي - في أكثر الشوارع ازدحاماً في المدينة، وأنا أردّد: ستعلق في شارع ليناليا، يا سوفوكليس! ستعلق مع تلك القِردة الصغيرة التي تنفخ البالونات بأفواهها لتعطيها شكل سحابٍ فطري نووي رؤيوي.

كل ذلك جعلني أتمنى الطيران وأنا محاصر من كل جهة. أتمنى أن تحملني فقاعة تيتانيك، وترتفع بسيارتي إلى الأعلى لتطير بنا فوق هذا الشارع المزدحم بالموسيقا الصاخبة، بعيداً عن موكب المراهقين الذين يقودون بأذرعٍ متدلية من نوافذ سياراتهم، وكأنهم حيوانات في أقفاص، ويطوّفون عيونهم المهدّدة بحثاً عن الأفخاذ الطويلة الممشوقة فوق الكعوب الرفيعة.

أما ماري ذات الساقين الجميلتين، فكانت تضع على عينيها نظارة سميكة. وكانت تبكي عندما دفع رجلها بنفسه لدخول سيارتي والجلوس إلى جانبها. أول شيء قلتُه لها: «هل كل شيء على ما يرام، سيدتي؟» فنظر رجلها إلَيّ في المرآة وقال: «نعم، كل شيء على ما يرام. تابع القيادة، أيها السائق».

- إلى أين؟

- أسلك الطريق ١٨ ، وبعد ذلك سأدلك إلى الاتجاه.

عندما تبكي امرأة في مركبي، أعود طفلاً حزيناً، ثم أتحول إلى عاشق للبحار البعيدة العالية، وإلى مغامر جريء. ففي هذه البحار، تعج الطبقات السفلى لمراكب التجار بالمستعبدات، بالنساء الأسيرات. وأسمع السوط من الخلف ينهال على ماري ضرباً.

- كل ما تهتمين به هو كتبك التافهة، قال الرجل. أنا بحاجة إلى الخروج، إلى رؤية العالم. كتب.. كتب.. تباً للكتب. تقضين معظم وقتك في القراءة، وليس لديك شيء تقولينه لأصدقائي، ولا شيء تقولينه لي. تجلسين هناك بمظهرك السلبي المتكبّر. لقد تعبتُ من كل هذا، هل تفهمين؟

نظرتُ في المرآة فرأيتُ ماري تبكي. وعندما بدأ الرجل يصرخ في وجهها، ويومئ بيديه المشؤومتين، أوقفتُ السيارة على حافة الطريق. كنا قد بلغنا مخرج المدينة، وعلى وشك الدخول إلى ضواحيها، بمنازلها الأرضية وحدائقها الصغيرة. أخرجتُ من تحت مقعدي، عصا الريش الغليظة، وفتحتُ بابي ثم فتحتُ بابه، وأمسكتُ بذلك الكاره للكتب من كمّه، ثم من قبّته، وأنزلتُه عنوةً من سيارتي، ودفعتُ به إلى الرصيف. رفعتُ عصاي في الهواء الطلق فارتبكت في يدي وفي مهب الريح، مثل تحذيرات عصفورٍ مرتعش مهدِّدٍ بعدم المقاومة، وعدم دخول مركبي المنقِذ. ثم أغلقتُ الأبواب، وقدتُ بماري بعيداً. كانت تمطر تلك الليلة، ولم يتوقف المطر عن

الهطل أياماً طوالاً. نظرتُ في مرآتي الخلفية، فرأيتُ زوج ماري غارقاً بحيرته تحت المطر. ثم فكرتُ في أنه ما كان على كل الحيوانات أن تنجو من الطوفان. كان على بعضها أن يغرق دون شك.

لم يكن لماري، الحلوة ماري، مكان تذهب إليه. فاقترحتُ عليها أن نذهب إلى شقتي.

- لكنني لا أعرفك.

- ماري، ماري الحلوة، اسمك على اسم أمي، الفنانة البهلوانية. سأقدّم لك سريري وكتبي. الجيران كلهم نائمون في هذه الساعة. ستنامين فوق صفحات التاريخ. لا تخافي. سأوصلك ثم أرحل من جديد. سأتركك مع كثير من الأبطال، وسأمزّق الصفحات التي تذكر أسماءً شريرة. سأتركك مع ذلك الإسباني العجوز على حصانه الهزيل ليحميك من طواحين الهواء المهدّدة، ومن الفرسان الأشرار.

سأرسل سانشو ليجلب لك بعض الطعام الصيني والصلصة الحارة من المطعم عند الزاوية. ولكن يا ماري، يا حلوتي ماري، أرجوك أن تنتبهي إلى رأسك وأنت تدخلين الشقة. فرفوف الكتب منخفضة، وبيوت العناكب قد تتقطّع بسهولة.

عندما دخلت ماري شقتي، بالكاد اجتازت الرف الأول. ابتسمت، نظرت، وقلّبت صفحات الكتب التي تنبع من سقف شقة الطالبة المتذمرة تحتي، والتي تتضاعف وتنحرف إلى الجهتين

لتتمايل مع هبوب الرياح الشرقية من قسم الكتب العربية والفارسية (أضعها على الرف نفسه للأسباب التاريخية المعروفة). الكتب تنهمر من الأعلى مثل الغيث، كتب مفتوحة ومغلقة مثل أجنحة الفراشات. «كل هذه كتب» قالت ماري. «انظر إلى كل هذه الكتب!» ثم ضحكت ومشت وسط حديقة الكتب.

نزعنا عنا أوراق التين، ومارسنا الحب في الزاوية، حيث ارتقى جسدانا العاريان إلى ما قبل الجنة، وانحلّت مؤخرتانا من كثرة القفز والوثب كأحصنةٍ غازية في أرض مقدّسة. طرنا خارج المدينة، وحططنا على صفحة موسى وهو يشق البحر. وكان اليهود يتقدّمون بين تلك الجبال المائية المعلقة في الهواء، تلك المرفرِفة والمهمهِمة من الجهتين، وسط تساؤلات التجار المساكين المطرودين من أرضهم: هل كان موسى يعرف حقاً ما يفعل؟ فماذا لو تعبت يده وأسقط، عن غير قصد، عصاه السحرية؟ أو التهى بفتاة بدوية مهتاجة؟ أو أضاع صندله؟ وماذا لو غيّر اللّه رأيه، فأغلق البحر الأحمر عليهم وأغرقهم في ذلك السائل الدوري الأحمر؟ لا أحسب أن أيّاً منهم سيبقى حيّاً. وقد سُمع أحد الإخوان الأغيار في نيويورك يقول، وهو يمسك بتفاحةٍ كبيرةٍ في يده، على الرغم من أنه كان مؤيداً لتلك الجولة: «آمل ألا يعبث معنا ابن الساقطة هذا، ذلك العائم في سلّة النهر، عشيق أخوات الفراعنة، وجزار بعل، الإله الثور». ولما انشق البحر، صاح رجل: «ماذا يحدث؟ تباً، لن أعبر. انظر إلى القعر كم هو

موحل، ومكتظ بالسلاطعين والهلاميات والقذارة... ستعلق صنادلنا في الطحالب... ابن الساقطة المعتوه هذا يدفعنا إلى مستنقع عكرٍ ليطالب ببضع زيتونات وقطيع من الماعز. تباً له، سأعود أدراجي لأقدّم أوراقي وأطالب بالجنسية المصرية، سأصبح مهاجراً عالمياً راسياً. سأبيع ورق البردي على الأرصفة، وأقود عربة للإيجار، أو أعمل حتى في الأهرام».

حين كنتُ على وشك العودة إلى سيارتي المركونة تحت المبنى، طلبتَ ماري مني البقاء.

بكَت طوال الليل، فقرأتُ لها الشعر من مجموعة انتشلتُها من تحت الفراش. تسلّقتُ الجدار، وخاطرتُ بانهيار كل شيء فوق رأسينا، إلى أن وصلتُ أخيراً إلى المقاطع المضحكة في الكتب. قرأتُ لها من كتاب *Too Loud a Solitude* (عزلة صاخبة جداً) لهرابل، فضحكَت على شخصية العم، عامل القطار الثمل الذي يدور في قطاره، ويدور حول حديقته. لكنها حزنَت حين وصلنا إلى المقطع الذي يفرم الكتب ويتلفها، مثل هرابل الذي فشل في منع كل تلك الشخصيات من الدوس على آلة الفرم. احتسينا البيرة ردحاً من الليل، ثم تبادلنا القبل. قرأنا، وبكينا إلى أن فرغت علبة المناديل الورقية الموضوعة قرب سريري. نزلتُ إلى السيارة لأحضر العلبة الموضوعة على لوحة العدّادات. تنبّهتُ للعدّاد الذي ما زال شغالاً، فأوقفتُه وقلتُ في نفسي: يوماً ما سأجعل زوجها يدفع الثمن.

ليندا

رحلَت ماري بعد ظهر اليوم التالي، فركبتُ سيارتي لأجول في وسط المدينة. علقتُ في ازدحام سير، تسبّبَت به رافعة توقّفَت في عرض الطريق لترفع رجلاً كي يعلّق لافتةً كبيرةً تقول «أهلاً بكم في أروع كرنفال في العالم». «حان الوقت»، قال سائق سيارة التاكسي العالقة بمحاذاة سيارتي. ثم سألني إنْ كان بوسعه المرور أولاً لأنه تأخر على مكالمة منزلية. سمحتُ له بالمرور، ولكن سرعان ما رأيتُه يتوقف عند أول زبون ينتظر في الشارع.

في هذا الوقت من السنة يتحوّل كل واحد في هذه المدينة إلى طمّاع قذر. وتصبح السوق كلها، حيث يقام الكرنفال، معقلاً للبائعين الموسميين ونشّالي النقود المعدنية من داخل جيوب الصغار، ومورّدي البراميل المُسْكِرة. هناك يطوف السارقون، والمشاغبون، والدجّالون، وبائعو النقانق والسجق، والدمى المتحركة! حذارِ أن ننسى الدمى المتحركة...

عند الثامنة مساءً، ركب معي شخصان من خارج المدينة، هما أفضل نموذجين عن شاربي البيرة ومشجّعي الفرق الرياضية. قَدِما من بلدهما ليشّجعا فريقهما المفضّل وهو يلعب على أرض غيره. تلك الرؤوس الفارغة التي تلتهم أجنحة الدجاج، كلها متشابهة. عندما يفوز فريقها، تتحوّل إلى حثالة تحتفل في الشوارع، وتصرخ بكل فرح: «لقد ربحنا!» وعندما يخسر فريقها، تشعر بحاجة إلى

ضرب أي إنسان، أو أي شيء يظهر أمامها. لذلك تراها تصرخ: «أين المومسات؟ خذونا إلى المومسات!».

قلتُ لهما إنه يمكنني أن أقلّهما إلى الزاوية، لأن منطقة الضوء الأحمر هنا كلها محجوزة.

قدتُ بهما إلى المبنى حيث تقف صديقتي ليندا، كانت تقف كالعادة في مكانها. فتحتُ نافذتي وناديتُها، أرجوك «ميس بلاجور»، من هنا. تعرّفَت إلَيّ فوراً، وغمزتني، ثم مالت برأسها لتردّد جملتها الافتتاحية، مع بضع كلمات: أيها الشبان... تبحثون عن مرح؟...

بدت ليندا جذّابة بطريقتها الغامضة الشهوانية. كانت تميل إلى السمنة. فخذاها ممشوقتان ومشدودتان تحت تنورة مزيّنة بنقشة جلد الفهد، اتسعت لكل مفاتنها. كعباها الشائكان عزّزا طول ساقيها وعرض كتفيها. بدت بصدرها الواسع، وشعرها المموّج الأسود، وعينيها الإسبانيتين المدوّرتين مثل حبّتَي زيتون أسود، وكأنها انفجرت من مكان التقاء الغجر بالعرب، من تناكحٍ ورقصات أجسادٍ متلاصقة استمرت على مدى قرون طويلة.

فتحَت باب الركاب، وجلسَت على المقعد الأمامي بجانبي. راحت تتحدّث مع الشابين في الخلف، فسألها أحدهما إن كان لديها صديقة جميلة تنضم إليهم. «لنذهب إلى الزاوية، يا قلبي»، قالت ليندا وهي تبتسم. فقدتُ إلى هناك، وتوقفتُ عند الزاوية. نادت

صديقتها، فأطلّت علينا امرأة ومالت برأسها عبر النافذة الخلفية. بدت لنا مرهقةً قليلاً، تنقصها بعض الأسنان. ربما فقدَتها جراء انهيال قوّادها عليها بالضرب المتكرّر، أو نتيجة لتعاطيها الهيرويين.

- بشعة، قال الشابان. لنبحثْ عن أخرى.

رحنا نجول حول المباني، ونمسح الشوارع مسحاً تاماً. توقفتُ أمام مجموعة من الفتيات فلم تعجب الشابين أيّ منهنّ. «الليلة عامرة»، قالت ليندا، «فبين الألعاب، وطواقم الكرنفال، معظم جميلاتنا محجوزات هذه الليلة».

بدأ الشابان يشعران بالإحباط والجوع. فاقترح صاحب قبعة البايسبول على صديقه أن يدخل كل واحد بدوره مع ليندا.

- تنتظر أنت في الخارج إلى أن أنتهي.

- لا، قال الآخر، أنا أدخل أولاً. لن أدخلها بعدك.

تابعتُ القيادة في محاولة أخيرة لصيد موفّق، إلا أنهما شعرا بالتعب، فقرّرا تناول العشاء، والذهاب إلى النوم.

عندما طالبتهما ليندا بالمال، رفض كل من الشابين الجالسين على المقعد الخلفي الدفع. فتبادل الفريقان بعض الشتائم واللعنات. قالت لهما ليندا إنها تعمل مثل أي طبيب مناوب يتقاضى أجره بالساعة، وإن ما قاما به في تلك الساعة ليس من شأنها. أوقفتُ السيارة، وطلبتُ من الشابين أن يدفعا لها شيئاً مقابل وقتها الضائع.

طلب مني صاحب قبعة البايسبول الصمت، وصرخ في وجه ليندا كي تترك السيارة وتعبث بنفسها.

- ادفعا لي الآن وإلا سأعبث بكما ألف مرة، أيها الشاذان اللعينان، صرخَت عليهما ليندا.

- لن ندفع. فأنا لم أشعر بشيء في قضيبي، هل شعرتَ بشيء يا جو؟ سأل صاحب القبعة صديقه المنفوخ بالستيرويد.

- اذهبا وتناكحا، هذا واضح عليكما أيها الشاذان اللعينان، قالت ليندا.

حين حاول أحد الشابين الإمساك بها، أخرجَت من حقيبتها بخاخاً ورشّت الفلفل في وجهيهما، فأغمضتُ عينَيّ. وحاول أحد الشابين تسديد لكمة إلى ليندا، فأخطأها وأصابني على جانب رأسي.

اختفَت ليندا. وراح الشابان ينتحبان ويلعنان: عاهرة، ابنة ساقطة.. عيناي تحرقانني.. لا أقدر على التنفس.

قفزتُ من سيارتي، وفتحتُ الباب الخلفي. حاولتُ أن أهدئهما، ونصحتُهما ألاّ يلمسا عيونهما. كانا يفركانها ويجعلان الوضع أسوأ مما هو عليه. قلتُ في نفسي: هذا الشابان ليسا من النوع المتمرّد. من الواضح أنهما لم يقفا يوماً على متاريس المحتجّين والثوار، ولم يلوّحا يوماً بالأعلام وسط الغازات المسيّلة للدموع، ولم يحملا الحجارة والعصيّ ليهدما الأسوار التي تحمي

رجال البذلات، وحفّاري الأرض بحثاً عن الذهب، وسارقي النفط في مجالس الإدارات، والسياسيين التابعين وراء جدران القلاع. فأول قاعدة في المقاومة هي إبقاء العينين مفتوحتين، وحماية الأنف من رائحة الخسارة، عندما تفوح رائحة السلطة لتفرّق بينك وبين إخوانك في السلاح. حملتُ في مركبي هذه الليلة مشجّعين مهزومين منتحبين، فما بال تلك الجماهير داخل السيرك والحلبات الرومانية؟ ما بال بوّالي البيرة، وأصحاب العضلات المنفوخة بالستيرويد، وأولئك القراصنة السكندينافيين السفّاحين على شواطئ الجزر البريطانية؟

وهما يبكيان وينوحان، تنشقتُ رائحةً قادتني مباشرةً إلى محطة الوقود. أدخلتُهما سوياً إلى الحمام، وجهدتُ في فتح أجفانهما وصب المياه مباشرةً داخل عيونهما. أعتقد أنهما تلفَّظا بكلمة ساقطة آلاف وآلاف المرات. وحين كنت أمدّ يد المساعدة استفسرتُ عن المعنى الفعلي لكلمة «ساقطة». هل يقصدان بها الساقطة المهتاجة، أو التي تمارس الجنس خارج الإطار الشرعي؟ أم أنها المرأة الجازِمة، القوية، المتلاعبة، التي تحصل دائماً على ما تريد؟ تلك المنافِسة، المتواطئة، المرحة، الجميلة، أو تلك التي تتلاعب برأسك، وتصيبك بالعمى، وتضعك في أقصى حالات البؤس المنتشر في العالم؟

«يا لهاتين الأضحوكتين اللعينتين ولتلك الرحلة المتعبة»، قلتُ في نفسي، وأنا أعيدهما إلى الفندق.

عندما وصلنا أوقفتُ السيارة، وأوقفتُ العدّاد. الآن وقد أصبحا قادرين مُجدّداً على فتح عيونهما. أومأتُ بإصبعي إلى العدّاد، فأُصيبا بذهولٍ تام عند رؤية المبلغ الذي يدينان لي به.

- لعنة جهنم عليك، قال صاحب قبعة البايسبول، لن ندفع لك كل هذا. لعنة جهنم عليك، لقد دللتنا على أسوأ الساقطات، يا قوّاد. كان بوسعك أن تأخذنا إلى مكان أرقى. لعنة جهنم عليك، كان عليك أن توقف العدّاد، ففي حالة الطوارئ لا يجدر بك أن تطلب أجرة من الناس. إنه القانون.

- أجل، قال الآخر. عدا عن أنك كنتَ إلى جانب تلك العاهرة كما أذكر.

- أنا أحصل دائماً على نقودي، قلتُ لهما. وأنا دائماً إلى جانب العاهرات، أيها الساقطان.

- ربما لأنك واحد منهم، لوطي لعين. تباً لك، أنت تحاول أن تنهبنا. تلاعبتَ بالعدّاد حين أُصبنا بالعمى. تباً، بحق الجحيم. قال صاحب العضلات المنفوخة.

عندئذٍ أقلعتُ بسرعة، وقدتُ باتجاه الممر الخلفي للفندق. أخرجتُ من تحت مقعدي عصا الريش، ولكني تركتُها في الأسفل لأوهمهما بأني أمسك بشيء في يدي. فالتهديدات الخفية أكثر فاعلية.

- سأحصل على مالي، أو أعميكما مجدداً. لستُ كالعواهر، لكنني أحصل دائماً على مالي.

- تباً لك، قال أحدهما، وهو يخرج النقود ويرميها في وجهي. تباً لك، وتباً لفريقك، وتباً لبلدتك، يا حقير!

- ثم فتحا البابين وخرجا من السيارة، وقام أحدهما بركل مصباحي الأمامي. وبحركة خادعة، جعلتُ العصا تختفي تحت كم معطفي، ثم لففتُ ريش النعام في الهواء. مشيتُ بمحاذاة رفراف السيارة، مختالاً مثل طاووس قوي. أخذتُ محفظتيهما، ثم مسحتُ دمهما عن يدَيّ، وعدتُ أدراجي باحثاً عن ليندا.

وجدتُها عند الزاوية في مكانها. لكن فريداو قوّادها، كان يقف قبالتها على حافة الشارع. دخلَت ليندا سيارتي وقالت: «فلاي، قُدْ باتجاه فريداو، ودعه يبصرْكَ. سيعرف أنك لستَ زبوناً ليطالبني بالمال فيما بعد».

قدتُ باتجاهه، ثم استدرتُ خلف المبنى وأعطيتُ ليندا حصتها من النقود التي أخذتُها من الشابين.

قبّلتني وقالت: لا تقل شيئاً لفريداو. سبق أن قلتُ له إنني لم أستطع أن أحصل منهما على المال. إذا سألك عن الموضوع، قُل ما قلتُه. تامر يكبر، ونحن بحاجة إلى مزيدٍ من النقود.

ثم سألتني عن أوتو، ولماذا توقفنا عن زيارته، فهي وأوتو أصبحا صديقين مقرّبين على مر السنين. فقلتُ لها إنني لم أرَه منذ فترة.

اتفقنا، في حال لحقت بنا الشرطة، على رواية واحدة تحكي كيف أن هذين السائحين حاولا ضربها وسرقة مالي، ولهذا السبب اضطررتُ إلى إيقافهما بعصا الريش.

لكنني لم أسمع مجدداً عن هذين المخبولين. لم يُذكر شيء في الأخبار عن سائحين تعرّضا للسرقة، أو الضرب، أو العقاب. فمخبولان كهذين يكونان عادةً جد مغرورين ليتقبّلا الهزيمة. كل ما يمكنهما القيام به في هذه الحالة هو الشرب حتى الثمالة، والعضّ على جرحيهما، والذهاب في اليوم التالي إلى صالة اللياقة البدنية لرفع الأوزان، وتفقّد حجم عضلاتهما في المرايا. علَيّ الاعتراف بأنني شعرتُ بنشوةٍ لمّا ضربتُ رجلين بعضلات منفوخة مثل هذين. يسهل على أي كان أن يلاحظ وجودهما في الشارع، وذلك لآثار الستيرويد البارزة في عيونهما. هما دائماً مصابان بعقدة الاضطهاد، فلا يشعران بكيانهما إلا عند الاستعراض أمام المرايا في مدينة الزجاج تلك. لا يمران بمرآة إلا ويرحبان بها بلوي عضلات ذراعيهما أو بهبوط بطيء لساقيهما. هما كبالونين منفوخين قُطع حبلاهما، يمشيان دائماً وكأنهما يخطوان أول خطوةٍ على سطح القمر.

تامر

تعرّفتُ إلى ليندا عبر أوتو وعائشة.

في الماضي، عندما كانت ليندا في مركز إعادة التأهيل، أحضرَت عائشة تامر، ابن ليندا، إلى المنزل ونظرَت إلى أوتو وقالت له: سيبقى الصغير معنا لبعض الوقت. فنظر تامر بشعره المجعّد وعينيه البنيتين الكبيرتين إلى أوتو، وكان يمسك دباً بالياً في يده، وقال له: أريد طعاماً. رافقه أوتو إلى المطبخ وحضّر له شطيرةً. التهمها الصغير واطمأنّ باله.

بقيَت الحال على هذا النحو بضعة أشهر. عندما كانت عائشة تذهب إلى عملها، كان أوتو، العاطل عن العمل في ذلك الوقت، يبقى في المنزل ويكتب رسائل للصحف المحلية، ومنشوراتٍ للمنظمات المناضلة. وعندما كان الصغير يعود من المدرسة، كان أوتو يطعمه، ويساعده على إنهاء فروضه المدرسية، ويعلّمه كيف يغسل يديه جيداً إلى أن ينتهي من أداء أغنية «سنة حلوة يا جميل» مرتين، وكيف ينظف أسنانه قبل النوم. وقبل أن يضعه في السرير، كان أوتو يقرأ له مقاطع من كتاب *The Civil War in France* (الحرب الأهلية في فرنسا) لماركس، محوّلاً بعض شخصيات الكتاب حيوانات أوروبية. فأعضاء البرلمان الفرنسي وكومونة باريس أصبحوا خنازير تُحتجز في كوخ مصنوعٍ من القش والقبعات، تدافع عن نفسها بأنيابها، وبقذائفَ مصنوعَة من ضرطاتٍ رائحتها خفيفة. وحوّل أوتو «موسيو

تيارز»، رجل الدولة الملكي المسؤول عن سحق الانتفاضة، ذئباً شريراً أراد أن يهدم الكوخ ليأكل الخنازير، بمساعدة جيشه الأجنبي المؤلّف من دببة بروسيّة، وبمباركة البابا زوافيز الطمّاع القذر الذي يمثله الأسد...

ذات يوم، اتصلَت عائشة بأوتو من العمل وقالت له: وضّب أغراض الصغير في حقيبة، لقد عادت أمه.

عندما أطلَّت ليندا من الباب برفقة عائشة، حاملةً في يدها كيساً يضم ملابسها، بدت نحيلة. وقف تامر يحدق إليها عن بعد، وبعينين باردتين راح يراقب أمه وهي تبكي.

- تعالَ إلَيّ، يا صغيري، قالت. تعالَ، سنذهب معاً إلى البيت. نظر الصغير إلى أوتو، ثم إلى أمه، وتسمّر في أرضه.

بكت ليندا وقالت: «هل تذكر ماما. تعالَ يا حبيبي، تعالَ». ثم اقتربَت منه، وركعت على ركبتيها وغمرَته بقوة. نظر من فوق كتفها عبر النافذة إلى الفضاء الواسع.

حملَت عائشة حقيبة الصغير وعيناها مبلّلتان بالدموع، وأعطَتها لأوتو. فتح أوتو الباب ولحق بالعائلة إلى المدخل قائلاً:

- ليندا، أرجو أن تتصلي بنا إذا احتاج تامر إلى أي شيء. إنه صبي مميز، وكان جزءاً من حياتنا... أحضريه في أي وقت، فبابنا سيبقى مفتوحاً له.

- ربما، قالت ليندا، وهي تتناول الحقيبة الصغيرة. قد أفعل ذلك. فأنتم أناس طيبون.

بوليرو

في تمام الثامنة من مساء يوم الإثنين كنتُ أمام بيت الرجل. كنتُ أشعر بالتعب، وكانت عيني لا تزال حمراء من أثر ضربة مشجعَي الرياضة. بعد انتظار دام عشر دقائق، هممتُ بالرحيل. وفي الثامنة وخمس عشرة دقيقة بالضبط، رأيتُ الرجل يختال باتجاهي.

- هل تعرف الطرق جيداً؟

- أنا الأفضل في المنطقة.

- هذا ما أريد سماعه. خذني إلى الدائرة المالية.

قبل كل توقف، كان يومئ إلى المنعطف، ولم يزودني قط بعنوان. طلب مني أن أنتظره واختفى لبضع دقائق، ثم عاد. رأيتُه بين حينٍ وآخر يسلم سريعاً باليد على موظف يرتدي بذلة أو على مجموعة مختلفة من الشخصيات الغامضة.

في بعض الأحيان، كنتُ أسلك طرقاً مختصرة، وأقود في ممرات فرعية بين المباني، مروراً بالأزقة، فتعجب لذلك. كنتُ أعرف تماماً ماذا يفعل. إنه يجمع الأموال ويتفقد التجار، وأنا أجول به في الأرجاء.

وفي لحظة سألني عن اسمي، فأجبتُه: نادِني فلاي.

أعجبتني يقظة هذا الرجل حين ضحك وقال: أنت رجل التناقضات، يا فلاي. صادق بعض الأحيان، وكاذب أحياناً أخرى. ابتسمتُ.

- لَمَ لمْ تحتفظ بالأكياس في المرة الماضية، يا رجل؟ كانت تحتوي عَلى بعض الملابس الجميلة والباهظة.

- ليس لي صديقة.

ضحك مجدداً، ومد لي ورقة نقدية كبيرة وهو يقول: أنت طيّار حقيقي. سأتصل بك عندما أحتاج إليك. أيناسبك ذلك؟

- نعم، بالطبع.

- حسناً. هيا طِرِ الآن.

شعرتُ بالجوع، فقررتُ أن أتوقف عند مقهى بوليرو. جلستُ هناك وأكلتُ. ثم انضممتُ إلى طاولة العناكب فسمعتُهم يتحدثون عن جولاتهم، وعن لقاءاتهم القصيرة بين ترجّحات أبواب السيارة. أحبُّ أن أستمع إليهم وهم يحلمون بمنازل يبنونها في أعالي الجبال وما وراء البحار. ينتقدون، يحرّفون، يشبكون، يدبّرون المكائد، يجمّلون، يثنون، يحيكون قصصهم في حلقات متتالية من الحقائق والخداع، ثم يؤشّرون، ويومئون، ويحرّكون، ويلوّحون، ويدلّون على شوارع، وعلى طرق طويلة أو قصيرة، وعلى زبائن جلسوا، وتكلموا، وصرخوا، وبكوا، وهربوا.

سمعتُ موسيقا تنبع من السقف أو من مكان ما فوق الطاولات.

كان الرقم ٥٣، أو العنكبوت الراقص كما أسميه، يقف في الصف ليطلب الطعام. رأيتُه يتمايل بخفةٍ على صوت السكاكين والشُوك المدندِنة. كل سنة، في ليالي الكرنفال، ينسحب العنكبوت الراقص حوالى الساعة الحادية عشرة مساءً ويذهب إلى نادي بالايو ليرقص البالا بالا، والباتشاتا، والرومبا، مع فِرق نساء، سيدات، يعشن في مناطق ريفية نائية، ويأتين من مختلف الأماكن البعيدة ليرقصن في الملهى الشهير. متزوجات وغير متزوجات، في منتصف أعمارهن، مكتنزات وشهوانيات، سئمن رؤية سام وبوب على الشاشة، وتعبن من كثرة ما حلمن بأبطال وهميين، يظهرون في مسلسلات تلفزيونية يومية. سيدات يقصدن هذا المكان ليرقصن، وليضطجعن مع أبطال حقيقيين، ويتحسّسن الأفخاذ وعضلات الأذرع. لأن لا شيء مطلقاً يعوّض الأحاسيس الهائجة، وروائح اللحم وإفرازاته، وذراعيْ عاملٍ قويّتين، وكعوبٍ متمايلة تدور على حلبات الرقص.

البالايو هو الظلمة، هو لغز نجمة الشمال المتلألئة، هو المكان الذي ينتصر فيه الحب على حدود المحيطات، وعلى اختلاف الثقافات التافه. هو فاتح العيون، والمؤخرات المتشنّجة والمعارِضة والمتزمّتة. تقول الأسطورة إن كل امرأة تدخله لا بد أن تُدعى إلى رقصة أو اثنتين على الأقل، ولا امرأة تركته يوماً وحدها. هنا تحظى كل السيدات بفرصة عرض كعوبهن فوق الطاولات المحاطة

برجالٍ سود، يختلسون النظر ويشدون بأفواههم وألسنتهم لالتقاط كل نقطة شراب تسقط من علِ. فالكلاب أصدقاء أوفياء للنساء، وتلك الكلاب المتشردة التي جالت شمالاً باتجاه ذيل الدب الأكبر على درب اللبانة، ليست سوى ثعالب أفريقية ظمآنة، أو عرب صحارى، أو غجرٍ راقصين، أو لاتينيين يوشّحون أحاديثهم، ويعوون سلفاً للمترف، والريّان، والسليم، والمغرور، والمتعالي، والبدين، والكريم. تلك الكلاب تنتظر بابتسامة محاربٍ جائع، وتتراقص بأوراكٍ مخشخشة. تنتظر بشفتَيْ متحدثٍ لبق مشتعلتين، وجيوبها خاوية.

يجتمعون كلهم في البالايو مثل حيتان القطب الشمالي البيضاء وسط نوبة جشع. يأتون بسحر الفقراء طمعاً بالرشاقة. يأتون لتحدي الثقوب المقفلة، والاحتفال بصراحة الأفواه ورحابة الآذان، ببطون متوهّجة من عظمة القضبان الذكرية الكبيرة. هؤلاء المهاجرون راقصون شبان، وسيمون، وسريعون في الليل، وعمال مسالخ، وعمال بناء، وغاسلو صحون، وسائقو تاكسي في النهار. هم صيادون كبروا في بلاد شطآنها إلهية، وشموسها ساطعة الأنوار، يعرفون الدروب حق المعرفة. وهم صغار كانوا يراقبون أبناء أعمامهم وإخوتهم الأكبر سناً يلاحقون نساء الشمال، ويردفونهم وراءهم على دراجاتهم النارية حالما تقف الباصات السياحية المكيّفة على سطح القمر الجنوبي. إنها خطوة صغيرة للنصف الشمالي، وخطوة كبيرة للكلاب الجائعة.

فالمرأة، كما سيقول لك هؤلاء الرجال، لا تحتاج إلا إلى قليل من الاهتمام، وابتسامة حنان، ورقصة العمر. داخل البالايو، يتنزّه أحدهم تحت أشجار جوز هند بلاستيكية، قربها مقاعد مغطاة بجلد نمر، وطاولات تُمَدّ بصوانٍ مغربية، وساقية طويلة القامة تعرف باسم جينابي، شعرها كثيف وصدرها مذهل، ورجال لطفاء يمسكون بيد امرأة ليقودوها مباشرةً إلى حلبة الرقص.

الـ٥٣ سيقول لك بيديه المتحركتين: الأمر تماماً كما لو كنت أنت الراكب والمرأة الجميلة هي سائقة التاكسي الليلي. فإذا كنتَ سائق تاكسي ليلياً ذكياً، عندما ترى زبوناً يلوّح لك بيده في ساعة متأخرة من الليل، لن توقف حتماً سيارتك عنده، بل على بعد أمتارٍ قليلة، وتتركه يأتي وحده إليك مشياً على أقدامه. فهذا سيمنحك الوقت لتتحقّق من مشيته، وملابسه، وأنفاسه. فلا أحد يرغب في أن يقلَ السكارى، لأنهم قد يتقيّأون داخل السيارة، فتقضي ساعات في تنظيفها، وتخسر كل ما يمكنك أن تكسبه في ليلة. والراكب الثمل في أغلب الأحيان فاقد الوعي، وهذا الأمر يجبرك على أن تخمّن وحدك مكان إقامته، إما بالتفتيش عن محفظته في جيب سترته، وإما بصفعه على وجهه لتحييه من جديد، وإما بهزه من ربطة عنقه لتساعده على النطق.

الأمر سيان مع السيدات، يا سادة. عليكم أن تمنحوهن الوقت الكافي ليراقبنكم، ويعرفن خطواتكم... ولا تنسوا أبداً أن تجعلوا

ابتسامتكم تبرق على وجوهكم... فبعد أن تختاروا السيدة التي تعجبكم، حدّقوا مباشرةً إلى عينيها واكشفوا لها عن أسنانكم الودودة. امشوا مستقيمين ولا تتمايلوا أو تتردّدوا لحظة. وعندما تبلغونها، ادفعوها بلطفٍ وعلى مهل إلى حلبة الرقص وأنتم تمسكون بيدها. حرّكوا أوراككم ببطء، أمسكوها بخصرها واتركوا الأمور تجري وحدها. أمسكوا يدها ومرّروا يدكم الأخرى مجدداً حول خصرها. أظهروا اهتمامكم، راقصوها في أذهانكم. كونوا رقيقين مثل موجة هادئة. ولا تنسوا أردافكم: هزّوها يميناً وشمالاً، لا ذهاباً وإياباً. لمّعوا أحذيتكم، واغسلوا آذانكم، وارتدوا بذلةً مكوية، من دون قبعة لأنها سترمي الظلال على عيونكم الجميلة.

المسرح

بعد أن أنهيتُ وجبتي، تركتُ مقهى بوليرو وعدتُ أجول في الشوارع. ركب معي زبائن ونزل آخرون. بعضهم كان ساكتاً، وبعضهم مهذباً، وبعضهم كان منشغلاً بمناقشة أمور الكرنفال والعمل والحياة. التقيتُ السيدة العجوز التي تراها في معظم الأوقات وهي تحمل البقالة، كما التقيتُ السائح التائه، ورجل الأعمال.

ركب معي رجلان، أحسبهما ثنائياً، كانا يتنازعان بهدوء. يصعب عليك أن تصم أذنيك عن نزاعات الآخرين. بالأحرى فهي تفرض نفسها على سمعك، وكأنها تتكون من موجات فوق صوتية خارقة

يمكنك أن تلتقطها وتحس بها حتى عبر سدادات الأذن، ووسط أحلام اليقظة، أو كما قد يُقال، رغم صدى الهمهمات الواهنة التي تصدر عنك إثر انتصابٍ طويل.

كان النزاع هذه المرة حول المال. إذ يبدو أن الأكبر سناً، وهو رجل أصلع، يساند الأصغر سناً، الذي يعمل مغني أوبرا، بحسب ما استنتجت.

قال الأصغر سناً:

- بتَّ تهينني باستمرار مؤخراً.

- لا، أنت أصبحت شديد الحساسية في هذه الفترة.

- أنا فقير، ولا أرى أن مهنتي ستوصلني إلى أي مكان. من يريد أن يصبح مغني أوبرا في هذه الأيام، سوى الحالمين المجانين مثلي؟ لذا لدَيّ الحق في أن أكون حسّاساً. نعم أنا حسّاس.

- أنت تنزعج باستمرار. لديك الحق في أن تكون حسّاساً في فنك، لكن ليس مع حبيبك.

- مع حارسي، إذا جاز التعبير.

- لا أحد يطلب منك البقاء معي. رغم أنني سأشعر بحزنٍ شديدٍ إنْ تركتني.

- لا، لن تشعر به. ستستبدل بي شاباً آخر تحرسه.

- لست حارسك بكل الأحوال.

- حسناً أنت تعرف أنني سأغدو في الشارع إن تركتك، إذ ليس لي مكان أذهب إليه في هذه المدينة. وهذا ما يدعو إلى حراستي.

- أنت تُبقي نفسك.

- حسناً. إذا كان الخيار خياري، فعلَيّ اتخاذه وتنفيذه حالاً. أيها السائق، توقف هنا، من فضلك.

- أيها السائق، تابع القيادة، ولا تتوقف.

- توقّفْ من فضلك.

- أيها السائق، تابع القيادة.

- توقّفْ، أرجوك!

- تابع، أنا من سيدفع لك الأجرة أيها السائق، قال الأكبر سناً بحزم.

قلتُ:

- علَيّ التوقف عندما يطلب الراكب ذلك، إنه القانون.

قلتُها رغم عدم تأكّدي من وجود مثل هذا القانون، وبالفعل توقّفت عند أول زاوية، فأنا أضع قوانيني الخاصة كي أشجّع الناس على إطلاق سراح رهائنهم.

- لا ترحل، قال الأكبر سناً، وهو يمسك بيد الرجل.

بدأ الشاب بالبكاء وهو يقول: أنت تعرف أنني تركتُ كل شيء من أجلك. طلبتَ مني أن آتي إلى هنا، وأعيش معك. وعدتَني بأن تقدّم لي الدعم إلى أن أحقق النجاح. أنت تعرف أهمية أن أغنّي على المسرح. واليوم أشعر بأنك قد فقدت الصبر. فأنت من يريدني أن أرحل.

- كل ما أريده هو أن تطير، يا حبيبي.

- لا تناديني هكذا. ليس الآن.

- حبيبي.

- أنت تبكيني.

- حبيبي، حبيبي، حبيبي.

- أترى، سالت دموعي وتبلّل كل وجهي. أنا أكره الدموع، وأنت تحبها، مع أنك لا تذرف دمعةً واحدة.

بدأ الأكبر سناً يبحث عن منديله. فالتفتُّ إليهما وناولتُهما علبة المناديل الورقية.

- شكراً أيها السائق، قال الشاب.

قهقه الاثنان، وضحكا، وتعانقا على مقعد سيارتي الخلفي.

دفع الأكبر سناً الأجرة. ثم أمسك بمزيد من النقود ومدّها إليّ.

- هذا مقابل إزعاجك.

وراقبتُهما يغادران معاً على ضوء قمرٍ بدر، في شوارع مبلّلة بالمياه.

الهدف

بلغ مجموع ما جنيته تلك الليلة، مع الإكرامية، خمسين دولاراً. كنتُ قد وضعتُ أمامي هدفاً. عندما أبلغ المئة دولار، أتوقف عن العمل وأعود إلى البيت، فأسجل دخولي مع العنكبوت على الحائط، وأتصل بماري، ثم أقرأ كتاباً، وأمارس العادة السرية.

أملك مخزناً من الكتب. كومة من تلك، يمكنك إيجادها في الأسفل، على رفّ يحاذي سجادتي، ويسهل الوصول إليه ليحرّض ميولي إلى ارتكاب الخطيئة، ويحث قبضة يدي على الحركة. فهذا الرفّ بالتحديد يحتوي على كتب أدبية منوّعة جديرة بالاحترام، كانت يوماً ملكاً للسيدة الملتحية. كتب مثل *L'immoraliste* (اللا أخلاقي)، *L'histoire de l'oeil* (تاريخ العين)، *La chatte* (الهرة)، وكلها تفيدني جداً عند الحاجة وفي لحظات هروبي. هناك أيضاً ما ورثته عن أستاذ ترك لي مكتبته الواسعة. لهذا السبب، كنتُ قادراً على الوصول إلى مواضيع مثل *An Unhurried View of Erotica* (نظرة متئدة إلى الشهوة) لرالف غينزبورغ، *The Housewife's Handbook on Selective Promiscuity* (دليل ربة البيت حول العلاقات الجنسية

الانتقائية) لراي أنطوني، Pleasures and Follies of a Good-natured Libertine (ملذات زنديق ودود وحماقاته) لريستيف دي لا بروتون، وإلى مجموعة أعمال أقل قيمة من الناحية الثقافية، لكنني أؤكد لكم أنها رائعة وممتعة في الوقت نفسه تماماً كالباقي. كنتُ أقدم لنفسي كتاباً من الكتب التالية: The Adventures of a Nurse Called Lily (مغامرات ممرضة تدعى ليلي)، The Maid with Golden Whip (الخادمة والسوط الذهبي)، A Stroll on Red Boulevard (نزهة على البولفار الأحمر). أو، للانتقال إلى تشكيلة كتب من الأعمال الدينية الزاهدة الممتعة، كتب مثل The Private Diary of a Crusader's Wife (يوميات زوجة صليبي خاصة)، The Holy Howl (العواء المقدس). ويبقى المفضّل لديّ في هذه الدائرة من المؤلفات The Flogging Trilogy (ثلاثية الجَلْد)، الذي يمكنك إيجاده أيضاً على الرف الأقرب إلى متناول اليد. فالثلاثية متوفرة في ٣ طبعات أولية كاملة: The Art of Flagellation for the Perverse (فن الجلد عند المنحرف)، The Art of Flagellation for the Perverse and Pious (فن الجلد عند المنحرف والتقي)، وأخيراً The Art Transcendental Flagellation (فن الجلد المتعالي) وهو برأيي تحفة مميزة بفضل بحثه المطوّل غير الإلزامي، عن كيفية الوصول إلى ذيل ثور وتحويله إلى سوط.

قبل أن أحظى بفرصة تشغيل المحرك للعودة إلى البيت، إلى

مجموعتي اللامعة، وأتمدد على سجادة والدي وأقرأ، صعد رجل إلى سيارتي، ففاحت رائحة عطر باهظ الثمن. كان يرتدي قبة ناصعة البياض وبذلة من الحرير، ويضع قبعة غريبة التصميم على رأسه، حجبت عني الرؤية في مرآتي الخلفية. «لا بد أنها ليلة الذهاب إلى المسرح»، فكرتُ في نفسي وأنا أقود سيارتي وسط الشوارع الرئيسية والفرعية، أجتازها تحت أضواء المدينة، المنبعثة عبر الستائر المفتوحة، ومن وراء نوافذ غرف نوم مغرية.

قال الرجل، في نبرة تشبه لكنة بريطانية مصطنعة، أو ربما جنوب أفريقية، أو أسترالية - فمن يدري ومن يهتم لهذه التفاصيل - ففي كل الأحوال، كلها من صنع مركبٍ واحد وإمبراطوريةٍ واحدة:

- أيها السائق، هل تعرّضت لحادثٍ من قبل؟

- نعم بالطبع. في الواقع، مرات عديدة.

- إذاً أخبرني، أيها السائق.

- حسناً، قلتُ. ذات مرة كنتُ أنتظر عند الإشارة الحمراء وإلى جانبي سيارة تاكسي أخرى. على التقاطع، في الشارع المحاذي للمبنى، وقفَت سيدة ترتدي قبعة ومعطفاً طويلاً من الفرو، وتنتعل كعباً عالياً، وراحت تلوّح لنا بيدها فبرقت مجوهراتها وانبعثت منها أشعة فوق بنفسجية. لم تحدد أي تاكسي كانت تريد، ومن الواضح أنها لم تكن تأبه. لذلك كانت ستصعد في أول سيارة تصل إليها.

إنها مثل التطور، لا شيء مفضلٌ عندها على السرعة والأداء. التفتُّ سريعاً إلى السائق الذي بجانبي، فمد لي الوسطى. كانت الأفضلية له، لأنه كان بمحاذاة الرصيف. لكنني قلتُ في نفسي أنني أفضل الموت على أن أترك لابن الساقطة هذا - واعذرني على تعبيري - تلك الزبونة.

- الألفاظ البذيئة لا تزعجني. تابع والعن من تشاء.

- عجباً، أجبتُه وتابعتُ. عندما أصبحَت الإشارة خضراء، دستُ على البنزين، فأصبحتُ في الطليعة، ولكن، كما قلتُ سابقاً، الأفضلية كانت لخصمي، لذلك حركتُ مقودي لأسدَّ الطريق أمامه. فداس على مكابحه، لكنه صدم باب سيارتي الخلفي، من جهتك حيث تجلس الآن. توقفنا، وخرج كل منّا من سيارته. حاول أن يضربني مع أنني لم أتوقع ذلك. فعدتُ إلى سيارتي لأخرج منها عصا الريش التي أحتفظ بها للحالات الطارئة، لكنه سبقني في إخراج سكينه واقترب مني. رفعتُ العصا وضربتُه على كتفه، لكنه كان قريباً مني كفاية ليشرحني تماماً هنا في يدي. لا يمكنك رؤية الندبة بسبب وشم الحصان. عندئذٍ رفعتُ العصا وأبرحتُه ضرباً، يا سيدي. كان عليك أن تراه كيف أسقط السكين وراح يتوسّلني. التفتُّ إلى السيدة، فإذا بها تركب سيارةً أخرى. اتّجهتُ مباشرةً إلى بيت صديقي الممرض الذي نظّف لي الجرح، وطهّره، وخاطه من دون أن يخدّرني.

- هل آلمك ذلك؟

- نعم، بالطبع.

- إذاً، دعني أسألك أيها السائق، كيف تشعر حيال الألم؟

- هل تقصد، الألم بشكل عام؟

- فلنقل بالمعنى الفلسفي.

- أعتقد أن الرابح يعتاد على رؤية الخاسر متألماً.

- وهل رؤية الآخرين يتألمون أمر ممتع؟

- قد يكون كذلك.

- ماذا تقول عن الذين يستمتعون، أو بالأحرى يُثارون عندما يرون الآخرين يتألمون؟ هل فهمتَ قصدي؟

- مثل السلاسل، وتقبيل الأحذية، والعبودية وغيرها؟

- تماماً، أنت فطن أيها السائق.

- هناك حقيقة تقول بأن ثقافات كثيرة حوّلَت الألم إلى عروضٍ شرعية، قلتُ:

- كيف تنظر إلى القهر الطوْعي. هل تعتبره شرعياً؟

- أعتقد ذلك، إذا فكرنا ملياً، فهذه نقطة الالتقاء بين حركة التحرّر الجنسي والمتديّنين الذين يجلدون أنفسهم. المسيحيون

القدامى مشوا بسعادة باتجاه أُسُود فاغرة أفواهها، وبعضهم جلد نفسه. وهذا ينطبق أيضاً على بعض الفئات المسلمة في هذه الأيام. لا، لستُ واثقاً من المنافع التي قد يلقاها الإنسان القادر على إطاعة الألم، سيدي. لا بد أن يكون هناك بعض القناعات واللذات المنغمسة.

- كأنك تقول إن علينا احترام القناعات أيها السائق؟ دعني أطرح عليك هذا السؤال: لو كنتَ رومانياً، هل كنتَ شاركتَ في أيّ من تلك العروض؟

- أعتقد ذلك، يا سيدي. لكانت بدت لي شرعية تماماً. نحن حصيلة نشأتنا الخاصة وضحاياها، إلى أن نقرر التفكير والرفض والثورة.

- هل تشارك في أيّ عرضٍ مماثلٍ اليوم، مادمنا نناقش الموضوع؟

أوقفتُ السيارة والتفتُ لأواجه الرجل. ابتسمتُ وقلتُ له: إذا كنتُ قادراً على ترك العدّاد شغالاً، لأقبض ما يسجله بعد ذلك، طبعاً لمَ لا؟ من يدري فقد أُكافأ بعدها بإكرامية كبيرة وسخية.

- لمَ لا؟ لمَ لا بالفعل؟ أنت أذكى مما توقعتُ، يا عزيزي. ابحثْ تجِدْ.

تابعنا السير إلى المرفأ. تحت الرصيف، كان هناك ما يشبه قلعةً

خشبية، أو ربما طاحونة، أو مسخاً. كان الوقت متأخراً، إذ أدركنا ساعات الفجر الأولى، وكنت أشعر بالتعب. حين أشعر بالتعب أتخيّل أكثر الأمور إثارة.

أطفأتُ المحرك، وتركتُ العدّاد شغالاً، وتبعتُ الرجل.

كان قرب الباب نافذة صغيرة. همس منها الرجل ما يشبه كلمة السر، ففُتح الباب في ثوانٍ معدودة. وأطل منه رجل ضخم يرتدي ملابس جلدية، قادنا إلى الداخل.

كان المكان معتماً. رغم ذلك، رأيتُ على المدخل قفصاً واسعاً يُحتجز داخله بضعة رجال نصف عراة، حول رقابهم أطواق. كانوا يتصرفون كالكلاب. أحدهم يركع على ركبتيه ويئن ويشم الآخرين، و آخر ينبح في الزاوية. وثالث يبرز أنيابه. كانت سلاسلهم طويلة، وأحزمتهم الجلدية تشطب صدورهم.

- قلتُ: محاربون!

- بقوة! هؤلاء، يا عزيزي، عبيدٌ جلبهم سادتهم إلى هنا برضاهم. أتوا إلى هنا ليطيعوا ويُستبدلوا ويُقايض بهم. هيّا نتابع إلى الغرف المظلمة. أرجوك أن تصغي دون أن تتحدث.

كان الظلام حالكاً حتى أني لم أرَ شيئاً سوى أشكال أيادٍ وظلالها، وأقسام أجسام تتلاصق. ولولا تنهّدات اللذة والأصوات الناتجة من احتكاك الأجساد، لبدت كلها مثل حوريات بحر راكدة،

تسبح وسط روائح العرق والفروج، وتحوم حول نفسها بازدواجية وسعادة.

بعد مغادرة الغرف المظلمة، وصلنا إلى أكشاكٍ أقل ظلمة، يحتلها مخنّثون ونساء هررة. رحنا نتفرّج على رجل متوسط العمر، مقيّدٍ بسلاسل، قفاه مليء بالشعر، تلتصق به سيدة عارية الصدر، ترتدي بنطلوناً ضيقاً، وتضع قناعاً على وجهها. وكان رجل آخر راكعاً على ركبتيه، بدا وكأنه يعاني ألماً ونشوة في الوقت نفسه، وهو يتنفس بصعوبة عبر قناع جلدي. ثم مررنا أمام رجل يرتدي سروالاً خيطيّاً رفيعاً، حاول أن يمسك بكاحلي، لكنني رفستُه لأحرّر نفسي، ومشيتُ بعيداً. فصرخ: تعالَ إلى هنا يا لوطي، أعرف أنك تريد ذلك. رفعتُ له الوسطى، ونفختُ نفسي مثل نملةٍ تستعد للعراك.

بدأنا نصعد الدرج. ولما بلغنا وسطه، رأيتُ أرجوحةً ضخمةً مزينةً بأزهار تزحف على طول حبالها. «نعم يا عزيزي السائق»، قال الرجل عندما سألتُه عنها. «هذه الأرجوحة تستخدم للعب»، واذهب في خيالك إلى أبعد ما يكون. أنت تناديها أرجوحة، وأنا أناديها أروع مدّ وجزر.

«العالم كله يختصر بعبارة *Va et Vient*(*) كما يقول الفرنسيون»... قال هذا عندما رأيتُ لعبة الكرة والدبابيس في إحدى الزوايا. فصرختُ بحماس من فرط المفاجأة «لعبة الكرة والدبابيس»!

(*) يأتي ويذهب.

«نعم»، قال الرجل، «هذه لمن يصيبه الملل، لمن يُنبذ، ولمن بات لديه مناعة ضد ملذات الحياة».

ونحن نواصل صعود الدرج، مررنا ببعض الرجال المصفّدين بسلاسل حديدية. كان أحدهم نائماً بملابسه الداخلية على الحديد، وآخر يعد بصوت عالٍ كل خطوة نقوم بها. حين وصلنا إلى فوق، صرخ الرجل المصفّد: اتركها تتدحرج، يا سيزيف!

دخلنا قاعةً مفتوحةً تعج بأناس كثيرين، كلهم سكارى، يرقصون، ويدخنون ويحتضن بعضهم بعضاً. في إحدى الزوايا، شاشة كبيرة تبث شريطاً لمارلين ديتريش وهي تغني *The Blue Angel* (الملاك الأزرق). وعلى جهاز مراقبة قبالتها، يقف كلبان مربوطان بعقدة واحدة، يتناكحان.

في الوسط، يجتمع حشد من الناس حول رجلٍ منتشٍ تداعب قضيبه يد امرأة مقنّعة تغطي رأسها بالريش. وبجانب رِجلها، رطل من الزيوت لم تتوقف لحظة عن تغطيس يدها فيه، والرجل يعوي، بصوتٍ عال!

نظر زبوني إلَيّ وقال: ما رأيك بهؤلاء المسيحيين؟ هؤلاء على الأقل اعتقدوا أن السيرك أوشك على نهايته، وأنهم سيذهبون بعده مباشرةً إلى الجنة. ولكن الآلام، على ما يبدو، أبدية.

- قلت له: هذا يذكّرني بمقاطع من إنفرنو(*).

- دانتي لم يأبه يوماً للألم، كان يريد الانتقام فقط. أما هنا فلا شيء شخصي. دعني أؤكد لك أنك قد تجد هنا كثيرين من نخبة حكام اليوم. ولا شيء يضاهي رؤية قاضٍ يتوسّل المغفرة، أو إنجيلي يصرخ طالباً الرحمة، أو طبيبٍ صريحٍ كل الصراحة. الكل يعشق التمثيل، يا عزيزي. الأمر مقدّس.

أضاف: عزيزي السائق، لديك الحرية في الاستمتاع بأي من هذه التسهيلات. وإذا لم ترغب، فلا تخف لأنك لن تخضع للمحاكمة ولست ملزماً بأي شيء. يمكنك أن تنتظر في قاعة الضيوف وتطلب ما تريد، فالشراب على حسابي.

توجّهتُ إلى القاعة، وجلستُ على البار. كان هناك رجل آخر يدخن وحده في الزاوية. التفتَ إليّ سريعاً، ومال نحوي قائلاً: *T'as une tête d'arabe comme moi*(**)، ثم ابتسم، وسألني: هل أنت سائق تاكسي؟

- نعم. كيف عرفت؟

- رأيتُ سيارة أجرة في الخارج... ثم إنك تجلس في جناح الضيوف، وليس في الداخل مع تلك الحيوانات ما يعني أنك لست منهم. إنهم يشبهون الكلاب. يركعون على ركابهم تماماً مثل الكلاب.

(*) Inferno: الجحيم، أي الجزء الأول من ملحمة الكوميديا الإلهية لدانتي.
(**) «لديك ملامح عربيّ مثلي».

Ils sont pourris, mon ami. Une société de chien ici. Comme des chiens(*).

أضاف: اسمي سيدي حميد بنانجلي، ويمكنك مناداتي حميد. أنا سائق تاكسي مثلك، ركنتُ سيارتي في الخارج بالقرب من سيارتك. مرة أو اثنتين في الأسبوع أصحب أحد الأغنياء إلى هنا. في بعض الأحيان، عندما يكون الطقس بارداً، أدخل لأوفر الوقود، ولكن في الصيف، أنتظر دائماً في الخارج. أفضّل أن أبقى في سيارتي على أن أدخل هذه القذارة. فمع أربعة صغار وزوجة، يصعب عليّ أن أرفض النقود... لا أقول كلمةً لزوجتي عما أراه هنا. أجلس، أدخن، وأفكّر في صغاري. سأعيد بناتي إلى بلدي الأم، فلا مكان لهنّ هنا... السيدة تدفع لي جيداً، لهذا السبب أتحمّل مناظر الفسق هذه. أجلس وأنتظر وأترك عدّادي شغالاً في السيارة.

Ça va pas rester comme ça, mon ami. Ça va éclater. L'occident est pourri(**).

قدّمتُ لحميد شراباً، فقال لي إنه لا يلمس أي شيء هنا، ليس لأنه يمتنع عن ذلك، بل لأنه يخاف أن يلتقط مرضاً من لمس الزجاج. قال: أذهب مباشرةً إلى البيت، وأنظف نفسي. أرمي ثيابي في المغسلة، وأغسلها بنفسي، لا أدع صغاري يلمسونني قبل أن أستحم وأغيّر ملابسي. اعتقدتُ أن الغربيين تعلّموا كيف ينظفون

(*) هم منحطّون يا صديقي.. هذا مجتمع كلاب. هم تماماً كالكلاب.

(**) لن يبقى الأمر على هذه الحال، يا صديقي سترى كيف سينفجر. فالغرب منحط.

أنفسهم بعد كل هذه القرون من الكوارث والانحطاط، لكن إذا سألتني رأيي، فسأقول لك إنهم ما زالوا قذرين.

بعد بضع ساعات عاد زبوني إلَيّ وقال: فلنذهب. لم أكن يوماً مغرماً بالكلاب.

عند المخرَج، توقف زبوني ليستعيد معطفه، فدار حديث قصير بينه وبين شاب كان يضع حزاماً من الخرز حول وسطه، وقطعة صغيرة من القماش الشفاف على عضوه. وأنا في انتظاره، انتبهتُ إلى دفتر الضيوف الموضوع على طاولة صغيرة. كان مفتوحاً على صفحة مليئة بالإهداءات، وقربه قلم مزيّن بريشة.

أمسكتُ القلم، كان خفيفاً كما لو أنه... تماماً... ورحتُ أكتب رسالة طويلة أشكر فيها تلك المؤسسة على هذه التجربة المؤثرة، وعلى الفرصة التي سنحَت لي لأختبر هذا النفق الشعبي من الأحاسيس وأذكر ضرورة الرمزية وخوض التجارب أثناء التشريع لهذا الانحطاط، انحطاط كل ما هو مادي: نباح الكلاب، سلسلة الأفخاخ، الحاجة إلى تصوير مصير الإنسان في هذا العالم المنحط... كنتُ على وشك تأليف بعض الأبيات الموزونة حول موضوع الظلمة، والتشابك في العلاقة، والحاجة إلى الضوء، عندما ربّت زبوني على كتفي وقال: يا صديقي العزيز، أنا أشعر بالإطراء كون سجون الحب هذه قد زوّدتك ببعض الإلهام، لكني أعتقد أن عدّادك ما زال شغّالاً، وعلَيّ العودة إلى البيت لأحرّر نفسي من هذا الضيق الذي أشعر به في صدري.

عدتُ بالرجل «الإنجليزي» إلى المدينة. دخّن داخل سيارتي ولم أعترض. فالعدّاد كان قد سجل أكثر من مئتي دولار، وأنا على ثقة أن إكراميته ستكون استثنائية، مذهلة، خيالية (أقولها وأنا أعضّ على أصابعي). أوصلتُه إلى وسط المدينة، فطلب رقم هاتفي.

- سأتصل بك، أنت ذكي، وجاد في عملك، ومدرك بالفعل. لديك موهبة المعرفة، ومن يملك المعرفة فهو دائماً رابح! سأتصل بك. ثم ناولني إكرامية سخية ضاعفت مدخولي. ودّعني بعبارة «باي باي». ومرّ برويّة أمام سيارتي ليدخل مبنى راقياً يقف أمامه حارس يرتدي بذلة وقبعة خضراء، ركض ليفتح له الباب.

السجادة

عدتُ إلى شقتي والمال في يدَيّ كافٍ لليلتين من دون عمل. احتفالاً بثرائي، ركنتُ سيارتي، وصعدتُ الدرج راكضاً، وتمدّدتُ على السجادة. بعد أن حاربتُ بضعة جيوش بربرية، أعلنتُ للعالم: فيني، فيدي، فيتشي، (أتيتُ، رأيتُ، انتصرتُ). كان استقبالنا في روما عظيماً بعد الانتصار العسكري الساحق الذي حقّقناه. فالأحصنة، والعبيد، والأسرى، وعساكري المتفاخرون، كلهم كانوا يصرخون باسمي، وكل ذلك أثلج صدري.

كانت ابنة ملك القوط الغربيين بين المقبوض عليهم. حرصتُ

على أن تسير حرة. لم أشأ أن يُخدش كاحلاها الدائريان، ويُطوّقا بآثار الدماء. لم أشأ أن تتعب يداها من ثقل الحديد والسلاسل.

بعد أن ارتحتُ وزرتُ الحمامات العامة، عدتُ إلى مأواي لأسأل عنها. دخلَت عليّ بكل جرأة، نظيفةً، ترتدي عباءة بنفسجية طويلة، وشعرها الذهبي المسرّح يغطي كتفيها، فأثار جمالها الدمع في عينَيّ. ولأغريها، تركتُ خنجراً على الدرج. رأيتُها تحدق إليه. وقفَت هناك بكل فخر، غافلةً عن كل ما يحيط بنا من رخام وذهب. أمرتُ حراسي وعبيدي بأن يتركونا وحدنا. طفتُ حولها، فكانت شجاعةً تماماً مثل جميع مَن هم مِن نوعها. كم واحدة من تلك القبائل الجرمانية ذُبحتُ، وكم واحدة استُعبدتُ، لم أرَ بعدُ فتاةً جميلةً كهذه. لم ألمسها. مشيتُ أبعد من الخنجر، وشعرتُ برعشةٍ جنسيةٍ تجتاحني. أردتُها أن تمسك بالخنجر وتطعنني. أردتُ أن أراها تصرخ وهي تغرسه في صدري، وتردّد اسم والدها. لا شيء كان سيؤثر بي أكثر. فبعد كل تلك الحملات التي قدتُها، والانتصارات التي حققتُها، والثراء الذي جمعتُه، وحدهما الجمال والعنف كانا سيعطيان معنى لوجودي. كنتُ أريد أن أقذف لحظةَ يحفر الخنجر جلدي ويُغرس فيّ. أردتُ أن أرى وجهها المنتشي إثر عشر رعشات جماعٍ متتالية، وأنا أغطيها بدمي. نشوات متعدّدة باسم والدها، ذلك الذي ذبحتُه أمام عينيها، في ذكرى الأكواخ التي أحرقتُها، في ذكرى عمليات النهب، والاغتصاب، والاحتلال، والنقل القسري، التي كنتُ مسؤولاً

عنها. مارستُ عادتي السرية وقذفتُ على سجادة والدي، وأنا أراقب ابنة الملك تركض صوبي والخنجر في يدها.

استحممتُ في ذلك المساء، واسترحتُ. فبعد مقتلي، اندلعَت حرب أهلية في غرفتي. بان القتلة من مكتبتي، من جهة المطبخ بالتحديد، حيث أحتفظ بجميع الكتب التاريخية فوق المجلى، إلى جانب فناجين القهوة. كان الرجال ينبحون، والنساء يصرخن. أما أسى الحروب فجعلني أتناول سترتي، وأمسك بقبعتي، وأضع حلقة المفاتيح في إصبعي، وأنزل إلى سيارة التاكسي لأقودها وسط الشوارع بحثاً عن زبائن.

ركبَت معي امرأة شابة ترتدي تنورة قصيرة وتنتعل حذاءً بكعبٍ عالٍ. حين طلبَت أن أنزلها عند مفترق شارعي جون ستريت وفليس ماركت ستريت، عرفتُ تماماً إلى أين كانت تنوي الذهاب. سمحتُ لنفسي بمتابعة القيادة مباشرةً إلى الممشى، لأوقف السيارة عند باب ملهى التعري الخلفي. أوقفتُ العدّاد، وانتظرتُ أن تدفع لي أجرتي.

أخرجَت بقبضة يدٍ قطع نقودٍ صغيرة، ورمَتها في وجهي قائلةً: «هل تعتقد أنك ذكي؟ هل تعتقد أنك تعرف كل شيء»؟ ثم رحلت قبل أن أعتذر منها، وأقول لها إنني بعد كل تلك السنوات التي أمضيتُها وأنا أقوّم حجم الناس وحياتهم، أصبحتُ عرّافاً. فنظرة واحدة في مرآتي الخلفية، تكفيني لأميّز الحيوانات الجوالة، ومسارات حياتها

المترجّحة. نظرة واحدة إلى حركتها في الشارع، وطريقة إمساكها الحقيبة، وإسراعها إلى السيارة، وانزعاجها من الزبائن الثملين، وعصابة الموظفين الذين يأتون كل يوم جمعة وقت الـ «هابي أوِر» (الساعة السعيدة)(*)، تكفي لأعرف كل شيء.

الشَّعر

في اليوم التالي، حوالى الثانية عشرة ظهراً، وردني اتصال هاتفي من التاجر:

- بعد ساعة، في المكان نفسه. ستأخذ امرأتي للتسوق. زمّر وستنزل فوراً.

نقلتُ بعض الركاب إلى أن قارَبت الساعة الواحدة، فتوجهتُ رأساً إلى هناك، إلى شقة التاجر. زمّرتُ وانتظرتُ. نزلَت المرأة مسرعة إلى السيارة، تحمل حقيبةً جلديةً كبيرة، تتدلى منها كمية لا بأس بها من الذهب المزيّف على الجانبين. ملابسها زاهية الألوان، وكعبها عالٍ جداً. دخلَت السيارة وأمرَتني بأن آخذها إلى الشارع الرئيسي.

- قالت: هيا نتسوّق.

فجأة، سمعتُها تصرخ وتطلب مني التوقف.

(*) أي الفترة من النهار التي يكون فيها سعر المشروب مخفّضاً في الحانات.

سألتُها إن كانت قد نسيَت شيئاً.

- حسناً، نعم. المال.

درتُ حول المبنى إلى أن وصلتُ مجدداً إلى مدخله.

- زمّر، أيها السائق، زمّر وسينزل حالاً.

زمّرتُ إلى أن نزل التاجر، وعلى وجهه ابتسامة مزعجة. لوى بنفسه عبر النافذة، وقال لامرأته: هل نسيتِ شيئاً؟

- هيا يا حبيبي، أثبت لي كم أنت كريم.

في مرآتي الداخلية، رأيتُ الرجل يمد يده داخل جيبه، ويُخرج منها رزمة نقود.

- كلها لك، يا قلبي.

لكنه ناولها نصف الرزمة تقريباً.

- كلها، يا زي! هيا، وسأقوم الليلة بأكثر ما تحب.

- اعتقدتُ أن هناك حسماً، ماذا جرى للحسم؟

- هيا يا حبيبي، السائق ينظر إليك.

أعطاها ورقتين إضافيتين، وأدار ظهره ليدخل المبنى مجدداً.

- قالت: ابن الساقطة، أيها السائق احرص على أن يدفع لك دائماً. لا تتركه يخدعك، ولا تخجل. اطلب دائماً المزيد. ما اسمك؟

- فلاي. وأنتِ؟

- شايلا، لكن يمكنك مناداتي بايبي جاين.

- جاين؟

- لا، بايبي جاين.

- حسناً.

حين وصلنا، طلبتَ أن أرافقها إلى الداخل، ففعلتُ. أمسكَتني بيدي وقالت: رجلي يكره التسوّق. هل تحب تجربة الملابس؟

- أنا متعوّد على ذلك.

- وهل كنت عارضاً؟

- كلا، كنتُ أعمل مؤدّياً.

- مؤدّ، أحب ذلك. أنا كنتُ راقصة، إلى أن أنقذني حبيبي.

- راقصة باليه؟

- لا، راقصة إغراء.

مشينا من متجر إلى آخر. قاسَت فساتين وأحذية، وجرّبَت مستحضرات تجميل. وأمّا أنا فقستُ بنطلونات واسعة، وسترات جلدية، وقمصاناً فاقعة، ونظارات شمسية، وتشكيلة من القبعات. كلها على حساب التاجر.

بعد أن قضينا فترة بعد ظهر طويلة نمشي ونحمل الأكياس،

أوصلتُها إلى صالون التزيين. ثم جلست في مقهى أشربُ البيرة وأنتظرها حتى تنتهي من شعرها. أخرجتُ كتابي، وقرأتُ قليلاً. بعد ساعة، عدتُ مجدداً إلى الصالون لآخذ بايبي جاين، لكنها كانت لا تزال تحت منشّف الشعر، تقلّب صفحات مجلة أزياء.

انتظرتُها في الخارج وأنا أدخن، ملقياً بنفسي على عمود كهرباء، مراقباً سكان المدينة وهم يمرون أمامي. فجأةً تلبّدت الغيوم، وبدأ المطر يهطل. فركض الناس ليأووا إلى جوانب الطريق تحت المظلات.

تضخّم حذائي بعد أن تبلّل، وثقلت أطراف بنطلوني أيضاً. فلففتُها إلى الأعلى، وأقفلتُ أزرار قبتي، وعدتُ إلى السيارة لأحمل مظلتي الملونة، وأنا أرسم ابتسامة على وجهي، وأنتظر أن يلتف شعر السيدة ويتموّج ويجفّ.

بعد مغامرة الأكياس والأحذية والشعر، أعدتُ بايبي جاين إلى باب بيتها. فأخرجَت مفاتيحها من حقيبة يدها، لأن يديها كانتا فارغتين تماماً، وكنت أنا من يحمل كل تلك الأكياس. بالمناسبة، أستطيع أن أقول لكم أنها أُعجبَت كثيراً بخدمتي، لذلك ناولتني كل ما بقي في محفظتها من نقود قائلةً: أنت مساعد جيد، يا فلاي! اترك كل شيء على الباب. سيأتي رجلي ويصعد بالأغراض.

أخذتُ المال، واتّجهتُ فوراً إلى مقهى بوليرو، حيث يقدمون

في مثل هذا اليوم طبق «الفيش أند شيبس»(*). إنه أفضل يوم عندي على الإطلاق.

الكلب

يُمكنني أن أحزر دائماً مَن في مقهى بوليرو مِن صف إشارات التاكسي والسيارات المركونة في الخارج. بعض العناكب يتشاطرون طاولة واحدة، ويتناولون الطعام في الوقت نفسه. هم يبرمجون حياتهم حسب مواعيد ملء بطونهم وتدخين سجائرهم. ثم نأتي نحن الذباب الذين نغط ونطير في كل ساعة.

في بعض الأحيان، لا يكون أمامنا خيار إلا الجلوس على مقعد قرب الصندوق، وتحمّل هبّات الحر المندفعة من المطبخ. وفي أحيانٍ أخرى نضطر إلى الجلوس في جوار الـ٦٦، فهو راسخ أبداً على مقعده. والكلمات النادرة التي ينطق بها تكون موجّهة، في العادة، إلى ابنة المالك التي تقف وراء الصندوق: «شكراً جزيلاً يا عزيزتي». هو يتنشق روائح الطعام لكنه لا يطلب إلا القهوة. هو ليس عنكبوتاً ولا ذبابة، بل شبح في منزلة بين الحياة والموت. نادراً ما نراه يقود. يُقال إنه عندما أراد الحصول على رقم لسيارة الأجرة الخاصة به في مكتب سيارات الأجرة، طلب رقم ثلاث ستات، لكن المكتب رفض إعطاءه إياه، خوفاً من أن يُروّع الزبائن. فاضطر

(*) أي السمك مع البطاطس المقرمشة.

للاكتفاء بستتين، وهو اليوم يجلس في مكانه هذا منتظراً وصول الستة الثالثة.

كنتُ محظوظاً تلك الليلة، لأنني وجدتُ كرسياً وطاولة فارغين، ولم يكن عليَّ أن أعاني مشقة الجلوس على البار، والهدوء المفرط. انضممتُ إلى بعض العناكب واستمعتُ إلى قصصهم. فالرقم ١٥ خضع منذ أيام للتفتيش على يد مفتشة التاكسي، هكذا قال الـ١٠١. «أخبرهم قصتك، أخبِرها الآن»، توسّل الـ١٠١ الـ١٥. هز الـ١٥ بكتفه وقال: تركتُها تقوم بواجبها كما نصحتموني.

تتلذّذ مفتشات سيارات الأجرة بمضايقة سائقي التاكسي، والكل يعرف ذلك. فغالباً ما تقف عند الإشارة الحمراء، وتنظر إليك. وإذا كانت تخطط لرؤيتك لاحقاً، تبتسم لك وترحل. ثم، بطريقة أو بأخرى، تتبع أثرك عبر إشارة التاكسي الخاصة بسيارتك أو عبر أصدقائك. وإذا كنت سائقاً عنكبوتاً، تأتي إلى البوليرو، وتسأل النادلة عن الساعات التي تقضيها في تناول وجبتك، وعن الطاولة التي تختارها. ثم تظهر أمام سيارتك، وتفاجئك بشارتها. تجلس بالقرب منك، وتضع يدها بكل برودة على فخذك، قريباً من تلك المنطقة، وهي تشغل نفسها بالتفتيش في أوراقك، والتحقّق من نظافة سيارتك. ثم ترحل.

إذا ردَدْت يدها، غرّمتك غرامةً كبيرة. وإذا بادلتها التصرف ذاته، قد يؤدي ذلك إلى أن تتّهمك بالتحرّش الجنسي. أما إذا تلاقت عيونكما، فستأمرك بأن تبقي عينيك على الطريق، حتى عندما تكون

سيارتك مركونة. أظن أنها تقوم باستقصاء، في محاولة لإيجاد علاقة بين سائقي التاكسي وطول أعضائهم. تضع يدها في مكان ما بين المنفَرَج والركبة، وتنتظر أن يطول قضيبك ويعرض لتجحظ عيناها، فتدوّن اسمك، ورقم رخصتك، وطول مناوبتك.

ذات مرة، كان الـ٦٦ يخرج من مقهى بوليرو بعد أن انتهى من تناول قهوته، ففوجئ بالمفتشة تدخل سيارته. بعد دقيقتين، خرجَت مسرعةً، وأغلقَت الباب بعنف. كان وجهها شاحباً، فأسرعت بالدخول إلى البوليرو لتطلب المياه، ثم رحلَت. قيل إنها حين دخلَت سيارته، عرف الـ٦٦ أسماء أبناء إخوتها الثلاثة، والمكان الذي دُفن فيه أبوها. ثم وصف لها القرية التي كبرَت فيها، والمعطف الذي كانت ترتديه صغيرةً وهي تعذب هرة الجيران.

قال لنا الـ١٥: عندما جلست المفتشة بجانبي، تسمّرتُ في مكاني. وعندما انتهت من تفتيشها، أخرجتُ سيجارة لأشعلها. ثم سحبتُ منديلاً ورقياً من العلبة وقدّمتُه لها، فغضبت. جعلَتني أخرج من السيارة لتفتشها مجدداً. سطّحَت كل مقعد. كان لديها ضوء قوي في يدها، غاصَت به تحت كل مقعد لتتحقّق من كل زاوية. وعندما سألتُها عمّ كانت تبحث، أجابَت: عن مخدرات. جعلتني أفتح لها الصندوق، حيث كنتُ أترك صندوقاً أملأه بقالة أحملها إلى زوجتي وأنا عائد إلى البيت. فغرّمَتني وقالت إنه علَيَّ أن أترك صندوق سيارتي فارغاً في حال أراد زبون أن يضع حقائبه فيه وهو في طريقه

إلى المطار، أو أكياس بقالته عند الحاجة، أو أجساماً ميتةً أو أي شيء لعين آخر، لا أدري ما قد يكون. كانت غاضبة مني. قالت لي إنها ستبحث عني مجدداً لتفتش صندوقي، وبأن من الأفضل لي أن أبقيه فارغاً. وكما توقعتُ، أوقفَتني في اليوم التالي، على منعطف شارع هورن ستريت. ففتحَت الصندوق ووجدَت فيه علبتي مناديل ورقية كبيرتين، فاغتاظَت.

ضحك الجميع ثم أضاف الـ١٥: أرادت أن تغرّمني غرامةً أخرى، لكنني قلتُ لها إنها تستوقفني وأنا لديّ توصيلة، ويمكنني أن أثبت لها ذلك إذا ما ركبت السيارة ورافقتني إلى منزل الزبون، ويمكنها أن تراه بأمّ عينها. قلت ذلك وأنا أداعب فخذي من الأعلى إلى الأسفل طوال الوقت.

قال الـ١٠١ وهو يضحك: يا لك من كلب صغير. وضحك الكل معه.

الأتراك

أطلّ الصباح. فانتظرتُ زينب مطوّلاً، لكنها لم تظهر. صعدتُ إلى شقتي، وتمددتُ على فراشي، إلا أنني لم أستطع النوم، لأنني كنتُ أشعر بالإثارة مثل أي تركي.

فرشتُ سجادة والدي الطائرة على الأرض، وتخيّلتُ نفسي جندياً تركياً في الأيام القليلة التي سبقت ذهابه إلى معركة جاليبولي.

كنتُ في اسطنبول، فقصدتُ مقهىً لأدخن وأنتظر فيه وصول أحد معارفي. وأنا في المقهى، رحتُ أركِّز في دوي النرد وهو يُضرَب على طاولات الخشب، ما جعلني أتساءل إن كنتُ سألعب تلك اللعبة مرة أخرى. كنتُ قادراً على رؤية مآذن الجامع الأزرق. وكانت أمي التقية قد طلبت مني أن أذهب إلى الصلاة، لكنني فضلتُ قضاء ما يمكنها أن تكون ساعاتي الأخيرة، وأنا أجول في الحي وسط شوارعه.

لم ألتقِ يوماً أسترالياً. ولم أكن أعرف مَن يكون الأستراليون، وما تشبهه نساؤهم. لكنني كنتُ على وشك الذهاب إلى ميدان المعركة لأقابل أولئك الجنود الآتين من بعيد لاجتياح أرضنا. فجدي كان انكشارياً ومحارباً استثنائياً. في صغره، خطفه الأتراك من أرض السلافيين، فاعتنق الإسلام وأصبح من نخبة المحاربين في جيش السلطان. كانت بشرته بيضاء مثل أي سلافي. مثلَهُ، وُلدتُ أشقر وأزرق العينين، وببشرةٍ فاتحة كبشرة المسيحيين. ندمتُ لأنني لم أتزوج، فالموت في سن مبكرة قبل تلمُّس جسد امرأة، أمر مثير للشفقة. والموت في تلك الخنادق الرهيبة من دون اختبار دفء امرأة حتى ولو لليلة واحدة، سيكون ندمي الأخير.

مشيتُ أنا، الجندي التركي، إلى الجامع الأزرق لأقابل الشيخ طامعاً بمشورته في هذا الخصوص. إذ قد ينصحني بواحدةٍ أتزوّجها على عجل. قال لي: بالمعدل الذي يموت فيه جنودنا في ميدان المعركة، سيكون من الاستهتار أن تترك صبيةً وحدها من بعدك.

لكن اهدأ يا صديقي، أنا أعرف أرملة قد توافق على الزواج من دون مهلة. ويمكن عقد قرانكما في دقائق. سأذهب لرؤيتها الليلة. إذا وافقَت، وتمكنتَ من تقديم المهر لها ولصغارها، ستتم الأمور على ما يرام. عُدْ غداً.

في صباح اليوم التالي، عدتُ لأرى الشيخ. وكما توقعتُ، كانت المرأة في انتظاري على مقاعد الجامع الخلفية، في القسم الخاص بالنساء. تزوجنا، وانتقلتُ فوراً إلى منزلها. صغارها لا يزالون أطفالاً، وهي ما زالت ترضع واحداً منهم. مات زوجها في معركة، والآن هي بحاجة للمساعدة، وليس لديها أحد، ولا عائلة لتهتم بها. في تلك الليلة، قدّمت لي الطعام، دون أن تنظر لحظة في عينَيّ. وعندما أشرفنا على نهاية السهرة، حين خلد صغارها إلى النوم، انسحبنا بهدوء إلى الغرفة. كانت ملابس زوجها لا تزال معلقةً على الحائط. وكنتُ متوتراً، فأنا لم ألمس امرأة من قبل. لكن، ها هي أمامي، تتمدّد عارية تحت أغطية السرير. قررتُ أن أنزل تحت الملاءة بملابسي. لكنها أوقفَتني، وبدأَت تنزع الملابس عني، وتلامس صدري، وهي تنظر مباشرةً في عينَيّ.

عندما صار قضيبي صلباً، أمسكَته بيدها، وأرشدتني بتأنّ. كانت تعرف أنه ليس لدَيّ أدنى فكرة عما يجب القيام به. لا بد أن الشيخ قد فسر لها باختصار. قذفتُ فوراً بعد أن دخلتُها، فشدَّتني إليها وقالت: إذا عدتَ حياً تُرزق، سيكون هذا المنزل منزلك، وستحظى هنا بمزيد من المتعة.

خلال المعركة، أشفقتُ على أولئك الأستراليين المساكين. فقد رموا بأنفسهم على الشطآن تحت أسلحتنا. فذبحناهم بالآلاف، ثم تلذّذنا بالانتصار... «طال عمرك يا أتاتورك»، صرخنا جميعاً. ذلك القائد الآمر العظيم الذي أنقذ أرضنا!

عندما وصلَت سجادة أبي إلى السقف، نظرتُ إلى الشواطئ، وقذفتُ على مفترق التاريخين المتضاربين. شعرتُ أنني محظوظ لأنني لا أزال حياً، ولأن ثمة مياهاً لأطهّر نفسي بعد تلك المعارك المرعبة، تلك التي تتركك ملطخاً بالوحل، والدم، والحروق، والرضّات.

أخيراً تمكّنتُ من النوم، واستيقظتُ متأخراً بعد الظهر. كان الوهج قد بدأ يخف، والشمس تجهّز نفسها للانسحاب باكراً إلى البحر، وراء جبلٍ أو غيمة، أو وراء ظِلّ ثنائي يمشي يداً بيد ويمسك قرنيْ بوظة، أو كيسين من المكسرات، أو موزتين لإشباع إلحاحات القرد داخلهما، تلك التي تجعلهما يقفزان من نخلةٍ إلى أخرى، حتى يصلا الشاطئ، ويمسك أحدهما يد الآخر من جديد ويتشاركا المكسرات. ما زال أمامي بضع ساعات قبل أن تبدأ مناوبتي. فترددتُ في أن أترك الفراش وأغسل أسناني، أو أمد ذراعي إلى رف الكتب المجاور لأمسك عشوائياً بكتابٍ فأقرأه، أو أكمل مسرحيتي الخيالية التي بدأتُها قبل النوم، وأنشر سائلي المنوي باتجاه الشمس الغائبة والشطآن المعوجّة المتهادية. لكنني قرأتُ. ثم نهضتُ من

الفراش لأنظف أسناني، وأحرّر نفسي من السائل الذي تراكم عليّ أثناء نومي في النهار، ساعة كان الصغار يلعبون ويصرخون في فناء الحي الخلفي.

حوالى الساعة السادسة مساءً، قدّمتُ لنفسي كوباً من العصير الأحمر. كل شيء من حولي كان هادئاً، والعنكبوت الكبير كان قد قبض على الفراشة. أطفأتُ النور، وقررتُ أن أترك المكان قبل أن ينقض بأنيابه عليها، ويستخرج السائل منها. فوجبة كبيرة مثل تلك الفريسة المنحطة كافية لعشاء ليلة. وكثير من الطعام سيجعلك سميناً مثل الدكاترة، راضياً عن نفسك مثل الكتّاب البارعين، كسولاً مثل الرومان المعربدين، مستديراً مثل زوجات الطغاة، متذبذباً مثل الفِيَلة، لولبياً مثل الخيم، كروياً مثل المصابيح، وأسطوانياً مثل مشغّلي الآلات.

رحلتُ أيضاً، لأن الكتب بدأت تتحرك، والفأرة في الشقة ضاق صدرها بين الأغلفة. وقبل أن تبدأ الشخصيات الفرار من صفحاتها، خوفاً من أن تُقضم آذانها أو تفقد أصابعها بين أسنان القوارض، نزلتُ إلى الطابق الأرضي لأحمّي مركبي لإبحار تلك الليلة.

المطر

قدتُ سيارتي في ليلة ساكنة. كان رذاذ المطر قد بلّل الإسفلت،

وعَكَسَت الطريقُ ظلالَ الناس الرمادية أشباحاً طويلة غامضة. كنتُ قادراً على رؤية لون سيارتي يتقدّم على سطح المياه، قرب خيالٍ عائمٍ ليسوع وسربِ إوز بري. تابعتُ القيادة. يا لهذه الليلة الهادئة المذهلة! عادةً حين تمطر يظهر البزّاق، والديدان، والمظلات الضخمة التي تخرج من داخل حقائب النساء، وتفرد نفسها فوق قبعات الرجال. تحت المطر، يطفو الناس على حواف الأرصفة، ويحدّقون إلى البرك مثل أي منتحرٍ حائر. ماذا يحصل الليلة؟ فكرتُ في نفسي. أين أولئك الباحثون عن الجفاف؟ تلك الأرواح التي تخاف اللّه، والهاربة من الطوفان الرهيب. أين تلك الهياكل المبلّلة المتحرّقة إلى إيجاد مأوى أو مركب؟ قدتُ ساعةً كاملةً دون أن أُقلَّ أحداً.

كنتُ أستمع إلى موسيقا هادئة على الراديو. وكان الكرنفال على وشك أن يبدأ. لا بد أن يكون الناس متلهّين بالإبرة والخيط، وهم يضعون اللمسات الأخيرة على بذلاتهم، أو يتمرنون على خطواتهم في الرقص؛ أو ربّما بكل بساطة كان ضوء إشارة التاكسي مطفأ. أوقفتُ السيارة وخرجتُ لأنظر إلى سطحها. لعل اللمبة محترقة أو لعلني نسيتُ أن أُحكِم شدّها. لأنني ذات مرة، كنتُ أقل امرأة تشاجرتُ معها على الأجرة، بعد أن اتهمتني بسلوك أطول طريق. قالت إنني كنتُ أقود ببطء قاتل، وإنني كنتُ أُدخلها في متاهاتٍ ودهاليز. أكدت لي أنها تسلك دائماً الطريق نفسها، وأنها لم تدفع

يوماً هذا القدر من الأُجرة. فاتّهمتها بالكذب، وبتصعيب الأمور علَيّ، وبالظن برجلٍ يعمل بجد.

- سأدفع لك ما أدفعه عادة.

- لن تخرجي من سيارتي قبل أن تدفعي كامل الأجرة.

- حسناً، سأدفع لك وألعنك.

- أنا ملعون أصلاً، يا سيدتي. أنا ملعون لأكون ملاحاً وجوالاً، لأكون عالقاً على مراكب معتوهين ومخبولين في أسفل نهر لندن...

- علامَ سنرسو، على المال أم على اللعنة؟

- ستدفعين لي أولاً، وبعدها يمكنك أن تلعني، وتفرغي ما في داخلك، وتثرثري قدر ما تشائين. وأنا سأقوم بفك اللعنة داخل صندوقي السحري، هنا، المكدّس بطبقات من الأوراق البيضاء الناعمة. في شبابي يا سيدتي، تعلّمتُ أنا أيضاً بعض الحيل، تعلّمتُ كيف أخفي المساعدين والحمام والأرانب. تعلّمتُ أن العالم خُلِق من فراغ قبعة، وأنه شعّ من كُمّ محتال، وسيختفي ذات يوم في فجوة حمّام مظلمة. أعرف كل أنواع الحيل، يا سيدتي. فذات يوم، كانوا ينادونني الطفل العرّاف. لكنني كنتُ أيضاً رامي سكاكين، وكنتُ مولعاً بالأسود، وفاتحاً لأقفاصها. يمكنني أن أعرف من ثقل وزنك أن قلبك لا يعرف الحلم، وأن نظرتك إلى الأمور محجوبة بضبابٍ من الخرافات والبخل. اذهبي إلى الجحيم لأن هذه هي وقفتك

الأخيرة. انتبهي وأنت تخرجين من السيارة، فقد تقعين وتخسرين حقيبة الحيل التي تحملينها.

أخذت المال من حقيبة يدها وبصقت عليها. دندَنت المامبو جامبو ثم نظرَت إلَيّ في المرآة الخلفية وقالت: لن تحصل على شيء اليوم. لن تحصل على شيء الليلة. ثم رحلت. فراقبتُها وهي تحمل حقائبها المترجّحة بين يديها مثل دجاجات تحت سكين الذبح.

في تلك الليلة، قدتُ السيارة ساعاتٍ طويلة، وكما توقعتُ، لم يدخلها أحد. اتجهتُ إلى أعلى الجبل باحثاً عن هواء نقي. خرجتُ من السيارة، ونظرتُ حولي لأتأكد من أن مفعول اللعنة قد سرى عليها، فظهرَت لها قرون أو أنياب أو مخالب طويلة أو عيون جاحظة، أو ببساطة إذا أصبحَت غير مرئية في هذا العالم المحسوس. انتقلتُ من عجلةٍ إلى أخرى أبحث عن عظام، عن سيقان دجاج، عن دماء لطَخَت رفرافها أو سقفها، ثم أشعلتُ سيجارة. وفي تلك اللحظة، انتبهتُ إلى أن إشارة التاكسي كانت مطفأة. ففهمت لماذا لم يلوّح لي زبون. كلهم اعتقدوا أنني مشغول أو محجوز، وأنني لستُ متوفراً في ذلك اليوم، أو أنني قطعتُ مناوبتي، وملأتُ صندوقي بزبائن لم يدفعوا لي الأجرة، أو ربما أنني غامض، وكئيب، وميت، أو أن سيارتي تنجرف مع حركات سفينة برتغالية ضائعة في مدار القرن الأفريقي، وفي أقصى القطب الجنوبي المغطى بالجليد.

قدتُ سيارتي إلى مرأب روب، الميكانيكي الليلي، فكل سائقي التاكسي يذهبون إليه. هو الميكانيكي الوحيد في المدينة الذي يبقى عاملاً طول الليل. روب قادر على تغيير اللمبات، والمصابيح الأمامية، والأبواق، والمسكات، والمرايا. هو رب من أصلح الأسلاك الكهربائية، واللمبات المعلقة في الهواء. بالكاد يكلّمك. يصغي إلى مشكلتك ثم يطلب منك انتظار دورك. كنتُ ألتقي عنده دائماً سائقين يتذمّرون من خسارة أرباح ليلة كاملة، وهم في انتظاره ليصلح هذا وذاك.

الحمام في مرأب روب أقذر حمام على الإطلاق. عندما أدخله أترك نفسي بعيداً مسافة كافية عن التجويفة. سمعتُ يوماً قصة ديكتاتور كان في رحلةٍ إلى بلدته الأم. دخل الحمام في ساحة المدينة ليقضي حاجته، فوجده قذراً. استدعى أهل المدينة وطرد المختار. وقيل إن المختار وأهل تلك البلدة كانوا محظوظين جداً، لأنه لم يشنق أحداً منهم. أعتقد أن الطغاة يعرفون تماماً أن آخر ما قد يطلبه المحكوم عليه بالإعدام، ليس تلاوة صلاة، ولا تناول وجبة، إنما تحرير آخر قطرة بول لتجري إلى كاحله ثم ترسو بين أرجل الحشد.

الجمال

حين كنت أنتظر تصليح سيارتي، رأيتُ الـ٤٣ يروي عطشه

بمرطب على حافة الطريق. سألتُه عن مشكلة سيارته، فقال لي إن بوقها قد تعطّل. مازحتُه قائلاً: أنت محظوظ لأنك لست كبشاً(*) وليس عليك الإنجاب ذات يوم. ثم أخبرتُه عن لعنة السيدة، فقال لي: لو كنتُ مكانك لما أخذتُ المسألة باستخفاف. فابتسمتُ له وقلتُ: لقد قُضي الأمر باللمبة وأنا هنا لأغيّرها.

أسرع إلى سيارته، وأخرج منها قلماً، ثم قال لي: خذْ اتّصل بهذه المرأة، فهي ستبطل مفعول اللعنة. طويتُ الورقة وخبأتُها في جيب سترتي، وأنا لا أزال أبتسم له. أخبرني قصصاً ورواياتٍ عن قطط تدق بابك في الليل، وعن عناكب تتّخذ شكل إنسان، وعن مشعوذات لهن أذيال. كما أخبرني عن احتفالاتٍ بأقنعة، وسيقان دجاج، وسلاسل، ودماء.. طبعاً دماء، فهناك أضاحٍ.

- ماذا عن الجِمال والعمامات؟

غرق في الضحك وقال: جِمال؟ لا جِمال. عمامات؟ لا عمامات، يا رجل. فرجال العمامات لا يؤمنون إلا بالكتاب. حتى أنهم لا يحسنون الرقص كما نفعل نحن.

- لكنهم أساتذة في قيادة السجادات الطائرة.

زأر، وضحك، وضمّني إليه. ثم ذهب إلى سيارته، وأخرج

(*) لكلمة horn بالإنجليزية معنيان، البوق للسيارة والقرن للكبش. فلو أن الكبش فقد قرنيه لأصبحت فرصه في التزاوج أضعف.

حصيرة أرضها ومدّها على الإسفلت وقال: هيا اقعد عليها وطِرْ، أرني كيف!

فقلتُ: ذات يوم، سأريك كيف تطير السجادات.

ضحك مجدداً. ضحك وهو يمسك بكرشه ليضحك أكثر. ثم لوى نصفه الأعلى عبر النافذة ليرفع صوت الموسيقا، وراح يرقص حول المصابيح الأمامية. ثم تناول حصيرته مجدداً، ودخل سيارته وهو يصرّخ: «اتصل بالسيدة، اتصل بالسيدة قبل أن تصعد على سجادتك وتطير!» ضحك وانطلق في سبيله.

في اليوم التالي، اتصلتُ بالسيدة. فسألتني، عن المصدر الذي أتيتُ منه برقمها. قلتُ لها إن سائق تاكسي أعطاني إياه. قالت: «حسناً، فأنا أعمل فقط على أساس التوصيات». ثم أعطتني عنوانها وحدّدَت لي موعداً في الأسبوع التالي.

في الليلة السابقة لموعدي، قدتُ سيارتي إلى منزلها. كانت أضواؤه مطفأة، ففكرتُ أنها ربما كانت نائمة. لم تبلغ أنفي رائحة كلاب. لكن، حتّى لو كان هناك كلب، فأنا أعرف حِيَل مروّض الحيوانات لأجعل كلبها ينبطح أرضاً، ويتدحرج على ظهره ويذهب إلى النوم. قفزتُ إلى حديقتها وسرقتُ الأزهار من الفناء الخلفي. فتحتُ صندوق سيارتي وحمّلتُه بكل ما قطفتُ. ثم عدتُ أدراجي ورائحة الطبيعة تفوح من الخلف. كان نوعاً من التغيير المحبّب،

والناتج عن الرطوبة التي يجرها الناس بأقدامهم المبلّلة. رحتُ أتخيّل بأن لدي حديقة في سيارتي، وأن هناك بعض أشجار الصبير على لوحة العدّادات، تحمي ممتلكاتي من السارقين المحترفين، وأن بعض الأزهار تنبت من الراديو لتعمل كلاقط يعزّز الوضوح في التواصل بين الركاب وباقي العالم. وخلال فترة الاحتفالات، قد أسمح لنبتة متسلّقة بالامتداد لتغطي سيارتي بالخَضَار، فأساهم في إنقاذ الكرة الأرضية، وبالتالي إنقاذ الجنس البشري... يمكنني أن أزرع الفواكه... نعم الفواكه والخُضَر والأشجار... وإذا أجهدتُ نفسي قليلاً، سأشاهد ذات يوم مروجاً في مرآتي الخلفية... ربما ذات يوم...

عدتُ إلى المنزل، وصعدتُ إلى شقة زينب. عندما فتحَت لي الباب، قمت بإدخال ما سرقتُ من فناء تلك السيدة لأملأ غرفة جلوسها بالأزهار. راحت زينب تشمها وتضحك حتى غمرتها النشوة. وكلما أدخلتُ منها، وجدَت الأمر مفرحاً ومسلياً. وحين صار كل شيء في مكانه، ووصلَت مخيّلتي إلى ذروتها، وقفتُ في وسط المكان، وسألتُها إن كان باستطاعتنا، نحن الاثنين، أن نخلع ملابسنا للوقوف عاريين بين الأغصان، ونمارس لعبة الطبيب ولعبة بدايات الخلق.

- فقالت: قطعاً لا.

تتمتع المنجّمة بابتسامة عريضة. كانت تجحظ بعينيها كلما

حدّقت إليّ، كما لو كانت تقرأ ذهني. قلتُ في نفسي: هذه دجالة غير محترفة. لا بد أن يكون سائق التاكسي قد ضاجعها. لا بد أن يكون قد دلّ عليها يميناً ويساراً ليعوّض ما خسره في القمار، أو ليحصل بالمقابل على خدمة ما. من السهل توقّع ذلك!

سألتني المشعوذة أولاً إن كنتُ أريد دخول الحمام. هذه حيلة قديمة، أعرفها من أيام الغش الذي كنتُ أقوم به مع بيبس الساحر لنسلب الناس أموالهم. في ٩٥ بالمئة من الوقت، يجيبك الناس بنعم. وعندما يجيبون بنعم، يبتسم الدجال عادةً ابتسامةً باهتةً وكأنه يقول: نعم، كنتُ أعرف ذلك! والناس، بالطبع، يقولون نعم لأن السؤال يذكّرهم بكل ما يُحتجز في داخلهم. وأول ردات فعلهم تكون بتحريره. هذه الإجابة واردة في مناهج الاعتراف باللاوعي الفرويدي، والتركيبات السقراطية لاستخراج المعرفة، والسم المتقيّأ، والسائل الافتراضي، والانفجار الدراماتيكي للإدراك الفطري، والمعرفة الصوفية. فآخر قطرة قد تقودنا إلى إطلاق الحتمية الضعيفة، والتوليف المحتمل للبورسلين النظيف، ومسلك بحصة الكلى المؤلمة، واصفرار الغروب الرائع... فضلاً عن أن أولئك الناس هم على الأرجح قادمون من مكان بعيد، ويشعرون بضرورة قضاء حاجتهم. يحسبون أنهم قد يبقون محتجزين مدة ساعة تقريباً وجهاً لوجه مع المجهول، إلى أن يقوم الوسيط بجر الأرواح الميتة إلى الطاولة. أعتقد أن التبوّل ينير الأذهان أثناء التحضّر لمقابلة العالم الآخر، ومَنْ لا يتمنى السفر

بخفة؟ لذلك قلتُ نعم، وتابعتُ بحركة تنبئية ابتكرتُها بدوري قائلاً: لا تقولي شيئاً. أعتقد أن الحمام من هنا. ثم انزلقتُ برشاقة إلى حيث منبع المياه والحياة.

عند عودتي، أعطتني حجارةً صغيرةً لأحملها. «كل حجر كلّفني بضعة دولارات.. إنها نفيسة»، قالت لما اشتكيتُ من ثمنها. «أحجار كريمة»، ردّدت، ثم طلبت مني الصمت عندما بدأت تلف بعينيها. أمرَتني بالقبض على الحجارة جيداً وتابعَت قراءة الشاكرا، والهالة، وبعض الأشياء الغامضة والغريبة. عندما أغلقَت عينيها، ارتفع صوتي الداخلي، وبدأتُ التحدث بصوت امرأة عجوز: أين الأزهار يا فلورانس؟ من سرق أزهاري؟

فتحت عينيها، وقفزت في مكانها ثم قالت: ماذا قلت؟

فرفعتُ صوتي ليشبه صوت ميكي ماوس يعمل على الهيليوم وقلتُ مجدداً: الأزهار! من أخذ حديقتي؟

بقيَت المنجّمة بكماء للحظة ثم انفجرت قائلةً: من أنت؟

فأجبتها بصوتي القارض: النهم...

ثم تابعتُ: الجشع... الغضب... ولكن ليس البيغونيا... ولا الزنبق يا فلورانس!

فجأة فتحتُ عينَيّ على وسعيهما وسألتُها: «أين أنا». ثم وقفتُ، وبدأتُ أطوف حول الغرفة، فتحتُ الباب لأدخل غرفة نومها، وجلتُ

بين أثاث منزلها وكل ما تعرضه من كريستال وتصاميم صينية. تمدّدتُ على فراشها، وبدأتُ أرتعش وأحك نفسي.

صرخَت: عد إلى هنا. من أنت؟

صرختُ: أنا زالو من العالم الخارجي.

بدأتُ أتلاعب بالحجارة بين يدي، وأقذفها فوق رأسي، وعيناي مغلقتان. «إنه سيرك ما بعد الحياة»، صرختُ، «المشهد الأخير.. إنها القافلة المارة وراء كثبان الرمل.. حكمة المهرجين وجالبي النار وآكلي جهنم.. إنه التطور من قرد إلى شيطان.. إنها حبال من النار وعربات من النار.. إنه عنكبوتك الداخلي يلتف حولك ويضحي بك فوق خيم الآلهة المتنقلة... ووووهووهوووووو!».

ارتبكتْ. وحينها مددتُ يدي إلى فخذها، وقلتُ: افتحي التُويْجيّات ودعيني أتنشق رحيق الأزهار البنيّة.

صرخَت: اذهب، وإلا اتصلتُ بالبوليس. اذهب فوراً. اذهب... الآن. الآن! وراحت تصرخ بصوت أعلى... صرخات هستيرية...

رحلتُ. وعندما وصلتُ إلى أسفل الرواق بدأتُ أنشد أغنية «سكارليت بيغونياز»، التي تقول...

السفينة

في الأيام القليلة التالية، تحسّنَت الأعمال. فالمنظّمون والسيّاح

والبائعون كلّهم توافدوا بكثرة إلى المدينة ليشاركوا في الكرنفال. ومعظمهم كانوا بحاجة إلى التنقل، ذهاباً وإياباً، من الفندق وإليه، وفي مختلف أرجاء المدينة. من باب المشاركة في الأجواء الترفيهية العامة، ومن باب الحيرة والشك، رحتُ أتباهى أمام زبائني بأن سيارتي مصانة، لا تؤثر فيها الأحجار النفيسة، ولا دعوات الشؤم. فالحجارة المعلقة على لوحة العدّادات برّاقة ومفعمة بالحيوية. ومهما أسرعتُ وأبحرت وطرتُ فتلك السفينة التي هي ملكي لن تغرق يوماً لأنها مطوّقة بنوع من الشاكرا التي تردّ عنها عيون الحاسدين.

اعتقَدت امرأةٌ أنني مجنون. ورمت لي، عند إشارة حمراء، ورقة نقود ورحلت قبل أن أرد لها الباقي. وأراد أحدهم أن يصغي إلى قصتي. كم قهقه وردّد مطولاً: «أمرك مشوّق». وقهقه من جديد.

ركب معي رجل جال العالم، كان يعمل في منظمة غير حكومية. رجل زار البلدان الفقيرة ليرش عليها بعض الإعانات المالية. وخلال زياراته كان يدفع لنفسه، على ما أعتقد، بسخاء. أخبرني عن سائقه الخاص الذي كان يطوّق عنقه بقلادة، وينام مع العاهرات دون اللجوء إلى وسائل وقاية. لما حذّره زبوني من الأمراض التي يمكن أن تنتقل إليه، أراه السائق القلادة قائلاً: هذه ستحميني.

- قال لي: تماماً مثل سيارتك هذه. وها أنا اليوم أرسل إليه المال والأدوية. أعتقد أن القلادة فقدَت تأثيرها. يكفي مرة واحدة، لينتهي الأمر.

حين أوصلته، ربّت على كتفي وقال: احمِ نفسك، ولا تؤمن بالأحجار. ثم رحل.

التقيت زينب وهي تهبط الدرج، فقلتُ لها إنني في انتظار ابتسامتها ليشرق صباحي. سألتُها إن كانت تحمل غداءها، إن برت أقلامها، وإن كانت بحاجةٍ إلى صديق ليرافقها إلى المدرسة.

سألتني وهي تبتسم: هل تحاول مغازلتي؟

- يمكنني أن أحمل لكِ الكتب إلى محطة القطار!

- لا حاجة إلى ذلك. سأمشي وحدي إلى محطة القطار.

- ليتك تتأخرين عن موعد القطار. هكذا تتاح لنا فرصة الركض وراءه، والتلويح بأوشحتنا تماماً كما في الأفلام الهندية القديمة. ثم اقترحتُ عليها أن نصعد إلى شقتي لأُريها بعض الكتب.

- سأستعير كتبك، لكنني لن أدخل شقتك.

- آهٍ من خوف المؤمنين!

- آهٍ من أحلام الكافرين. قالت، وهي ترمقني بنظرة سريعة كلها تحدّ.

- من القساوة ألا يعرف المؤمن الرحمة.

- ومن الغرور أن يأمل الكافر بأعجوبة. قالت مبتسمة.

- ومن الخطيئة ألا يعطي الأتقياء...

- ومن الخيبة أن يأمل الوثنيون! هل من شيء تخبرني به؟ أضافت، ونحن نتبسّم.

- فعلاً. بالحديث عن الأرواح التائهة وغيرها، مررتُ الليلة الماضية بمقهى بوليرو، حيث يجتمع السائقون ليتناولوا الطعام بين مناوبة وأخرى، ويغزلوا القصص والروايات المتبجّحة. الرقم ٥٥ رجلٌ تقيّ يخاف اللّه وقوانينه، وصله نداءٌ من المراسل ليقلّ سيدةً من أمام السوبر ماركت. طلبَت منه السيدة العجوز أن يحمل لها بقالتها إلى السيارة. فحمل الأكياس، وحين وصل إلى صندوق البيرة، رفض لمسه. قال إنه لا يلمس الكحول، أكانت مختومة أم مفتوحة. فانزعجَت المرأة، وطلبَت منه أن يخرج البقالة من صندوقه، وأن يطلب لها سيارة أخرى. لكنه رفض أن يقوم بذلك أيضاً، خوفاً من أن يكون في أحد الأكياس لحم خنزير أو أي نوع آخر محرّم.

حاولَت العجوز رفع الأغراض بنفسها، وادّعَت عندئذ بأنها أصيبَت في ظهرها بأذى. ستتم محاكمة كل من المالك والسائق. فالسيدة العجوز ثرية وستكلّف محامياً لامعاً بالقضية. انظري في الصحف حيث انفجرَت أخبار القضية! لاحظي كيف يسيل لعاب أولئك الصحفيين متى جيءَ على ذِكْر الإسلام. فالإرهاب، والبرامج الصباحية، والصراع بين العلمانية والدين، والممثلون الارتجاليون، والمهرجون بأكياسهم الورقية، كلها أمور باتت مُبالغاً فيها إلى حدّ الانفجار ضحكاً.

- فما رأيكِ بهذا يا زينب؟

- لا مشكلة لدي مع الخمرة. أنا مسلمة وأشرب.

- نعم، استنتجتُ ذلك. ولكنني أريد أن أعرف رأيك.

- من الواضح أن فهم الرجل للنص محدود وحرفي.

- أتعنين بذلك أن فهمك له متعدّد المستويات.

- نعم، يمكن فهم النص بمستويات عدة.

- العرفانية بالنسبة للقلائل.

- ليس للأقلية، بل للراغبين والمؤهلين.

- الحصرية! السرية التامة! التأويل المتقلّب والمتحوّل القابل للتكيّف. حتى الأكثر تحسُّساً في الآيات يجب التسليم به على أنه رمز لأمر حكيم وعظيم.

- بالضبط.

- لكن، يا جارتي العزيزة زينب، ما رأيك في بعض التصحيح بقلمٍ طويلٍ يطال جميع القارات والأماكن الأخرى؟ قد يكون ذلك القلمُ الطويل اختراعاً مذهلاً للمحامين والكتّاب على السواء.

- لا. لا حاجة إلى التغيير. كل ما نحن بحاجة إليه هو قراءة الآيات ضمن سياقها الخاص.

فسألتها: فإذاً هل يجب أن ننتقل بالحديث من الحرفي إلى الشاعري، إلى المجازي، إذا دعت الحاجة؟ يجب تغييره حين يكون الوقت ملائماً، والإبقاء عليه حين لا يكون كذلك.

فأجابتني: انظر إليه وكأنه تحدّ فكري، تمرين منطقي وخيالي.

تمتمت: استمناء فكري.

- ماذا قلت؟

- قلتُ فلنتعامل مع كل هذه النصوص المقدسة على أنها قصص وروايات، وعيوب قد تثيرنا لنقذف الدموع والمني.

- هل قلتَ قذف؟ سمعتُك جيداً هذه المرة!

- بعد التفكير، هذا ما هو عليه. قذف فكري.

- يجب أن أذهب فتلميحاتك الجنسية أصبحت طفولية. سأتركك مع أفكارك الذهنية... ورسمَت بأصابعها علامات الاقتباس. دعني أسألك يا فلاي، هل حملتَ يوماً مسؤولية ما؟ هل فكّرتَ يوماً في الاستقرار، في التخلي عن كيانك المنحرف، في إدخال أحدٍ إلى حياتك... في امتلاك كلب... في إنجاب ولد؟

- لا، طبعاً لا. لمَ أنجب أولاداً، لأتركهم بين يدي هذا العالم المضحك؟ والآن يا زَينب، بعد أن تأخّرتِ فعلاً، وقد فاتك القطار حتماً، يمكنني أن أتخيّل الممثل البوليوودي وهو يودّع ملوّحاً بوشاحه. دعيني أرافقك وأخبرك عن الراقصين الهزّازين الذين

عرضوا أن يتبنّوني بعد وفاة أمي. فرجال الكهنوت كانوا قد نذروا ألا ينجبوا أولاداً ويجلبوا أرواحاً أخرى إلى هذا العالم المنحط. لذلك تكوّن مجتمعهم من يتامى، كبروا مع الوقت ليصبحوا راقصين أو رجال دين. كانوا مسيحيين، إلا أنهم تأثروا بالغرب... بالديونيسوسيين، أو البوذيين، أو الزرادشتيين، أو الصوفيين. من يدري؟ في أعمق الأعماق، أشك في أنهم يعتقدون بأن هناك إلهاً أقل شأناً يحكم هذه الأرض، وبأن أجسادنا غير جديرة بأرواحنا، وبأن النور الذي في داخلنا يجب أن يُعتق في مكانٍ آخر، وليس في هذه الزريبة التي نعيش فيها. على كل حال، بعض هؤلاء الهزّازين كانوا يُعرفون بالراقصين الهزّازين، لأنهم كانوا يرقصون ويرقصون دون توقف.

تعوّد السيرك أن ينظّم الاستعراضات فور وصوله إلى بلدة جديدة. وكان الهزّازون أول المدعوين إليه. فالسيرك دائماً في موضع اتهام من قِبَل الكنيسة التي تعتبره وكراً للخطايا والانحطاط والأعمال الشيطانية. لذلك فكّر مدير الحلبة بأن دعوة الهزّازين إلى السيرك قد تساهم في تشريعه قليلاً.

عزف الغجر، ورقصنا كلنا حول النار. ثم اقترب مني هزّاز يرتدي معطفاً طويلاً، وأمسك يدي الصغيرة، وقذفني إلى يد هزّاز آخر. عندما توقفَت الموسيقا، همس الرجل في أذني: تعالَ معي يا صغير، سأنقذك من كل هذا. خفتُ وركضتُ أختبئ بين القرود

والكلاب إلى أن حضرَت السيدة الملتحية وقالت: لا أحد سيأخذك منا. فبكينا، وداعبنا الكلاب، وحملنا القِردة الصغيرة بين أذرعنا.

- وما كان مصير هؤلاء الهزّازين؟

- سررتُ بلفت انتباهك. لم أعلم أنك مغرمة بالراقصين إلى هذه الدرجة، يا زينب. حسناً، سأجيب عن سؤالك: الإبادة والاضمحلال! تغيرت قوانين الحكومة، فلم يعد الراقصون الهزّازون قادرين على التبني. تراجعَت أعدادهم في المجتمع تدريجاً إلى أن تحققَت أمنيتهم. وكما تعلمين، هذا العالم المنحط قائم على التناسل، فمن يقطعْ حبل التناسل يمتْ. يمكنني أن أعيرك كتاباً عن هذا الموضوع، قد يفيدك كثيراً في أطروحتك. لا ضرر في ربط كل هذه المعتقدات الدينية بنقطة انطلاق واحدة مضلّلة: الخوف وخيبة الأمل... لكنني أعرف أن شخصاً نقياً ومثقفاً مثلك سيقاوم دخول عالمي المظلم.

- علَيّ الذهاب، يا فلاي.

- انتظري، دعيني أرافقك لأخبرك عن الفرع الآخر لهؤلاء المسيحيين المهرطقين المنقرضين. فأمرهم قد يهمك أيضاً. هؤلاء كانوا يُدعون الكاثار، وفي بعض المجتمعات كانوا يعتبرون لوطيين. قيل إنهم رفضوا ممارسة الجنس المهبلي، كانوا يمارسون الجنس من الخلف على اعتباره طريقةً بديلةً لمنع الحمل. إنها طريقتهم في تشويه قدسية الجسد، والحرص على عدم جلب

أرواحٍ أخرى إلى هذا العالم الزائف المنحط. لكن طقوس عربدتهم كانت صاخبة وعظيمة. لاحظت كيف تشوّه الديانات الجسم البشري؟

- ليس كل الديانات. فالإسلام مثلاً لا يواجه أي مشكلة مع الجسم البشري. في الواقع، الجسم في الإسلام معزّز، ومنظّف، ومحبوب.

- ومخفي.

- حسناً فهمتُ ما تلمّح إليه، يا فلاي. ربما علينا أن نضع حجاباً أيضاً على هذه المحادثة، أقول ذلك وحياً من تلميحاتك. ولكن بعد ذلك... توقف، هذا يكفي يا فلاي، يجب أن أرحل الآن. لا أريد أن يفوتني القطار مرة أخرى. أرجوك اصعد إلى شقتك ونمْ قليلاً. لا شك في أنك تعب من كثرة القيادة طوال الليل. اذهب وارتحْ، فذهنك مشوّش. وسأسمح لنفسي أن أقول إنك تبدو مضلّلاً بعض الشيء.

هكذا تركتني زينب واقفاً على الطريق. رحتُ أراقبها تركض باتجاه محطة القطار، كان شعرها لا يزال رطباً، وكانت تحمل حقيبةً على كتفها.

المرآة

كنتُ على وشك أن آوي إلى الفراش عندما اتصلَت ماري بي.

قالت إنها ستترك منزل زوجها، وسألتَني إن كنتُ قادراً على ملاقاتها. فارتديتُ ملابسي مجدداً، ونزلتُ إلى المرأب لأخرج سيارتي.

حين وصلتُ إلى منزلها، وجدتها تنتظرني في الخارج، وهي تحمل حقيبةً صغيرة. كانت تبكي. صعدت إلى المقعد الأمامي، ورحنا ننظر في المرايا إلى زوجها. كان يقف على الباب ويدخّن، مراقباً زوجته وهي ترحل.

- كان عليَّ أن أجلس في الخلف.

- لا أعتقد أنه سيتذكّرني... إلى شقتي؟

- أفضّل أن أحجز غرفةً في فندق. لكن هل يمكننا أن نذهب أولاً إلى شقتك لنختار بعض الكتب؟

اتجهنا مباشرةً إلى شقتي. انتظرتني في السيارة حتى عدتُ إليها بكيس مليء بالكتب. ثم أخذتها إلى فندق صغير في وسط المدينة. حين سألتُها لمَ لمْ تقضِ الليلة معي، قالت لي إنّ عليها أن تتعوّد البقاء وحدها. وصلنا إلى الفندق، فرافقتُها إلى غرفتها. أخرجتُ قنينة ويسكي جلبتُها معي من البيت، وتركتُها لها على الطاولة إلى جانب كيس الكتب.

- هل تريدين طعاماً؟ سألتُها. فهزت رأسها بالنفي.

- هل أتصل بك لاحقاً؟ سألتُها مجدداً.

- إذا أحببت. وبدأت فوراً بالبكاء.

في طريق العودة، نقلتُ راكباً كان يقف أمام فندق كبير، بعد أن استوقفني بوّابه. تفاجأتُ لأن كل تلك الفنادق الفخمة غالباً ما تكون متواطئة مع سائقين عناكب ضمن شبكة كبيرة من الراشين والفاسدين. فالبوّابون وموظفو الاستقبال هم أساس تلك الشبكة. وحين يطلب زبون منهم سيارة تاكسي للذهاب إلى المطار - وهذه رحلة أجرتها سخية - يُعلم موظف الاستقبال البوّاب بذلك. فيقوم البوّاب بالاتصال بمراسل، وهو أيضاً فرد من هذه الشبكة، ليحوّل المراسل الطلب إلى أحد العناكب المتواطئين، فيقل هذا الأخير الزبون إلى المطار. هكذا يحصل السائق على الجزء الأكبر من الأجرة، ويتقاسم الباقون ما تبقى منها. هناك عدد لا بأس به من العناكب يلقون صنانيرهم في معظم فنادق المدينة الكبرى، إن لم يكن فيها كلها. وهؤلاء يجمعون أموالاً طائلة. في قليل من الأحيان، يكون العنكبوت المتواطئ مشغولاً، أو يتأخر في الوصول، فيضطرّ البوّاب إلى استيقاف تاكسي طيار. وهذه المرة اختارني الحظ لأكون ذلك الطيّار.

أوقفتُ السيارة، وتركتُ البوّاب بلباس شارلوك هولمز، يفتح باب سيارتي للزبون. وأنا أحمّل صندوقي بالحقائب، اقترب هولمز مني، حاجباً الرؤية عن الفندق، وفتح كفّه على وسعها. بقيت يده على حالها، ممدودة، إلى أن أمسكتُ كفه المفتوحة بيدي وقلتُ له: قديمة يا عزيزي، قديمة.

أغلقتُ الصندوق، وعدتُ إلى مقعدي، وانطلقتُ بالزبون. كان مقلّاً في كلامه، فرحتُ أحدّثه عن المطر.

- المطر لا يزعجني، قال. أنا أخشى التعرّق.

- طبعاً، طبعاً، فهمتُ قصدك. ليس بدافع الفلسفة، لكنني أوافقك الرأي: المهم ما ينبع من الداخل.

- أنت تقول فلسفة وأنا أعتبر تعليقك من وحي الدين.

- تعليقك مشوّق.

- يا يسوع.

- يسوع؟

- ألم يرد في «متّى» ١٥: «لَيْسَ مَا يَدْخُلُ الْفَمَ يُنَجِّسُ الإِنْسَانَ، بَلْ مَا يَخْرُجُ مِنَ الْفَمِ هذَا يُنَجِّسُ الإِنْسَانَ». قال الرجل الذي كان يجلس على مقعد سيارتي الخلفي، بكل فصاحة.

قلتُ له: حسناً، يا لك من ثائر. إن كل ذلك الطعام المبارك المختار بدقة والمحضّر بعناية، يذهب إلى هناك، إلى أسفل الصرف الصحي. يا له من مصلوب شيوعي فوضوي.

- هل أنت مؤمن يا صديقي؟ هل تؤمن بالرب يسوع، الملك المخلّص؟

- في الحقيقة، أنا لا أتحمس كثيراً للملوك والأسر الملكية... ولكن هل يؤمن يسوع بنفسه؟

- يسوع يؤمن بالآب وبالروح القدس.

- والآب يؤمن بأبيه وهلمّ جرّا، تمتمتُ، وأنا أتخيّل شجرة عائلة لامتناهية من الآباء بالمعمودية، والأجداد، وجيش من الأنبياء والأرواح المقدسة المترجّحة صعوداً ونزولاً بين الأغصان، كلهم يصفقون بأيديهم خلال عروضهم البهلوانية التي، بطريقة أو بأخرى، ستنتهي كالعادة ببقايا مكسّرات وقشور موز.

- هل أنت متزوج يا أخي؟

- كلا.

- ألديك صديقة؟

- أبداً.

- لست واحداً من أولئك، أم أنت كذلك؟

- أتقصد لوطياً؟ لا، ليس بعد.. لكن قارئة المستقبل أكدت لي أن أحوالي قد تتغير بين لحظة وأخرى. آمل أنها كانت تقصد الناحية الدينية.

- هل فكّرتَ يوماً في تأسيس عائلة وإنجاب أولاد؟

- كلا.

- هل فكرتَ يوماً بما ستصبح عليه وأنت عجوز؟

- نعم، لقد خطّطتُ لذلك.

- ألا تخشى أن تقضي سنيّك الأخيرة وحيداً؟

- لا، طبعاً لا، أتخيّل تماماً كيف سيكون الأمر، هذا إذا حالفني الحظ. عندما أتقدم في السن، سأبيع الكتب، وأقدّم سريري إلى جيش الخلاص. في ذلك الوقت، سيكون لي كرش كبير لإفراطي بشرب البيرة وقضم أظفاري. سأشتري تذكرة ذهاب فقط إلى جزيرة قديمة في الجنوب لأعيش وسط سكانها المحليين مع القليل من المال الذي جمعتُه. سأقضي أيامي وأنا أخضع لحمامات شمس وأحتسي الكحول إلى أن يبدأ نظام البانانا بملاحقتي، أو بملاحقة نفسه، عندما لا يجد أمراً آخر يلاحقه.

- عليك أن تتزوج وتنجب أولاداً، عندئذ ستعرف المعنى الحقيقي للحياة. مَن سيهتم بك ويزورك عندما تكون مريضاً وعجوزاً؟

- الخادمة وأمها. الصبية الجنوبية التي سأختارها زوجة لي. كما قلتُ لك، لقد خططتُ لكل شيء. سأساعدها وأساعد أفراد عائلتها. سأساعد أخاها المقامر، وأباها الذي سيصبح، عرَضاً، خصمي في لعبة الدومينو، ذلك الذي سيسخر من سنّي كل مرة يفوز فيها علَيَّ، ويناديني بابا توركو. سأكون أفضل صديق لأمها التي سأتّفق

معها على تفاصيل الزواج، والمطبخ، والشيخوخة. سأحرص على أن تكون الثلاجة مليئة دائماً بالطعام، وأن تدخل ملاءات السرير الناصعة البياض بين الحين والآخر الغسالة. تلك التي سأشتريها لزوجتي الشابة في عيد ميلادها. زوجتي التي فقدَت زوجها الأول في قافلة غير شرعية كانت تجتاز المدينة إلى الشمال، والتي حام خطر المجاعة حولها، وحولَ صغيريها، إلى أن وصلتُ إليها آتياً من القطب الثلجي مع كلبي رودولف، لأنقذها من الفقر وأوفّر لها حياةً آمنةً مقابل رفقة طيبة، ووجبات لذيذة، وسلوك متسامح تجاه ثديَيّ المترهّلين إثر تقدمي في السن، ووسطي المختفي تحت كرشي الهابط من ثقل البيرة، وكما ذكرتُ لك سابقاً، من أظفاري المقضومة... وهذه الرفقة يا صديقي ستكون أحلى رفقة يحلم بها أي سائق سيارة أجرة متقدّم في السن على الإطلاق. يا لهذه النهاية العظيمة، سيدي! يا لهذه المكافأة على حياةٍ صعبةٍ تقضيها بين الوحدة والترحال. تخيّل أن بإمكاني الجلوس كل يوم على الشاطئ، لأمتّع نظري بالبحر، وأستمتع بالنسيم الذي تلطفه الملاءات البيضاء المغسولة المرفرفة خلف ظهري. أتمدّد على الرمال، وأراقب قوارب السيّاح المارة والكأسُ بين يديّ. سأظهر قبالتهم في ملابس سباحةٍ مضحكةٍ تغطي أجزاء جسمي المتحلّل المكوّمة. وإذا حالفني الحظ، سأموتُ وأنا أراقب المحيط على خلفية شاشة بيضاء تجمع نبذاً من ذكرياتي، وتُعيد بعض الوقائع من حياتي لتنعكس على ملاءات السرير المغسولة، وهي ترقص على وقع مصائب الحياة المتمردة.

- ما زلتُ أعتقد أن من الأفضل لك أن تتزوّج وتستقرّ.

هكذا قال الراكب من خلفي، وأنا أقود وأراقب الطريق وحبال المطر، وأستمع إلى صوت تمايل المسّاحات الرتيب. الإيقاع نفسه والرقصة نفسها؛ تمايل الحوض نفسه بعد العشاء، بين استراحات نشرة الأخبار المسائية وترنّح فرشاة الأسنان في آخر اليوم. المفاتيح نفسها؛ الفطور نفسه، وعبارة «جرس الباب يرن يا حبيبي» نفسها؛ الكلب نفسه بتمايل ذنبه الرتيب وهو يستقبلك بعد أن تطفئ محرك سيارتك فوق بقعة الزيت نفسها على الأرض نفسها في المرأب نفسه.

وصلنا إلى المطار. كان المطر قد توقّف، والمسّاحات قد ارتاحت.

أنزلتُ حقائب الرجل من صندوقي. فدفع لي، وتبادلنا السلام بالأيادي. وفي اللحظة التي كان سينعطف فيها ويرحل، قال لي:

- حظاً موفقاً في وجودك الوحداني. ولكن تذكّر يا بني، أن طريق الرب دائماً سالكة.

- مع السلامة، أجبتُه. أتمنّى لكلينا رحلة موفقة قبل أن نرتاح إلى الأبد بين الأزهار، في مدار الديدان الجائعة.

رحل الرجل فعدتُ إلى المدينة سائراً في شوارعها المهجورة. لقد استمتعتُ فعلاً بتلك الرحلة المميّزة تحت الغيث المنهمر.

اتّصل التاجر بي في الشقة. وحين أجبتُ اكتفى بالقول: نحن على موعد الليلة.

انتظرتُه مرة أخرى. نزل وهو يضع على عينيه نظارة شمسية على الرغم من أن الوقت كان متأخراً. دخل السيارة وجلس هادئاً على المقعد الخلفي. راقبتُه في المرآة، وانتظرتُ تعليماته، فلوّح لي بيده.

قدتُ مباشرةً إلى الأمام. عندما وصلنا إلى نهاية الشارع، قال: «يساراً ثم يميناً، ثم إلى الأمام نحو منطقة المرفأ». لم يكن ثرثاراً في تلك الليلة. ولاحقاً قال: سأدعك تذهب باكراً الليلة. إنه مجرد اجتماع.

- وصلنا.

- حسناً، اركن السيارة هنا خلف الحاوية.

انتظرنا ونحن ننظر في المرآة الخلفية. فوصلت سيارة كبيرة من الخلف وتوقّفت إلى جانبنا. كان في داخلها رجلان. حاولتُ ألا أنظر. فكّرتُ: «كلما اطّلعتُ أقل على ما يجري، حميتُ نفسي من المخاطر».

- ابقَ هنا، سأعود.

أطفأتُ المحرك، وفتحتُ كتاباً أقرأه. لكن الضوء كان خافتاً، ولم أشأ أن أشعل الضوء الداخلي. الحذر وغريزة النجاة جعلاني أتقبّل الظلمة وأرحّب بها. سأنتظره خمس عشرة دقيقة، وبعدها

سأرحل. كانت ليلة مظلمة، فالقمر محجوب عن الرؤية، وثمّة حاجز بين سيارتي والنهر. ليس من عادتي أن أستمع إلى الراديو، كما أن تشغيله قد يصرف بطارية السيارة عندما لا يكون محركها شغالاً. لكنني أعرف عناكب يمضون حياتهم وهم يقودون سياراتهم ويستمعون إلى تلك البرامج الحوارية. ومع الوقت، إذا حصل وأمضوا سنوات طويلة على هذه الأرض، يبدأون بالتذمر من الغرباء أمثالهم، ومن الكسالى، ومن مبذّري أموال الدولة. وعلى الرغم من أنهم لا يدفعون أي ضريبة، إلا أنهم يتقدمون مثل أي مسدّد ضرائب هائلة أو مثل الرجال العَجَزة الذين يختبئون وراء مظلات كبيرة، ويعتبرون أنفسهم غير معنيين بحجة أنهم خاضوا حروباً قديمة، وقدّموا نصف ثرواتهم للأمة والبلاد. يا لهم من مهرجين، أولئك السائقون. يعجبهم سماع تلك الأصوات داخل رؤوسهم.

ذات مرة، في مقهى بوليرو، وقف الـ١١٥ وأمسك بالهاتف العام الموجود في الرواق قرب الحمام، وظلّ يطلب الرقم إلى أن نجح بالاتصال. رفعَت النادلة الصوت وصمت كل من في المقهى. قامت المُتَّصَل بها، وكانت فتاةً صغيرة، بمقاطعة الـ١١٥ مصحّحة له إنجليزيته، لسؤاله من أين يتصل؟ تابعت قائلةً: اعتقدتُ أنك تتصل من الهند يا صاح. كيف سمحوا لك بالدخول. فضحك الجميع واعتبروها نكتةً موفقة، أما أنا فتركتُ المطعم، وجلستُ في سيارتي باكياً.

شعّ نور من خلفي. اعتقدتُ أملاً أن التاجر قد عاد ليقطع علَيّ أفكاري. لكن رجلاً، في ثياب حارس، دقّ نافذتي. كنتُ قادراً على رؤية هيكل شريكه في مرآتي، وهو يقف خلف سيارتي من الجهة الثانية. فتحتُ النافذة ببطء وأنا أحرص على أن يرى يدَيّ الاثنتين على المقود.

- ماذا تفعل هنا؟ إنها أملاك خاصة.

- أملاك مَنْ؟ سألتُه من دون سبب.

- أملاك لسلطة المرفأ. هناك إشارة في الخلف. لا يُسمح لأحد بالدخول بعد الثامنة مساءً.

- حسناً، أعتقد أن الإشارة غير مضاءة وإلا لكنتُ رأيتُها بوضوح.

- أنت تعتدي على ممتلكات الآخرين. أعطني رخصتك ووثيقة التسجيل من فضلك.

كنتُ قد أعطيتُه رخصتي حين توقفَت سيارة أخرى إلى جانبي. فخرج التاجر منها، ومشى صوبنا، وقال للحارس: إنه معي.

أعاد حارس الأمن أوراقي لي فوراً، ودخل التاجر السيارة. وأنا أستعد للانطلاق، طلب مني التاجر الانتظار قليلاً. أنزل النافذة وقال: «الخميس». فأومأ الحارس إليه وابتعد.

فريداو

حين كنتُ أعيشُ مع أوتو وعائشة، كانت ليندا تتردّد عليهما باستمرار. وكانت تجلب تامر معها، وتتركه يقضي الليلة عندهما. وأحياناً، كان يبقى عندهما أسبوعاً أو أكثر. كان تامر صبياً هادئاً، ورضيّاً نادراً ما يشتكي. بدا في ذلك الوقت وكأنه لا يمانع في أن يكون محاطاً بأناس جدد. عندما ترحل أمه عنه، كان يتبعها بنظرات محدّقة إلى أن تختفي، وينظر بعد ذلك باتجاه آخر. جعلتُه مرة يضحك وأنا أحوّل نفسي مهرجاً. تلاعبتُ وقتها ببعض الكرات، وترجّحتُ على حافة الكنبة وفي يدي مظلّة. سحبتُ نقوداً معدنية من أذنه، وغنّيتُ له والمياه في فمي. فضحك وطلب المزيد.

ذات يوم، ذهب أوتو يبحث عن ليندا في الشوارع لأن تامر كان يعاني حرارةً مرتفعة ويطالب بسريره وأمه. هكذا تعرّف أوتو إلى قوّاد ليندا، فريداو، الآتي من أنغولا، والذي يدّعي بأنه كان فتىً عسكرياً للحزب السياسي يونيتا، وبأنه شارك في تحرير أنغولا من البرتغاليين.

سرعان ما قرر أوتو أن يحدّث فريداو عن مساعدة ليندا في تكاليف مدرسته وفي شراء كتبه وملابسه.

فقال له فريداو، عندما كانا يجلسان ثملين تحت الجسر، على ضفة نهر المدينة: اسمع يا أوتو، نحن، الزنوج المساكين، عرفنا أسوأ

أنواع الاستعمار عندما كانت أرضنا مستعمرة برتغالية. الفرنسيون قدّموا لنا بعض الثقافة، والبريطانيون قدموا القوانين، لكن البرتغاليين لم يقدموا شيئاً. على العكس، عندما رحلت تلك القذارة عن أرضنا، أخذَت معها كل شيء حتى آخر لمبة في المصانع، وآخر ضوء نيون في المحالّ. بعد ذلك أتى الكوبيون، وهم لم يأتوا مستعمِرين...

ابتسم فريداو وأضاف: عندئذ باشرتُ مهنتي، كنتُ أوفّر النساء للجنود الكوبيين. هكذا تعلمتُ مهنة القوّاد، وضحك. كل جندي بحاجة إلى سلاح وطعام وامرأة مهما كان الثمن. ونساؤنا كن على استعداد لتقديم أجسادهن إلى أولئك المحاربين لأن الكوبيين بنوا المدارس لصغارنا، وأرسلوا الأطباء إلى مرضانا، كما أرسلوا إليهم الأدوية والمياه النظيفة. وماذا ترك المستعمرون الأوروبيون وراءهم بعد قضاء مئة عام في تدمير قارتنا وطحن عظامنا؟ لا شيء.

بعد أن أنهى فريداو حديثه المتبجّح، حدّق أوتو مباشرةً إلى عينيه وقال بهدوء: الولد يسأل عن أمه، وهو بحاجة ليعود مجدداً إلى المدرسة.

- وأم الصبي تعمل باستمرار. تعمل من أجل القضية. قال القوّاد ضاحكاً.

ذات يوم، عادت عائشة إلى البيت، وسألت أوتو: ماذا ستفعل يا أوتو؟ إلى أين سنصل بهذه الحال؟

- سأهتم بكِ دائماً وأرعاكِ حتى النهاية. قال أوتو وغمرها بين ذراعيه.

بعد ذلك، قام أوتو بأعمال كثيرة. عمل بائع أحذية وموظفاً في مستودع. عمل أيضاً في خدمة توصيل الطعام الصيني، وباع القمصان القطنية في الشوارع، لكنه بقي مناضلاً في الليل. كان يكتب بطريقة شرسة، مطالباً بمنازل عامة، معترضاً على النمّامين الجشعين. كتب بعض الروايات، لكن عائشة لم تقرأ سوى بعض منها، وذات يوم قالت له: «عزيزي أوتو، أنت لست «بالدوين»، أعتقد أن عليك أن تعتمد البروباغندا». ثم غرسَت أصابعها في خصل شعره. قام أوتو بنشر بعض مقالاته في صحف غير تقليدية، وفي كراسات الحركات الناشطة، وألقى خُطَباً في المظاهرات.

في أواخر ساعات الليل، كنا، أنا وأوتو، نجلس قرب النافذة، ونستمع إلى خطب ستوكلي كارمايكل القديمة، نشغّل شريط «بلاك بانثرز»، وندخّن. وقبل المظاهرات والاجتماعات، كنا نملأ الدلاء بمياه ساخنة، ونصب فوقها النشاء تدريجاً، ونمزجها جيداً لنصنع منها معجونة صفراء لاصقة. وكنا نحمل المنشورات في حقائب على ظهرنا، ونمشي في الجوار بالدلاء والفراشي، ونلصق على الأعمدة الكهربائية المنشورات بالمعجون الذي صنعناه في البيت، وكنا نغطي الجدار والمباني مطالبين بالعدالة والثورة.

ذات ليلة توقفَت سيارة شرطة خلفنا دون أن نشعر بها. وفي

اللحظة التي كانوا سيمسكون بنا، ضغطوا على مصابيحهم. كنتُ قد تعوّدت الأضواء الساطعة في عروض السيرك، وقوة الإضاءة على خشبة المسرح، لذلك تمكنتُ من القفز فوق السياج والفرار إلى الباحات الخلفية للمنازل المجاورة. لكن أوتو، ذلك المخلوق المناضل الليلي، جمد في أرضه مثل ظبي متسمّر وسط الطريق. بدأ الشرطيان بنزع الملصقات عن الحائط. وبدل أن يهرب منهما، راح يعترض ويركل برجله أحد الدلاء، فارتطم بسيارة الشرطة، ولطّخ سطح محركها بالغراء. عندئذٍ دفع الشرطيان أوتو إلى الظلمة، وأبرحاه ضرباً بالعصا، ثم تركاه على الطريق وحيداً فاقد الوعي. «هذا لأنه وسّخ حذائي»، قال أحد الشرطيين وهو عائد إلى السيارة.

عندما أدركتُ أن أوتو بقي وحده في الخلف، عدتُ راكضاً إليه. فوجدتُه ممدّداً على الأرض. اقتربتُ منه وحاولتُ مساعدته على الوقوف. كان قميصه ملطّخاً بالدماء، وعيناه غائرتين من الفزع. هسهس، وبصق سائلاً أحمر، ولعن: «شرطيان لعينان، شرطيان خنزيران». ثم مسح الدماء عن وجهه وقال: «لم ينتهِ الأمر بيننا...».

واظبَت عائشة على عملها مع النساء المعنَّفات، والصغار المتشردين، والمستأجِرين المطرودين من منازلهم، إلى أن جاء يوم، لم يكن بعيداً عن حادثة أوتو، وانهارت فيه. «لقد احترقنا»، قالت باكيةً. «حان الوقت لنرتاح» فقرّرنا أن نفترق.

رحل أوتو وعائشة عن المنزل وعن الحي، وذهبتُ أنا في سبيلي. لقد أجّلا موضوع النضال بعد أن وجدا نفسيهما متقدّمين في السن، ومعدمين من دون قرش، وبعد أن أدركا أن رفاقهما تخلوا عن القضية، وتزوّجوا، وتوظّفوا، وصار لديهم أولاد يربونهم. قالت لي عائشة إنهما يريدان الاعتناء بأنفسهما، فتفهمتُ ذلك. ثم بكَت وأخبرَتني أنهما يحبانني بصدق.

في السنوات التالية، رحتُ أجول وحدي، إلا أنني بقيتُ على اتصال بهما. نادراً جداً ما كانا يأتيان ليقضيا معي فترة أسبوع أو أكثر. بقينا نتحدث عن الكتب، والموسيقا، كما تحدثنا عن الأيام الغابرة. ذات مرة ذكرا أمامي تامر وأمه المضطربة. رحلا بعدها، ولم أسمع عنهما شيئاً إلى أن جاء يوم، واتصل بي أوتو، وطلب مني أن ألتقيه في المستشفى. كانت عائشة ممدّدة على سرير منفرد. بدت لي ضعيفة جداً وأكبر بكثير من سنها. بالكاد تعرفت إلَيّ. أمسكتُ بيدها وبكيتُ. ثم نظرتُ إلى أوتو وقلتُ: «سامحني لأنني أبكي». فقال لي: «كلنا نبكي».

بعد موت عائشة، انسحب أوتو من الساحة لفترة، لم يرَه فيها أحد. كنتُ أتصل به دائماً، لكنه لم يتصل بي يوماً إلى أن ظهر فجاةً على بابي، بلحيته وست قناني بيرة في يده. قال: «سأقضي معك فترة قصيرة». كان ينام في سريري وأنا أعمل ليلاً. وفي الصباح، كنتُ أوقظه لأستعيد السرير وأنام، وكان هو يجلس في المطبخ ليدخن

ويشرب القهوة حتى الظهر. ثم يأكل قطعة خبز ويرحل، فتبقى الشقة فارغة لساعات قليلة.

ملأ أوتو طاولة المطبخ بالملفات والكتب الأدبية. كان يجلس هناك ويؤلف، وينقل، ويدوّن ملاحظات. استعار كتباً من مكتبتي وقرأها، وطوى صفحاتها، وسطّر مقاطعها. وعندما سألتُه ما الذي كان يعمل عليه قال: أنا أجمع قائمة من أسماء الناس المهمّين.

فسألتُه: للهبات؟

ضحك، ونفث بضع دوائر من سيجارته، ثم نظر إلَيّ بابتسامة خجولة وقال: أجل، هبات. أنت تمزح يا فلاي!

ذات يوم، حاولتُ ذكر عائشة، فنظر إلَيّ وقال: لقد ماتت... قتلوها.

- من قتلها؟

- العالم قتلها.

وذات ليلة عدتُ إلى المنزل، فوجدتُ طاولة المطبخ نظيفة. وعليها ملاحظة تقول إنه رحل لكنه سيبقى على اتصال بي.

بعد بضعة أسابيع، شارك أوتو في مسيرة واسعة نظَمَتها مجموعة منظمات واتحادات، ومثقفون يساريون، وفوضويون، ومناضلون. تحركوا كلهم ليعترضوا على القمة التي كانت ستنعقد خلال ثلاثة

أيام، بتنظيم من قادة المنطقة الذين خطّطوا لفرض سلسلة سياسات اقتصادية ليبرالية جديدة.

كان الآلاف سيشاركون في هذه المسيرة. لذلك أقامت الشرطة حواجز، وأغلقت جزءاً كبيراً من وسط المدينة، ومنعت الوصول إليه بتاتاً. في الجهة المقابلة، أُلقيت خُطب كثيرة باسم العمال والقادة، ورفرَفت أعلام المقاومة عالياً، كما طارت اللافتات في الهواء الطلق، وأُنشدَت الأغاني الوطنية. وذات ليلة أشعل بعض المناضلين ناراً في المتنزّه، وطبّلوا ورقصوا حولها طوال الليل.

كان أوتو بين أولئك المناضلين. فجأةً علت هتافاتهم. فخرج صوت من المكبّرات يأمرهم بإطفاء النار وإخلاء المتنزّه. لكن المناضلين صرخوا وأصدروا أصوات ازدراء. فأخرج رجال الشرطة، الذين كانوا على استعداد تام لمكافحة الشغب، عصيّهم، وراحوا يضربون بعنف على دروعهم، ويتقدمون باتجاه المسيرة، ليدفعوا بالمتظاهرين إلى الخلف. وتقدّمَت فصيلة أخرى من الجهة الثانية، بالبطء نفسه، وبالقساوة نفسها. فصرخ أوتو: «هذا اكتساح»! ثم رفع قنينة البيرة، وركض باتجاه الشرطة، ليرمي القنينة على درع أحد العناصر. فسقطت على الأرض وتحطّمَت. أُوقف الكثيرون تلك الليلة، وبقي أوتو وحده في الخارج.

لم أسمع عن أوتو أشهراً عدّة. وذات صباح، كنتُ أركن سيارتي في المرأب، فشاهدته يقف على الرصيف أمام المبنى. كان يدخن

ويحمل بيده فنجان قهوة تعلوها رغوة بيضاء. ركنتُ سيارتي، وتوجّهتُ إليه. وقفتُ هناك محاولاً إشغاله مدة أطول، علّني ألتقي زينب وهي في طريقها إلى الجامعة. لكنه تقدّم نحو المدخل، وصعد الدرج، فكان عَليّ اللحاق به. كان يتنفس بصعوبة، وبدا لي محدودباً، وقد زاد وزنه. كانت سترته الجلدية تتحرك بحرية مطلقة في النور الساطع من نوافذ الدرج، ونحن ننتقل صعوداً بين الطوابق. فجأةً فاحت رائحة طعام في الرواق، ففكّرتُ بالجوع. لا بد أن الجوع هو الذي يثقل خطوات أوتو، أذكر في الماضي أنه حين كان يصاب بالإحباط، كان يقضي أسابيع طويلة يشرب الكحول الثقيلة، ويتناول وجبةً واحدةً في اليوم. وفي بعض الأحيان، كان يكتفي بالمكسّرات في الصباح.

جلس إلى طاولة المطبخ، ولما قدّمتُ له الطعام، طلب كوب ماء. ثم أخرج بعض الحبوب وابتلعها.

قلتُ له: أنا أسمعك. فأخبرني قصة احتجازه.

البرميل

- أنا أنزف. قال أوتو وهو يجلس على الكرسي في مركز الشرطة.

- اسمك؟

- لانغستون.

- اسمك الحقيقي.

- ستوكلي.

- اسمك الحقيقي.

- كارمايكل.

- اسمك الحقيقي. قال أحد العناصر، وهو يدفع بقلم وورقة إلى أوتو.

- لا أستطيع الكتابة.

- اسمك الحقيقي. اكتب هنا اسمك اللعين، لأنني أعرف حقاً من تكون، فلدَيّ ملفك. لقد اختفيتَ لفترة طويلة، لكنني أراك اليوم مجدداً في الساحة. أنت مثل أولئك المغنّين في موتاون.

نظر الشرطي إلى زميله وضحك الاثنان سوياً.

- والآن اكتب اسمك.

كتب أوتو على الورقة ستوكلي كارمايكل.

- اسمك الحقيقي.

- بلاك.

- انظر يا بوب، لقد دوّن اسم بلاك، لكنه يبدو لي باهتاً بعض الشيء. كيف حصل ذلك يا تُرى. لا بد أن جدة جدة جدته تشبّثت

بمؤخرة الصبي الأبيض في الحظيرة، ولم تدعه بحاله في الوقت المناسب. الآن، دوّن اسمك الحقيقي يا ابن الساقطة.

فكتب أوتو «بانثر فيست».

- آمرك مجدداً، دوّن هنا اسمك الحقيقي.

- إله.

- قال الشرطي: أعطيك فرصة أخيرة، يا صبي الشوكولا بالحليب.

حينذاك بانت عبارة «تبّاً لك» على الورقة.

دُفع أوتو خارج كرسيه. راح أحد الشرطيين، ينهال بعصاه ضرباً على أوتو، في حين بقي الآخر يتفرّج. بعد حين، قام الشرطي الثاني وبدأ يركل أوتو بدوره، ويقفز فوقه.

راح أوتو يصرخ: أنا الإله، هذا اسمي الحقيقي يا أبناء الساقطة. اسمي اللعين هو إله.

ابتسم الشرطي الأول وقال: الرجل بحاجة إلى مساعدة. هو يعتقد أنه إله.

غادر الشرطيان الغرفة، وبقي أوتو وحده ممدّداً على الأرض الباردة. يكابد ألم الرأس والجسد. فأغمض عينيه إلى أن فقد شعوره بالوقت.

لاحقاً، دخل رجلان بمريولين أخضرين على أوتو في غرفة

الاستجواب. قالا إنهما أتيا ليرافقاه. سألهما إلى أين يأخذانه، فأجابه أحدهما بلطف وقد بدا شخصاً محترماً:

- سيدي، أنت الآن في عهدتنا، وقد أوكل إلينا أمر حمايتك، تأكد أنك لم تعد في عهدة البوليس. نطلب إليك أن تتعاون معنا لتسهل الأمور على الجميع. سنرافقك إلى مستشفى الأمراض النفسية كي تخضع لتقويم. وإذا لم تطع التعليمات، ستجبرنا على اللجوء إلى تدابير مشدّدة. والآن أريدك أن تجيبني بنعم أو لا. سيدي، هل فهمتَ تماماً ما قلتُه للتو؟

ضحك أوتو دون أن يجيب.

- سيدي، عليك أن تجيب لأنك إذا رفضتَ التعاون، فسنضطر إلى التعامل معك بطريقة مختلفة.

نظر أوتو عبر الغرفة فرأى الشرطي الذي ضربه يقف في الخلف، ويمسك في يده ملفاً. بدا الشرطي غير مبالٍ، وكان يحدّق إلى الطاولة وكأنه لا يسمع. لكن أوتو كان على ثقة بأن ذلك الشرطي يصغي تماماً إلى الحديث، فشعر بالوحدة.

- هل أنتما جادان في أخذي إلى مستشفى الأمراض النفسية؟

- سيدي، هل فهمت ما قلتُه لك، نعم أم لا.

أومأ أوتو بنعم. عندئذٍ تقدّم الشرطي من الممرض وناوله الملف.

حُشر أوتو على مقعد السيارة الخلفي، بين الرجلين، فظلّ هادئاً ولم ينطق بكلمة.

عندما وصلوا إلى المستشفى، قاده الرجلان إلى أسفل الرواق ثم أدخلاه غرفة. لم يكن لتلك الغرفة أي نافذة. كانت تحتوي على سرير حديدي، وكرسي عند الزاوية. ولا شيء آخر.

ثم أتته ممرضة، وناولتْه لباس المرضى.

- اخلع ثيابك وارتدِ هذا. سيحضر الطبيب حالاً.

- لستُ بحاجة إلى طبيب.

وقبل أن يحظى بفرصة لقول المزيد، رحلت المرأة وأقفلت الباب وراءها بالمفتاح.

رفض أوتو أن يتمدّد على السرير. فهذا الأمر، باعتقاده، يُعتبر تسليماً بالحالة النفسية التي أُحضر بسببها إلى هنا. اتجه إلى الكرسي عند الزاوية وجلس عليه. ثم أدرك أنه يشعر بالعطش، فقرع الباب. بعد ثوانٍ قليلة، فتحَت الممرضة نفسها الباب وقالت: من الأفضل لك أن تبقى هادئاً.

- أريد ماءً، أنا عطشان.

أقفَلت الباب مجدداً، ثم عادت وفتحَته وناولَت أوتو كوب ماء. وعندما أفرغه في جوفه، استعادَته ورحلَت.

بقي أوتو وحده في الغرفة وهو مشوّش الفكر. كلّم عائشة، وقدّم لها مخدة عريضة، وسألها إن كانت بحاجة لأن يرفع لها السرير، أو ينادي الممرضة. طلب منها أن تصبر إلى أن يصل الطبيب. ووعدها بأن يهرّب اللحم المفروم إلى داخل المستشفى لأنه سيريحها من الغثيان. ثم شعر بحاجة إلى البكاء. إلّا أن البكاء قد يكون اتهاماً كافياً بالجنون.

جرّدوه من كل شيء. لكن السرير الحديدي هو أكثر ما كان يخيفه، ويشعره بالاشمئزاز. تمنى لو كان لديه بعض الكحول، أو بعض الرفقة، أو حتى كتاب. والأهم من ذلك كله، تمنى لو كانت عائشة بجانبه. كان يتوق إلى رؤيتها ممددة على أريكتها المفضلة، تقرأ فيما الشمس تسطع على ظهرها، وعلى فخذيها المستديرتين المكشوفتين. كان يتوق إلى التفاتاتها السريعة إليه وهي تقلّب الصفحات، وإلى تكشيراتها التي تدل أحياناً على التقدير وأحياناً أخرى على عدم الرضى عن طريقة غنائه، وإزعاجه في المطبخ، وحديثه المنمّق عن الجاز والسياسة، عن شتائمه الملعلعة في الصباح الباكر، وعن هواجسه الطفولية بالأوراق والكلمات.

راح يفكر في حياة عائشة، في طفولتها، بعد رحيل البيض عن الضواحي، خوفاً من انخفاض قيمة أملاكهم، إثر وصول السود إليها. الشخص الأبيض الوحيد الذي لم يتزحزح من مكانه كان السيدة روني، وهي أمينة مكتبة متقاعدة، وقارئة شرهة. قرَرَت البقاء لأن

لديها من الحب ما يكفي الجميع، كما كانت تقول. «سأموت هنا، بين سكان هذه الأرض الطيبين»، هكذا قالت السيدة روني، «كل الأعراق خيّرة في نظري. لا أفهم لمَ يستعجل الكل الرحيل». وبمرور الوقت، بدأَت السيدة روني تفقد نظرها، فراحَت تعتمد على جيرانها الطيبين في إحضار الطعام والأدوية.

ذات يوم، بينما كانت عائشة تستذكر دروسها في الرواق، دعَتها السيدة روني لدخول شقتها. قالت: «اجلسي يا صغيرتي، واقرأي لي، فأنت تُجيدين القراءة». هكذا بدأَت عائشة تدخل شقة السيدة روني كل يوم لتقرأ لها، وتتلذّذ ببسكويتها وحلوياتها. ومن وقتٍ لآخر، كانت السيدة روني تعطي عائشة بعض النقود المعدنية. وكانت عائشة تخبئها في حذائها الشتوي في الصيف، وفي حذائها الصيفي في الشتاء. مرت مواسم عديدة، عاد بعدها قريب السيدة روني ليأخذها إلى مأوى للعجزة، بعد أن تدهورَت حالة نظرها، وكادت تحرق المبنى بكامله. وفي الليلة السابقة لرحيلها، نادت السيدة روني عائشة وقالت لها: «اختاري الكتاب الذي يعجبك من مكتبتي وسألقيه عليك غيباً». فاختارت عائشة كتاباً، وبدأت السيدة روني تلقيه عن ظهر قلب.

احتارت عائشة وحزنَت.

- إذا كنتِ قد حفظتها كلها في رأسك، فلمَ جعلتني أعتقد أنكِ بحاجة إليّ؟

- أردتُك فقط أن تقرأي وتنمّي حبك للكتب، يا صغيرتي.
ثم طلبَت من عائشة أن تقترب منها وقالت: سأقدّم كل كتبي إلى المكتبة، ولن أعطيكِ أياً منها، لأنك الآن وقد أصبحتِ قارئة، عليك قراءة كل كتب قومك.

ثم ناولَت عائشة بطاقة وقالت لها: عندما تبلغين الواحدة والعشرين من عمرك، اتصلي بهذا الرقم. ففي النهاية، من المؤكد أنني سأترك لك شيئاً يا فتاتي.

تجاوزَت عائشة الواحدة والعشرين لكنها لم تتصل بالرقم. فقد أضاعت البطاقة، وصارت السيدة روني بالنسبة إليها مجرّد ذكرى. رغم ذلك، تلقّت عائشة ذات يوم اتصالاً من محامي السيدة روني، طالباً منها زيارته في مكتبه. كانت السيدة روني قد تركت لها كوخاً متواضعاً تحيط به قطعة أرض، ومبلغاً متواضعاً من المال.

حين أرادَت عائشة وأوتو الرحيل، قررا الانتقال للعيش في ذلك الكوخ، وبقيا هناك سنوات طويلة. كانت عائشة مولعة بالمكان. فالعزلة ناسبتهما تماماً. والكوخ يقع على مسافةٍ بعيدةٍ من كل شيء. كانا يمشيان مسافاتٍ طويلةً للوصول إلى أول قرية مجاورة له. وكانا يحملان الطعام على ظهريهما إلى البيت. في الصيف، كانا يجلسان تحت شجرة كبيرة تمد ظلالها فوق الكوخ لتلطّف النسيم العابر من هناك. كانت عائشة تقرأ تحتها، وكان أوتو يجلس ليدخن وهو غارق

في تفكيره لاعناً الذباب ألف مرة. وفي الشتاء، كانا يستخدمان الموقد الحديدي في وسط الغرفة. كانا يعيشان حياةً بسيطة، ويكتفيان بالقليل الذي ورثاه. أما الكوخ فكان مجهزاً بفأسٍ ومجرفة، وهما ضروريان للنجاة من فصل الشتاء القارص.

بعد فترة قصيرة، شعر أوتو بضيقٍ في صدره، لأن أياماً عدّة كانت تمر عليهما دون أن يلتقيا أحداً، وأسابيع تمضي دون أن يستقبلا زائراً، وقد أصبحت حياة العزلة أثقل مما يستطيع تحمّله. ثم حصل أوتو على وظيفة في محجرٍ قريبٍ بنصف دوام. فكان عليه أن يسافر بشاحنات الخشب مع بعض السكّان المحليين، الذين باتوا يعرفون بوجود ذلك الثنائي الأسود في القرية.

مرضَت عائشة. فكان عليهما أن يعودا إلى المدينة لتتلقّى العلاج.

بعد شهور من النزاع مع المرض، وبؤس المستشفيات، همست عائشة لأوتو: لقد انتهى الأمر. عُدْ بي إلى الكوخ وادفنّي تحت الشجرة، بعيداً عن تلك الأسرّة الحديدية والصلبان.

وهذا ما فعله أوتو. عندما توفيَت عائشة، ترك جسدها يستريح ليلتين على سرير بديل. وفي اليوم الثالث، حمل المجرفة وراح يحفر حفرةً عميقةً تحت الشجرة ليدفنها. وفي الأيام السبعة التالية، قام بصقل حجرٍ كبيرٍ حتى أصبح أملس لماعاً، وثبّته على ضريحها، وكتب عليه: «هنا ترقد قارئة ومناضلة». ثم قرأ عليها أبياتها

المفضلة، وأعطى ظهره للضريح، وأقفل باب الكوخ، ومشى عائداً إلى المدينة.

في غرفته في مستشفى الأمراض النفسية، حاول أن يتذكّر تلك الأبيات. فتذكّر اسم الشاعر الأصلي، لكنه لم يتذكر الاسم المستعار الذي تبنّاه لاحقاً في حياته. إيفيت لوروا جونز، نعم، ولكن ما كان اسمه الجديد؟ اسم أفريقي، بالطبع، اسم أفريقي. ربما كان علَيّ أن أغيّر اسمي، فكّر أوتو. لكنني حاولتُ، فلم تصدقني تلك البهائم. عوضاً عن ذلك، حبسوني هنا. وتذكر أوتو شعر عائشة المفضل:

نوافذُ من عيون مملّة غير مغسولة

ومبانٍ صناعية...

ماذا بعد؟ قال أوتو في نفسه، في محاولة أخرى للتذكّر. ماذا بعد؟.. وحدّق بعينيه إلى السرير الحديدي. ردّديها علَيّ يا حبيبتي، مرةً أخرى... قوليها مجدداً، تمتم في نفسه، وهو يردّ ظهره للباب. هل يمكن لأحد أن يقرأ هذا الشعر عليّ؟ سمع صوته مجدّداً فأسكتَ نفسه، ثم حرك الكرسي الحديدي ليخمد صدى كلماته.

مرت بضع ساعات، وأوتو لا يزال محتجزاً في الغرفة بلباس المرضى، وقد بدأ يشعر بالبرد في ساقيه المكشوفتين وظهره العاري، فالمرأة قد أخذَت منه كل ثيابه. فكّر في أن يغطي نفسه بملاءة السرير. ولكن نزْع الغطاء عن السرير والالتفاف به، سيجعله يبدو

واحداً من أولئك المتشردين الذين فقدوا أسنانهم، والذين يرتعشون حول نار مشتعلة داخل برميل.

أخيراً، وبعد ساعات عديدة من الوحدة، ومن إلقاء المونولوجات المتقطعة، فُتح الباب وطلبت منه الممرضة اللحاق بها.

اقتيد إلى غرفة أخرى، أكثر حصراً من تلك التي تركها للتو. أما جدرانها فعارية تماماً، لكنه ارتاح أكثر للكرسي الخشبي، فهو أكثر دفئاً من الكرسي الحديدي في الغرفة السابقة. حينذاك تذكّر حصص الفيزياء التي التحق بها يوماً في سن المراهقة. الحديد ناقِل، أما الخشب فمستقبِل. وللحظة شعر وكأنه تولى الدور في تلك المسرحية الجنونية ليصعد على تلك الطاولة ويقود الأوركسترا، وهو يغني: الحديد ناقِل، الخشب مستقبِل، الحديد ناقِل...

بقي على الكرسي ممدّداً ساقيه باتجاه الباب وهو يتمتم: «سيجارة». حاول في ذهنه أن يرسم الطريق إلى ممتلكاته. أين يمكن أن تكون ولاعته البلاستيكية وعلبة سجائره الآن؟ هل تم نقل أشيائه من مركز الشرطة إلى المستشفى؟ تفاصيل صغيرة مثل هذه أشعرته بأنه ما زال طبيعياً.

حاول أن يتصوّر كيف سيكون التقويم. سيسألونه حتماً عن طفولته.. بالطبع، إنها الحيل الفرويدية المتوقعة؛ عن موت أبيه ثم موت أمه؛ عن خالته البيضاء الفقيرة التي كانت تعيش في الضواحي، والتي كانت تكره والده الأسود وتتساءل: «لمَ تزوجَت أختها واحداً

منهم»، كما كانت تقول؛ عن زوجها القذر الذي كان يجلس على كرسيه ليشاهد الألعاب، ويبعث أوتو وأخاه الصغير مارتان إلى المتجر ليجلبا له البيرة؛ عن صور له ولمارتان مع حقائبهما، وهما ينتقلان من ملجأ إلى آخر؛ عن وفاة مارتان، بعد أن التحق بالجيش، وأُصيب وهو في صفوف الخدمة (هذا ما يسميه أوتو الموت المهدور في سبيل سيطرة الأمبراطورية)، ولم يُعثر على جثته قط.

فكّر أوتو أن هذه المساءلة ستكون شبيهة بتلك التي تمت في مركز الشرطة. لكن على الأرجح، من دون عنف، إنما بطريقة متعجرفة ووعيد. كان يشعر برضوض في جسمه، وبطريقة ما شعر بتجدد طاقته رغم كل ما حدث. أوتو دائماً يرحّب بالعراك الموفق. وهذا أكثر ما يفتقده منذ أن ترك وعائشة النضال، وتواريا عن الأنظار في قلب الطبيعة. ثم تذكر ما قالت له عائشة قبل أن يغادرا الشقة: يمكننا العودة في أي وقت، فالعالم لا يتغير كثيراً. سيبقى هناك صراع نقوم به وقضية نموت من أجلها.

في تلك اللحظة فُتح الباب ودخل منه شخصان. نظر أوتو إلى أسنانهما الناصعة، فشعر بحاجة إلى الانفجار من الضحك. ثم قال في نفسه: «تبّاً، وصل من لا يدخن». حدق إلى وجهيهما عن كثب، فرأى رجلاً في نهاية الأربعينات، وصبيةً شقراء جذابة. حكم عليها من طريقة إمساكها بالقلم، ومن البطاقة المعلّقة على صدرها، بأنها على أتم استعداد لتدوين الملاحظات.

- مرحباً، أنا الدكتور وو، وهذه جنفياف، طبيبة متمرنة معنا هنا. ستنضم إلينا، إنْ كنت لا تمانع.

لم يجب أوتو بكلمة.

- إذاً، كيف تشعر؟

- أريد سيجارة.

- أنا لا أدخن. آنسة جنفياف، هل تدخنين؟

رفعت المتمرنة رأسها إلى الأعلى.

- كنتُ أنظر في ملفك... لكن دعني أبدأ بطرح بعض الأسئلة. إنها أسئلة نموذجية نطرحها على جميع مرضانا. ثم التفتَ سريعاً إلى الطبيبة المتمرنة التي خفضت ذقنها لتوافق على كلامه واستعدّت بقلمها.

- هل سمعتَ يوماً أصواتاً ما؟

- كلا، لم أسمع. أجاب أوتو بشكلٍ قاطع.

- هل مررت بحوادث عَرَضية؟ دعني أشرح لك: هل تشعر أحياناً كما لو أن هناك انقطاعاً بينك وبين محيطك؟

- كلا، لا أشعر.

- جيد. هل تفكر في بعض الأحيان بأنك جزء من عالم الآلهة؟

- كلا.

- هل تؤمن باللّه أو بالآلهة؟

- كلا، في الواقع أنا ملحد.

- هذا مثير للاهتمام. سيد... بلاك، هكذا قلت؟

- أوتو.

- إذاً، هل تعتقد أنك إله؟

- قلتُ لك لتوي أنني ملحد، فلمَ أعتقد أنني موجود؟

- إذاً، كيف تتأكد من وجودك؟

- يمكنني أن أتأكد من ذلك فقط، إذا أشعلت سيجارة بين شفتي ونفخت.

- سيد بلاك، فلنعدْ في الزمن إلى سلسلة الأحداث التي أتت بك إلى هنا.

- حقاً أريد سيجارة، فقد تسد جوعي قليلاً. لم يقدَّم لي الطعام منذ الصباح. وأعتقد أن في ذلك انتهاكاً لحقوق السجناء. ما رأيك بهذا كمحطة زمنية؟

- إذاً، أنت تعتقد أنك مسجون هنا؟

- أعتقد أنك تعتبرني هكذا، وأنك تعاملني بالتأكيد على هذا الأساس.

- إطلاقاً يا سيد... أوتو. نحن هنا للمساعدة. فلنعدْ إلى حديثنا الأساسي، أنت قمتَ، في مركز الشرطة، بالتدوين على قطعة ورقة أن اسمك هو إله. لديّ الورقة معي هنا. هذا خط يدك، على ما أعتقد؟

- كنتُ أسخر.

- نعم، فهمت. أنا أصدقك، لكني قلق الآن على حالة الضرب الذاتي.

- أنت تعني ضرب نفسي.

- يوضح تقرير الشرطة أنك، عندما تُركتَ وحدكَ، آذيت نفسك.

- لقد ضُربتُ يا رجل: ضُربتُ. أريد محامياً، وأطالب بالكشف على جروحي ومقارنتها بعصا ذلك الخنزير. هل تسمعني، يا دكتور؟ لقد أسيئَت معاملتي وتم إيذائي جسدياً. إنها أعمال الشرطة الوحشية. هذه حالة أخرى لوحشية الشرطة. والآن، لا أريد أن أستمر في هذه المهزلة قبل أن أحصل على محامٍ.

- حسناً، يا سيد أوتو. أنا آسف لأنك لن تتعاون معنا. انظر، في الظروف الراهنة، علينا التأكد من سلامة عقلك قبل متابعة الحالة قضائياً.

- اسمع يا ابن الساقطة، أحضر لي محامياً الآن.

- حسناً، يا سيد أوتو، أعتقد أن جلستنا تنتهي هنا. سأحرص على أن تُقدَّم لك وجبات خاصة، وتلقى المساعدة الضرورية.

- وسجائري؟

في تلك اللحظة أسرعَت الطبيبة المتمرنة إلى فتح الباب ليخرج منه الطبيب.

أطل حارس ضخم ليرافق أوتو إلى غرفته. وبعد دقائق قليلة، جاءت الممرضة وفي يدها كوب بلاستيكي، فاقتربت، تحت نظر الحارس، من أوتو. وفجأةً، نطق الحارس مثل مارد اجتاح المكان بدخانه: هذا دواؤك، وصفه الطبيب لك. عليك تناوله ثلاث مرات في اليوم. ولا مجال للتسوية هنا. عليك ابتلاعه كما تقول التعليمات. أنصحك بألّا تحاول التهرب من تناول الأدوية. عليك ابتلاعها في حضوري، وليس هناك هامش للمناورة، سيدي. بعد أن تضع الدواء على لسانك، سأطلب منك عدم ابتلاعه فوراً، بل إبقاءه على لسانك خارج فمك لأتأكد من وجود الحبة هناك. بعد ذلك، أتوقّع منك أن تبتلعه فوراً. وبعد ذلك سأطلب منك أن تفتح فمك من جديد لأتحقق بنفسي وأتأكد من أنك ابتلعَت الدواء تماماً. أرجوك ألّا تحاول المراوغة أو التهرب من تناول الأدوية لأننا نملك وسائل أخرى نتأكد من خلالها من أن الأدوية تقوم تماماً بمفعولها.

أصابَت تلك الأدوية أوتو بالنعاس، وجعلته يشعر بنوع من

الانفصال. أخيراً تخلّى عن فكرة المقاومة واعتلى السرير. بقي أشهراً مقيداً هناك في حالة نوم مصّاصي الدماء، في منزلةٍ بين الوعي واللاوعي. أُطلق سراحه أخيراً عندما اختفَت الكدمات عن جسمه. وبعد مرور أشهر على ذلك، عاش انعزالاً وشعوراً بالتخدير لا يُطاق. عانى نوعاً من الصدمة سبّبَتها له ضربات الشرطة، لكنه لم يشعر بأثرها إلا بعد أن توقف عن تناول الأدوية التي أجبره الطبيب عليها.

تقلّصت أعراض ذلك الانعزال تدريجاً، وعاد أوتو يبحث عن أعمال مختلفة وغريبة. لكن الإحباط ونوبات الغضب المتكررة كانا يعاودانه باستمرار. فتلك التجربة غيرته في الأعماق، لم يعد يطيق الاستماع إلى أسطواناته المفضلة. بات يعاني مشاكل في التركيز، أما الأصوات العالية فكانت تؤذي أذنيه. مرّ بفترات من التعب المفاجئ والنوم الجارف. وذات ليلة، كان بعض الصغار يعزفون الموسيقا تحت نافذته، ويشربون البيرة، ويدخنون على الرصيف. فهاجمهم وطلب إليهم الانتقال إلى مكان آخر. حصل بينهم نوع من الهجوم والتدافع. وسط الفوضى، شعر أوتو بشيء غريب لم يختبره يوماً في حياته. كان شعوراً سريعاً. مرت لحظة عرف فيها أنه قادر على إلحاق الأذى بأحد الصغار. فقد حمل الصبي من حنجرته وشدّ بأصابعه على عنقه. وعندما بدأ لون الصبي يميل إلى الزرقة، تدخَل أحد الجيران، وحرّر الصبي من بين يديه. فاستدار أوتو ورحل.

تدهورَت أحواله المادية، بعد أن انتقل من فندقٍ رخيصٍ إلى آخر، وعاش اشتباكات مع السكارى، وهجمات بقّ الفراش، كما عانى من رائحة العفن والمتشردين. أخيراً وجد نفسه في غرفة تقع في الطابق الأرضي من منزل تشاركه مع امرأةٍ عجوزٍ مدمنةٍ على الكحول تعيش على الرعاية الاجتماعية.

لم يتفق أوتو معها يوماً، واعتبرها مجنونةً متدينةً لا تصلح لشيء. بعد ذلك، صارت تقول لأي شخص يسألها عنه أن لا رب له، وأنه رجل عصبي ووحداني، وأنهما يتفاديان الالتقاء.

حين أنهى كلامه، مددتُ يدي إلى جيبي لأخرج منها ما جمعتُه من مال ذلك اليوم. تركتُ النقود الصغيرة وأعطيتُه الأوراق الكبيرة. تردّد قليلاً، ثم نظر في عينَيّ، وأخذ النقود قائلاً: أنت أخي يا فلاي. ثم غمرني بيديه ورحل.

المخطوطة

هذه المرة، لم يمر وقت طويل حتى اتصل أوتو مجدداً، وفي وقتٍ مبكر من الصباح لأنه يعلم في أي ساعة أنتهي من مناوبتي. أراد لقائي بعد الظهر، بعد أن أستيقظ من النوم. حوالى الرابعة، بدّلتُ ملابسي، وغسلتُ أسناني، وذهبتُ للقائه. بدا لي أكبر سناً من أي وقت مضى. فخدّاه اللذان كانا ذات يوم يضغطان على عينيه ليعزّزا مظهر الحذِق وصاحب الخبرة الواسعة، هبطا تحت وطأة

التجاعيد والهزيمة، واجتاح الشيب رأسه من الجانبين. وبدا لي أكثر بدانة من المرة السابقة.

قال: إنه تأثير تلك الحبوب. فهي تزيد وزنك.

أطفأتُ إشارة التاكسي ليعرف زبائن تلك المدينة أنني خارج الخدمة، وقدتُ بأوتو إلى الشاطئ. كان المطر قد انقطع عن قرعِ الإسفلت، لكن مياه النهر فاضت تحت الجسر، وتدفّقت إلى الطريق لتبقي الإسفلت مبلّلاً. ركنتُ السيارة وتركتُ المصابيح الأمامية مضاءة، فشعّ نورها على سطح النهر. وعَبْرَ شعاع نورها وتحته، اتخذت موجات هادئة أشكال دلافين مقوّسة تتنشّق هواءً رطباً كان يعبر بين ضفتي الشمال الأميركي.

- هنا، قال أوتو. وأخرج قنينة من داخل معطفه.

وقفنا للحظات دون أن ننطق بكلمة، نشرب وندخن ونحدّق إلى الماء والفضاء.

- حاولوا قتل روحي في ذلك المكان. إذا قاومتَ وتلفّظتَ بكلمة، يحاولون تهدئتك بوسائلهم. هم يقومون بالمثل على الجماهير من خلال أولئك الصحافيين الفاسدين والمتواطئين. لكن أمثالنا، من هو قادر على رؤية ما وراء السلطة والجشع، ومن يعترض على وحشيتها، يجازف في أن يُسحق. ما زال العراك قائماً.. ما زال العراك قائماً بالنسبة لي، يا فلاي.. وسيبقى هكذا دائماً. ثم تنشق سيجارته مطولاً ونفث دخانها.

رأيتُ مركباً صغيراً يمر تحت الجسر، وكان يعلّق علماً ممزقاً على ظهره. العلم، بألوانه الباهتة، بات قطعة قماش بالية. تبعتُ بنظري المركب، وذيله الأبيض الذي كان يشق المياه إلى نصفين لتعود وتندمج فتنطوي على نفسها على شكل موجات، ثم تعود نهراً مرة أخرى. كان الدخان يتصاعد من فم أوتو وهو يتحدث.

- عليهم أن يخافوا. إنها الطريقة الوحيدة التي ستجعلهم يدركون ما يمر به من تُنتزَع حقوقه. علينا أن نريهم الوجه الآخر. لم يعودوا يخافوننا أو يخجلون من وجوه المحرومين. لذلك علينا أن نريهم الأقنعة، أقنعة الرعب... عليهم أن يرتجفوا خوفاً، ويُجبَروا على الوقوف على حافة الموت والجوع. إنهم في كل مكان، يا فلاي.

- من؟

رمى بسيجارته إلى الأرض، وداس عليها ليطفئها، ثم قال:

- اسمع، لقد جمعتُ معلومات وملاحظات عن مزيدٍ من الأشخاص.

- لمَ؟

- مجرد ملاحظات، تأمّلات، مخطوطات. فلاي، يا رجل، اتصلتُ بك لأني أطمع بخدمة منك. يجب أن تساعدني.

الطبيب النفسي الذي عالجني، المدعو الدكتور وو، يطلب تاكسي من عيادته الخاصة كل ثلاثاء وخميس حوالى الساعة الثامنة

مساءً. كنتُ أراقبه. يبقى في المستشفى طول الوقت معظم الأسبوع. يمكننا الاعتماد فقط على هاتين الليلتين لنضمن وجوده هناك. لديّ قائمة أسماء، يا فلاي. لقد وثّقت حياتهم وعاداتهم، والساعات التي يغادرون فيها، والأماكن التي يأكلون فيها، وأرقام سياراتهم.... كلها موثقة يا فلاي. علينا جمع المعلومات، هكذا تحكم السلطة. بالمعرفة، يا فلاي.. بالمعرفة والتنظيم.

كل ما أريده منك هو ركن سيارتك أمام عيادته لتجلب ذلك الوحش إلَيّ. وأنا سأطلب منه أن يقرأ فقط. هذا كل ما أريده.

- القراءة مفيدة. لكن لا يجوز أن نُجبر أحداً عليها، وبالقوّة.

- علينا أن نجبرهم ليتعرّفوا إلى الجانب الآخر من القصة، يا فلاي.

- هم يعرفونه، لكنهم لا...

- بلى. حتى لو لم يأبهوا، عليهم أن يردّدوا بصوتٍ عالٍ ما دونّاه. وحين يفعلون ذلك، علينا أن نكون إلى جانبهم. فقد ترتجف أصواتهم، أو يظهرون خوفهم. وهذا سيكون كافياً لنعود إلى النضال. أنت وأنا علينا العودة كثيراً إلى الوراء. وأنا أعرف أنك ستساعدني في هذه المسألة.

- لو كانت عائشة على قيد الحياة، ماذا كانت ستقول في هذه القضية يا تُرى؟

- كانت ستطلب منك ما أطلبه الآن، لأنها كانت تحبك وتحبني، ولم تتراجع يوماً عن النضال. ناضَلت إلى آخر نفسٍ في حياتها... كانت ملكنا نحن الاثنين. وأنا قبلتُ المشاركة، ولم أحكم قط، لأنني كنتُ أحبكما أنتما الاثنين.

الفصل الثالث

المهرّج

ليلة الاثنين، ركبتُ سيارتي واتّجهت إلى وسط المدينة، حيث ازدحمت الشوارع بالمشاركين في الكرنفال، وانتشرت الزينة، وبرقت الأزياء، وعلت الأغاني، ورنّت أكواب البيرة. ركب معي رجال ونساء مقنّعون نصف عراة. وارتديت تلك الليلة زيّ ساحر بهدف التسلية والضحك.

درتُ حول الميدان الكبير حيث يجتمع معظم المحتفلين. ضحكتُ على امرأة شقّت جوربها المشبّك لتسألني إن كنتُ أفضّلها قبل الشق أم بعده... فقلتُ لها: قبله، وأخرجتُ لها بعض الأزهار من كمي. ثم سألتني فتاة هرّة إن كان باستطاعتها أن تضع يدها على كتفي، وأنا أقلّها إلى المسرح الخارجي الكبير. عندما نقدتني عملةً ورقية، سألتُها أن تفتح كفها، وتأخذ ما يحق لها من فكّة. راهنتُ رجلاً على عشرة دولارات، فخسرها بعد أن حاول القيام بحيل السحرة، وبعد أن نجحتُ في تحويل طير الحمام كتاباً، وقبعته علبة مناديل.

في مساء اليوم التالي، كان خزان الوقود شبه فارغ. سرّحتُ شعري إلى الوراء، ووضعتُ على عيني نظارةً غير أصلية، وعلى

رأسي شعراً مستعاراً، وقبعة عالية تشبه قبعة الأقزام الإيرلنديين. فانسدل الشعر المستعار على كتفَيّ، وغطّت بعض خصله وجهي. ثم خبّأتُ رخصة التاكسي التي تُبرز صورتي واسمي في صندوق لوحة العدّادات.

انتظرتُ أمام عيادة الأمراض النفسية. كان أوتو قد ذكر أمامي أنه قصير القامة، يضع نظارةً سوداء، ويمشي محدّقاً إلى الأرض، وأنني سأعرفه بسهولة. عند الثامنة وعشر دقائق، توجّه الرجل نحو سيارتي. صعد وأعطاني العنوان، فأومأتُ إليه ثم انطلقتُ. نظرتُ إليه في المرآة، فوجدتُه منشغلاً بالتفتيش في ملف. وقبل أن يحظى بفرصة رفع نظره إلى الطريق والاعتراض، سلكتُ المنحدر المؤدي إلى الجسر، وأوقفتُ السيارة في أسفله.

أخيراً رفع بصره، وقال بهدوء: ماذا يحدث؟

- إنها حالة طارئة. ربما نفد الوقود.

- أين نحن؟ قالها وهو ينظر عبر الزجاج الجانبي والخلفي.

- عذراً للإزعاج، سيدي. سأعود حالاً. هناك هاتف عمومي. سأعود، لا شيء يدعو إلى القلق، سأعود.

وتصنّعتُ نبرةً ثقيلةً غريبةً لأتخلّص منه.

كان أوتو يضع على رأسه شعر مهرّج بنفسجي اللون، وعلى أنفه

كرة بلاستيكية حمراء. وكان يضع على شفتيه أحمر شفاه يخرج عن الخط المرسوم، وعلى وجهه طلاء أبيض يغطي ملامحه حتى الرقبة والأذنين. وكان يرتدي سترته الجلدية القديمة فوق زيّ مهرّج، فبدا فيه نحيلاً.

مشيتُ باتجاه النهر. ثم التفتُ إلى الوراء، فرأيتُ أوتو وهو يصعد إلى مقعد السيارة الخلفي. بعد أن ترجّح الفيل على ساقيه الخلفيتين، ورفع الكلب خرطومه الملتوي، وانتظر جميع الحيوانات كي تنتهي من التصفيق، أخرج المهرّج مسدسه، وصوّبه إلى صدر الطبيب النفسي، وقال له: «أعطني محفظتك. اسمع يا ابن الساقطة، لا أحد سيؤذيك هنا. أريدك فقط أن تبقى جالساً وتركّز معي». ثم أخرج من جيب سترته الجلدية بعض الأوراق، ولكز الرجل بالمسدس من جديد، وقال له: «اقرأ من البداية حتى النهاية». بدأ الطبيب القراءة. لكن المهرّج استوقفه قائلاً: «من البداية.. اذكر اسم الشاعر والعنوان.. من البداية».

ثم لكز الدكتور مرة أخرى.

فقرأ الطبيب:

شِعر على الناس أن يفهموه

كتبه أميري باراكا،

الذي اشتهر سابقاً باسم لو روا جونز.

نوافذ من عيونٍ مملّة لم تُغسل...

مشيتُ إلى الأسفل، إلى حافة النهر، ورميتُ في الماء بضعة حجارة رجمت بها الشيطان. ثم دخّنتُ وأنا أنظر إلى الجسر المدّد فوق النهر. وأشعلتُ سيجارة أخرى وسط الضباب. في المدن، لا يفيدك النظر إلى النجوم، لأنك لن تقدر على وصفها، وتبجيلها، والبحث من خلالها عن أي اتجاه. إذا أضعت الطريق، عليك أن تقتفي آثار الجِمال. رحتُ أشاهد أضواء السيارات وهي تمر وتختفي أمامي. تخيّلتُ أمي تترجّح تحت الجسر، وأبي، عاشق الجِمال، يدور في حلقات، ويرمي بالحجارة، ويتلو الصلوات تحت ضوء القمر البدر.

عدتُ إلى السيارة، فلم أجد الطبيب. بقي أوتو وحده متكئاً على الباب يدخّن.

- أين ذهب؟

- رحل. رحل ماشياً. تفضّل، هذه أجرتك، فقد جعلتُه يدفع ثمن الرحلة.

ثم تابع قائلاً:

- لا تقلق، لأنني وقفتُ أمام لوحة الأرقام بعد أن خرج، فلم يرَ شيئاً.

عدنا باتجاه المدينة. أخرج أوتو من جيبه قنينة بوربون واحتسى منها. ثم دفعها باتجاهي، فجرعتُ جرعةً صغيرة.

قال لي أوتو، وهو يشرب ويدخّن:

- فلاي، يا رجل، لنسمّ هذه الليلة «ليلة انتقام مهرّج». لقد ارتجف طبيب الأبالسة، ارتجف حقاً. أجبرتُه على القراءة وهو يُتأتئ، والخوف يجتاح عينيه. جعلتُه يردّدها بالكامل ستّ مرات... جعلتُه يقرأ عن حياة العاهرات، عن سياسات الحقوق الدينية وتأثيرها في الأحياء الفقيرة... بدأ الرجل يتوسّلني ألاّ أقتله... فدسستُ المسدس في فمه وأنا أفكر: والآن أيها الطبيب، بمَ تشعر؟ بقيتَ أشهراً تدس كل أنواع الأدوية في فمي. وعندما أخرجتُ المسدس من فمه، سألني: هل حان الوقت لأتلو صلاتي الأخيرة... قلتُ له: لا، ليس بعد، اقرأ الآن...

لم يكن مرتاحاً في القراءة عن العاهرات... كان هناك نوع من الحرب، صدّقني يا فلاي. المعركة ليست تماماً بين اليهود، والمسلمين، والهندوس، والصليبيين، والكونفوشيوسيين. المعركة تحتدم بين من يحبون الجسد، ويحترمونه، ويحررونه، وبين من يكرهونه يا فلاي. توقّف هنا. أنا مدعو إلى تناول شراب. أتودّ المجيء لتشاهد المحتشدين في الكرنفال؟ أقترح أن نحتفل بهذا الانتصار الصغير الذي حققناه لصالح المضطهَدين.

قال المهرّج ذلك وهو يبدو منتشياً وثملاً.

- لا، ليس هذه الليلة. عليّ أن أجمع إيجار اليوم، وأملأ خزاني وقوداً. فالموسم في هذه المدينة موسم تعويض.

- طبعاً يا فلاي، من حقك كسب عيشك.

قالها وخرج من السيارة متمهلاً.

- أوتو، الأفضل أن ترتاح بعض الوقت. مكانك محفوظ في شقتي. مُرّ بها من وقت إلى آخر، أو انتقل للإقامة فيها.

- إنها معركة، يا فلاي، معركة طويلة. لكن تذكر دائماً أنك أخي وأنني أحبك.

الإيماء

بعد أن انتهيت من مناوبتي، انتظرتُ زينب في الأسفل ولكنها لم تأتِ. لم أرَها منذ أيام، فقرعتُ بابها. فتحَتْه نصف فتحة وقالت:

- ليس الآن يا فلاي، لدي زائر. ارحل. اذهب إلى عملك، إلى أي مكان. انتظر لحظة. لقد جاءت امرأة الليلة الماضية وقرعت بابك. كانت تبكي، وبدت لي مستاءة. ذكرت شيئاً عن نقلٍ أو قلادة.

- هذه ماري. لا بد أن تكون ماري.

- حسناً، اذهب إلى ماري.

وأغلقت الباب في وجهي.

انطلقتُ مسرعاً إلى عنوان ماري الجديد، بعد أن انتقلت لتقيم

في شقة قريبة من السوق. لم تكن في الشقّة. فانتظرتُها ساعات طوالاً، لكنها لم تحضر.

ثمة بار مفتوح قبالة مبنى شقتها. جلستُ في سيارتي أنظر إلى ظهر رجل منحنٍ فوق آلة بوكر. كان ينفث دخانه على شاشة تعرض قلوباً متلاشية، وأوراق «بستوني» مستعرِضة، وثمار فاكهة متدحرجة. الحي مكتظ بأوكار القمار، ومكاتب الرهان، والغسالات العمومية المستهلَكة، والكلاب الوحشية. الكرنفال فرد أجنحته ليغطي ذلك الجانب الشعبي من وسط المدينة. فبعد الظهر، يخرج سكان الحي إلى الشوارع، ويبدأون عزف الموسيقا والشرب والرقص. لأن الكرنفالات هي أيضاً من حق الأحياء الفقيرة وساحات الأسواق على حد سواء.

بعد مرور وقت، قصدتُ أول هاتف عمومي لأتصل بأوتو. لم يجبني أحد.

عدتُ إلى سيارتي وانتظرتُ ماري مجدداً. فطلب إليّ زبونان أن أقلّهما. أولهما كان ممثل إيماء، أومأ بإصبعه إلى مقعد الركاب الجانبي. فشبكتُ يدَيّ، مؤشراً أنني خارج الخدمة. لكنه أصرّ. فأقفلتُ باب الركاب متجهّماً، فرفع لي الوسطى. لم أولِهِ اهتماماً.

أما الثاني فتربّع على المقعد الخلفي. قلتُ له إنني خارج الخدمة. فقال: لكن إشارة التاكسي مضاءة، وهذا يعني أنك في الخدمة. فضغطتُ الزر بعنفٍ لأطفئها، وقلتُ له: لم يعد كذلك.

- ينص القانون على أن من واجبك نقلي. لا يمكنك رفض الزبون بعد ركوبه سيارتك.

- بلى، يمكنني أن أرفض زبوناً. فأنا في الواقع أفعل ذلك معظم الوقت.

- سأدوّن رقم سيارتك.

- لا بأس. افعل ما تشاء، ولكن غادر الآن.

كما توقعتُ، بعد بضعة أيام جاءت المفتشة تبحث عني. وجدتني في مقهى بوليرو، بعد أن عاينت سيارتي المركونة في الخارج. عندما دخلت، وضع بعض السائقين أطباقهم ومناديلهم الورقية على أفخاذهم، وساد جو من الارتباك والذعر. فسألت عني ثم مشت باتجاهي.

- هل رخصتك معك؟

- ألا يمكن لهذه المقابلة الممتعة أن تؤجَّل؟ فأنا أتناول طعامي.

- هناك شكوى قُدّمت ضدك.

- لِمَ؟

- لرفضك نقل زبون في حين أن إشارة التاكسي مضاءة. والرجل الذي رفضتَ نقله، ذلك اليوم، موظف في سلك المرور. قدّم شكوى ضدك أمام لجنة سيارات الأجرة.

- حسناً. هل عليّ الآن أن أباعد بين فخذيّ لأدعه يتحرّش بي؟

لم يصدّق الموجودون في المقهى ما سمعوه، وانفجروا ضاحكين.

سقطت كل تلك الأرقام أرضاً، لتنبطح تحت الطاولات، بعد أن تفَت الطعام من أفواهها، مخبئةً وجوهها بأيديها. بعضها ركض إلى الحمام، وبعضها اكتفى بإغلاق عينيه والهز برأسه.

- أنا قادرة على سحب رخصتك فوراً.

- من دون أن تستمعي إليّ؟

- نعم.

- على أي أساس، يا قلبي؟

- لا تنادِني قلبي.

- حضرة الضابط؟

- هيا إلى سيارتك.

- يا لها من غاوية. تمتمتُ.

- هل قلتَ شيئاً؟

- لا، أتذكّر فقط عندما كنتُ صغيراً في السيرك. يومها طلبت امرأة تمسك سوطاً إلى الرجل السعدان أن يقفز، وفيما بعد...

جعلَتني أفتح صندوق السيارة، والصندوق الصغير في لوحة العدّادات. تفقدَتِ المصابيح كما يُتوقّع عادة من المفتشين.

- هيا اركب السيارة.

- إلى أين؟

- انطلق. أريد أن أتحقّق إن كانت سيارتك تصدر أصواتاً.

قدتُ مباشرة إلى الزقاق الخلفي حيث ركنتُ السيارة. باعدت بين فخذيّ حتى النهاية، وملت برأسي إلى الخلف، وأغمضتُ عينَيّ إذعاناً. في تلك اللحظة، فكرتُ في أنني أتصرّف كأي مواطن صالح يشارك في إحصاءات الحكومة. طبعاً، فالبحث عن المعلومات وجمعها أمران أساسيان لكل دولة، قبل أن تباشر استغلال الشعوب الأخرى، وقيادة مواطنيها إلى الفقر واليأس. لذلك، على كلّ منا أن يقوّم قياس كل نظام، وطوله، وقطره قبل أن يمارس فعل التسامح، أو الحرب، أو الاحتلال.

تحرّشت بي المفتشة بملامسة فخذَيّ. ثم نادتني باللوطي من دون سبب، أو ربما لسبب. وطلبت أن أعيدها إلى سيارتها.

بعد أن رحلَتْ دخلْتُ المطعم أمشي بساقين مقوستين مثل راعي بقر ترجّل لتوّه عن ظهر حصانه. فبدأت مفاتيح البيانو تعزف، وبدأ سائقو العربات يطلقون الرصاص في الهواء، والراقصون يرقصون، وانفجرت الحشود ضاحكة. قام راعي البقر بتوزيع الشراب على

الموجودين، وأطلق مزيداً من الرصاص في الفضاء احتفالاً بالمناسبة. فأحد موظفي الدولة فقد عذريّته.

الزوج

بعد أيام، رجعت لأرى ماري في حيّها الجديد. رأيتُها تدخل الرواق عائدةً إلى شقتها، فاجتزتُ الشارع راكضاً إليها. عندما أمسكت بيدها غمرتني وبدأت تضحك. بدت لي منتشيةً وهي تسترسل في الكلام على غير عادتها. ولكن سرعان ما تعكّر مزاجها وقالت:

- لا أنفك عن البكاء طوال الليل. الكتب التي استعرتُها منك محزنة ومؤلمة. اتّصلتُ بزوجي وأخبرتُه أننا مارسنا الحب، فنعتني بالساقطة. لن أعود إليه يا فلاي. طلبتُ إليه أن يجمع لي بعض الكتب ويدعها عند الباب. أريدك أن تحضرها لي. سيكون هناك. هل بمقدورك فعل ذلك من أجلي؟ لا أريد أن أذهب إلى هناك... ما زلت أبكي بسببه حتى اليوم. هل تذكر المكان؟ إنه بعيد بعض الشيء. أنا آسفة، لكنني فكرتُ في أنك صديقي... حاولتُ الذهاب في نزهة اليوم، لكنني خفتُ من كل هؤلاء المشاركين في الكرنفال بأقنعتهم وأزيائهم التنكّرية، فعدتُ مسرعةً إلى البيت لأقفل على نفسي في الداخل. لا أزال أراهم هنا معي داخل الغرفة. هل يمكنك أن تسديني هذه الخدمة؟ أرجوك. وعدتُه بأن أعيد إليه القلادة، فهي

لجدته ويريد أن يستعيدها. هل يمكنك أن تأخذها إليه؟ خذها. إنني أؤمّنك عليها. اعذرني لأنني أبكي... لستُ قادرة على التوقف... كان بإمكانه أن يحضر الكتب بنفسه، لكنه يقول إن سيارته في المعرض. ترك عمله، وسيبيع البيت... أرجوك أن تقوم بذلك من أجلي، فلاي... لستُ بخير.

وأجهشت بالبكاء مجدداً.

أخذتُ القلادة ووضعتُها داخل الصندوق في لوحة العدّادات. ثم انطلقتُ متجهاً إلى منزل زوج ماري. استغرقت رحلتي إلى هناك حوالى نصف ساعة. عبرتُ ضواحي المدينة، حيث تتشابه المنازل، أو تختلف في تفصيل أو اثنين على أبعد حد. قلت لنفسي: أفضّل أن أشتعل من طلقة مدفع، وأجمع براز الفيلة لآكله، وأختنق في خزان مياه هوديني، وأتمدّد تحت حوافر الأحصنة المتسابقة، وأجامع هراً كبيراً داخل قفص، وأنا لا آبه للعواقب، على أن أُحتجز داخل أفخاخ تلك الضواحي، لتلاحقني ثرثراتها، ويقتلني مللها.

ركنتُ السيارة عند محطة الوقود واتصلتُ بأوتو. هذه المرة كان في منزله. قلتُ له: صديقي أوتو، هل يمكن لذلك المهرّج الحنون، أن يجهز بعد خمس وأربعين دقيقة.

- ومن نستضيف من القراء هذه المرة؟

- رجل يكره الكتب.

- حسناً، سأساعده اليوم على التفوق في القراءة.

- لكن بلطف... بكل لطف.

- لن أعترض. وماذا تقترح أداةً للقراءة؟

- ما رأيك في «تأملات مهرّج» لبول؟ إنه أفضل عنوان لمزاحنا...

- أجل يا فلاي، لكن هذا الكتاب ليس متوفّراً عندي. من أين أحضره لك؟

- اذهب إلى شقتي فمفاتيحها معك. ولكن انتبه، إنّ نسخة مفاتيح التاكسي معلّقة بالحمّالة نفسها. لا تُضِعها، لأن السيارات تجذب الناس أكثر من الكتب. اختر مقطعاً من أول رواية تلفت نظرك.

- لكن الرواية طويلة. لقد ناقشنا ذلك من قبل. إن آلاف الصغار يموتون من سوء التغذية في الوقت الذي يستغرقه أولئك الملاعين المسيئون إلى الروايات لتذوّق بعض المقاطع الشِعرية. نحن بحاجةٍ إلى شيء سريع يا رجل. ما رأيك؟

- أنا أصرّ على الرواية. يجب ألا نقلّل من قوة الخيال.

- كما تشاء. سأرى ما يمكنني إيجاده.

- نلتقي في البار، في الزقاق الأسود، بعد ساعة.

وصلتُ إلى منزل الزوج وقرعتُ بابه. فتح الرجل، ونظر إليّ

بازدراء، عابساً في وجهي. وقبل أن يتسنّى لي قول إنني هنا لآخذ أغراض ماري، أومأ إلى بعض الصناديق الموضوعة في الزاوية.

- اخلع حذاءك من فضلك.

- هذا سيصعّب علَيّ الخروج إلى السيارة والدخول مجدّداً.

- القانون هنا يفرض خلع الحذاء قبل الدخول.

- علينا اليوم خرق القانون.

- هل القلادة معك؟

- في الواقع، قرّرت ماري أن تعيدها إليك بنفسها، لأنها قيّمة. وطلبت إليّ أن أقلّك إليها حيث هي الآن.

- اعتقدتُ أنها تثق بك. أعني، على الأقل لتمارس الجنس معك.

- اسمع يا رجل، أنا هنا مجرد ساعٍ. أقوم بما يُطلب مني. هل ستأتي؟

- حسناً. لكني أكرّر أنه كان عليك أن تخلع حذاءك.

انطلقنا عائدين إلى المدينة. أشعل سيجارة داخل السيارة.

قلتُ له: ثمة لوحة تمنع التدخين داخل السيارة.

نظر إلي وقال: اعتقدتُ أنه يوم خرق القوانين.

- حسناً، نلتَ مني يا سيد...؟

- هل تسأل عن اسمي؟

- لستَ ملزماً بالإجابة.

- اسمي شاد. كان بإمكانك أن تسأل زوجتي.

- الأمر مؤلم جداً.

- تعجبني يا سيد... أين اسمك؟ لا أرى رخصتك على لوحة العدّادات.

- لا تزعج نفسك برخصتي في الوقت الحاضر، لأنني خارج الخدمة. يمكنك مناداتي فلاي.

- حسناً.

تابعتُ القيادة والنوافذ مفتوحة. فدخل منها المطر والريح وسواد الليل. طلبتُ منه سيجارة. تشابك بياض دخاني بدخانه، فامتزجا، ثم اختفيا.

بقينا صامتين. كان ينظر إليّ من وقت إلى آخر بطرف عينه. وأنا على ثقة أنه كان يتخيّلني فوق زوجته. يفكر في أن حياتي منحطّة وقذرة، وأنني سائق غير نافع. أو ربما كان يفكر في أنها ستمسك بأول ما يتوفر أمامها لترميه به فتؤذيه. أي شيء تقتله به. طبعاً، فهو لن يفكر إلّا في نفسه.

ذلك اللقيط المتعجرف، الميكانيكي غير المثقف. فكَّرتُ في أنه لا يسعه إلا قراءة الكتيبات والمجلات الرياضية. ومن يعتقد نفسه بحق الجحيم! ثم قلتُ في نفسي: حسناً فعلت بأنني جعلتُه يجلس على المقعد الأمامي إلى جانبي. فأنا لستُ سائقه اللعين. نحن متساويان. وأنا القائد المنتصر الذي تولّى السلطة حديثاً، ويدخل المدينة الآن منتصراً تحت أقواس النصر...

وأخيراً نطق: إذاً أنت تضاجع زوجتي.

- بالإضافة إلى أمور أخرى نتشاركها.

- دعني أحزر. هل تطهوان معاً؟

- لا، ليس كثيراً. للأسف مطبخي سريع الاشتعال. لذا أتفادى الطهو فيه.

- سريع الاشتعال؟ ماذا تقول؟ أتخبئ متفجرات في خزائنه؟

- أسوأ.. أخبئ كتباً. وليس في الخزائن فحسب، بل في الفرن، وفوق البراد أيضاً... المكان محشو بالكتب.

- حسناً. هذا سيرضي ماري. اسمع أيها السائق، أو لا أدري من تحسب نفسك. إذا كنت تريد الاعتناء بهذه المرأة، فافعل ذلك. ولكن احرص أولاً على أن تتناول أدويتها النفسية بانتظام. تذكَّرت... هذه لك... (وخبط قنينة الدواء بلوحة العدّادات) الآن أصبحت على عاتقك، فانعم بها.

حين وصلنا ركنتُ السيارة في الزقاق الخلفي، وراء البار.

- أنا ذاهب لأعلمها. سأعود حالاً.

تركتُه وحده، ودخلتُ البار.

عندئذٍ مشى المهرّج مباشرة إلى الزقاق. فتح باب الركاب، وجلس إلى جانب كاره الكتب، ثم مد يده حول وسطه وقال:

- لديّ مسدس. أنصحك بأن تقرأ المقطع الذي أعطيتُك إياه. لا تترك السيارة ولا تدع الكتاب.

تفاجأ الزوج وفتح الكتاب محدّقاً إلى صفحته الأولى.

فأمره المهرّج: بصوتٍ عال. اقرأ بصوتٍ عال.

باشر كاره الكتب القراءة. وقبل أن ينهي الجملة الأولى، نظر إلى الأعلى وقال: ما هذا؟ أهو مزاح؟ هل دفعت لك زوجتي لتقوم بذلك؟

- اكتفِ بالقراءة أيها الحقير.

تابع القراءة لكنه توقّف مجدّداً وقال: الإضاءة ليست كافية، ونظارتي ليست معي. لستُ مضطراً للقراءة.

قال له أوتو: إذاً سأترك لك الكتاب، وأنصحك بقراءته لمصلحتك. عليك أن تكتب لي ملّخصاً عنه. هذه ستكون وظيفتك. وسأجدك مجدداً لأقوّم عملك. لا تقلّل أبداً من شأن مهرّج يترك لك كتاباً. والآن ارحل.

رحل زوج ماري بعيداً وهو يصرخ: أي نوع من المزاح هذا؟ أي نوع من المزاح اللعين هذا؟

ترك أوتو السيارة، بعد أن تأكد من أن قبعته ما زالت في حوزته، ومسدسه ما زال في حقيبته. واختفى.

لما عدتُ إلى السيارة، كان كل من الزوج وأوتو قد رحلا.

في تلك الليلة التقيتُ أوتو وسألتُه عن مغامرة اصطياد الكتاب فقال:

- يا رجل، مكتبتك كبيرة جداً، لكنها غير منظّمة. لا تتّبع الترتيب الأبجدي، ولا أي ترتيب آخر.

- حسناً. ولكن قل لي: أي كتاب اخترتَ له؟

- حين خرجت من شقتك، وجدتُ على المدخل، كتاب *Finnegan's Wake* (سهر الفينيغانيين) موضوعاً أمامي على الرف.

- حسناً فعلت. فليتحمّلْ ذلك اللعين.

الزرافات

الليلة الماضية، ركبت معي امرأتان عاشقتان. كانتا تتبادلان القبل والحديث على مقعد سيارتي الخلفي. لم تمانعا أن أراهما، لكنهما لم ترغبا في أن أسمع حديثهما. كانتا تتبادلان القبل، وتتحدثان همساً، وتمسّد كل واحدة شعر الأخرى، وأنا أحدّق أمامي، ثم أنظر

خلسةً في المرآة وأحس بالنشوة. عبرتُ الجسر فوق مياه النهر، نزولاً إلى جهة المدينة الأخرى. كان واضحاً ومثيراً أن كلاً من هاتين الفراشتين متيّمةً بالأخرى ومشغولة بها. ولو لم تكونا كذلك، لكانتا لاحظتا أن القمر قريب، يشع بنوره فوق الجسر المترجّح. مررتُ تحت الجسر باتجاه الجنوب. تعجبني فكرة الاتجاه نحو القطب الدافئ. وفي اللحظة التي كنتُ أفكر في الدفء، اختفى رأس، وأُغمضت عينان، وأُطلقت تنهيدة عميقة. سلكت المخرج ٦٤، ثم أوقفتُ السيارة على منحدر، منتظراً عودة الإشارة خضراء. وأنا أنتظر بهدوء، انعكس ضوء خافت من إشارة المرور على لوحة العدّادات، ارتد بعدها على المقعد الخلفي. فبان صدر ينتفخ وينكمش. ثم علا أنين أنثوي خافت يشبه صرير الحيوانات الصغيرة وهي تهرع إلى أعلى الأشجار.

عاد اللون الأخضر، فانطلقتُ بالسيارة على مهل، كي لا أحرم أحداً من اللمسات المتّقدة تحت وهج كرنفال الألوان المختلفة وشعاع ضوء القمر البدر. فكرتُ في القمر. على الإنسان أن يستوطنه، وعلى الجنس البشري أن يجد سعادته، وعلى الناس أن يحرّروا أنفسهم من كل قيد، ليتنزهوا، يداً بيد، بعيداً عن مفاهيم الأوزان والاتجاهات. إن وجود الإنسان على سطح القمر أخف وجود بشري على الإطلاق. وحياته فوق أسهل، في بيئة عائمة. الشفاه عائمة، والتنهيدات عائمة، والأحذية عائمة، والركب والجوارب

عائمة فوق لوحة العدّادات، وحول المرايا، وفوق المقاعد. فكّرتُ في الحياة في الفضاء. يجب أن تكون على صورة حالة مقصورتي الراهنة. يا له من نموذج، من مقدمة نختبر من خلالها فقدان جاذبية الأرض، وطوفان المرأة القوية. كنتُ أقود والنوافذ مفتوحة، فبدأ كل شيء يسبح في الهواء. شاهدت سيقاناً تتلوّى وتتمدّد، وخصل شعر تتطاير وتنسدل، وصدوراً تعلو وتهبط. كما سمعتُ أنيناً يصل إلى القمر.

وصلنا إلى العنوان الذي أعطتني إياه إحداهما، فأعلمتُهما بوصولنا. ظهر الرأسان من جديد فوق المقعد الخلفي. توقفتا، وتنهدتا بعمق، ثم عدّلتا ملابسهما، وتبادلتا النظرات وانفجرتا ضاحكتين. فتحت الأولى حقيبة يدها، وسرحت الثانية خصل شعرها. قلتُ: عشرة دولارات وستة وخمسون سنتاً. فناولتني المرأة الأولى المبلغ المطلوب قائلة: «لقد نلت إكراميتك، أليس كذلك؟» ثم غمزتني وخرجت.

في سنّي هذه، أفضّل المال على مشاهدة الآخرين يحلّقون في ملذاتهم. أريد أن أجمع ما يكفي من المال لأتوقف ذات يوم عن الحركة، لأقوم بدور المهرّج على شاطئ مليء باللاعبين والغوّاصين والكذابين، على شاطئ مليء بنساء متمدّدات مسرورات على الرمال تحت المظلات، في سراويل خيطان تشق أقمارهن المغرية إلى

نصفين، مع قليل من الرمل المرشوش على جهة الساحل، وفوقها فضاءات عارية، وتضارب أمواج وتصفيق سمك بطلينوس.

ركب معي يوماً مهرّج محترف كان يرتدي زيّ زرافة. أخبرني أنه تأخر على عرض ترفيهي كان سيقدمه في حفلة للصغار. ضحكنا على الجمهور الذي شبع من الحلويات والمشروبات، وهو ينتظر بداية العرض بفارغ الصبر. أطلّ بوجهه من داخل العنق الممشوق، وفتح النافذة ليمد الرأس إلى الخارج. كنتُ أقود بسرعة، وهو يثبت رأس الحيوان بين يديه ليمط عنقه إلى الأعلى فوق سطح سيارتي باتجاه الفضاء.

ضحكنا كثيراً. لكني كنتُ أعرف الحزن الذي يشعر به حيوان مقيّد مثله.

- يحزنني وضع الزرافة.

- أفهمك. لا تتّسع لها البيوت، ولا الطوابق الأرضية. إنها مجبرة دائماً على إحناء رأسها، والشعور بأنها كبيرة وصغيرة في آن.

- عليك أن تعيش على السطح إذا ضاق عليك الطابق الأرضي، وعليك تناول اللحم إذا لم يتوفّر النبات. يجدر بك أن تناضل من أجل هؤلاء الصغار بدل أن تحاول مداواتهم بالبالونات والضحك. لقد أضعتَ حياتك، وكنت تستطيع أن تكون عظيماً.

- تابع القيادة، من فضلك. انظر أمامك، ولا تنظر إلى فوق.

أنت مجرد رحّالة حقير. كل ما أنت قادر عليه هو التفكير، والكلام، والتقدم في حلقات دائرية. أنت فقير وبائس تماماً مثلنا نحن الحيوانات المقيّدة. أنت أسير أفكارك النيّرة وآرائك الذاتية.

- عِشتُ مع مهرّجين، وممثلين هزليين وكوميديين، وجنود مستهلَكين. وهذه أفظع مخلوقات التقيتُها في حياتي.

- ولا تنسَ ذكر أبناء الشاذين أمثالك.

ثم تحكّم برأسه وثبّته في وجه الريح وأضاف: «لو أحبك والدك، لما كنت شعرت اليوم بحزنٍ حيال ضحك الصغار وفرحهم المدهش».

حين وصلنا قال: «هنا من فضلك. هذه أجرتك ومصّاصة كراميل لتبقي فمك مغلقاً». ثم دفع بعنقه الطويل إلى داخل السيارة ليتمكّن من فتح الباب، والقفز إلى حافة الطريق باتجاه المنزل. هناك، كان ينتظره بعض الصغار برسوم شوارب الهررة، وآذان الكلاب، لينفخ لهم البالونات، ويحوّلها طيوراً وفئراناً وكناغر صغيرة.

سالي

ترك لي تاجر المخدرات رسالة على هاتفي. هذا الحقير لا يقول شيئاً سوى «نحن على موعد الليلة، كالعادة»، ويقفل السماعة.

انتظرتُه عند الثامنة في المكان المعتاد، ورحنا نجول في الأرجاء

ليتفقد بعض عملائه. رأيتُه يشبك يده بأيادي بعضهم ويلطم أيادي بعضهم الآخر. أراد بعدها أن يتوقف عند ملهى للعراة ليقوم ببعض الأعمال حسب قوله. قال: انتظرني هنا، سأعود إليك بعد ساعة. اركن سيارتك في الزقاق الخلفي. سأقول للحاجب أنك معي. ابقَ هنا، سأعود.

انتظرتُه وأنا أشاهد الراقصات يصلن إلى الملهى. كن يحملن حقائبهن على أكتافهن، وينتظرن الحاجب أن يفتح لهن الباب، ويسمح لهن بالدخول، دون أن يسلم أحد على الآخر.

كنتُ أعرف في الماضي راقصةً اسمها سالي. وكنتُ أنتظرها كل ليلة خميس لأنقلها إلى بيتها في ساعة متأخرة، بعد أن تنتهي من عملها. كانت ذكية، واسعة الاطلاع، وطالبة في قسم الأدب الفرنسي في جامعة محلية. سرعان ما تصادقنا. تحدثنا أولاً عن الكتب، بعد أن رأت كتاباً ملقى على لوحة العدّاد. أعتقد أنني كنتُ أقرأ في ذلك الوقت *Our Lady of Flowers* (سيّدة الزهور) لجان جينيه. عندما رأته برقت عيناها. فقالت مبتسمةً: أنت قارئ.

ثم أمسكت بالكتاب، وقلّبت صفحاته، وقالت:

- اسمع، ليس لديّ شيء ضد ممارسة العادة السرية، ولكن ألا تعتقد أن الفعل مبالغ فيه قليلاً في هذه الرواية؟

- وهل تقدرين على فعل شيء غير ذلك عندما تكون روحك

حرة، وتعيشين مقيدة في عالم ضيّق، حدوده السجّانون والجدران؟ هل لديك خيار آخر غير الاستسلام، والنواح، وممارسة العادة السرية على مرأى من السجان، وسرقة مفاتيحه وكسر سلاسله؟

- هذا صحيح. أعتقد أنني سأقوم بكل ما يبقيني سليمةً معافاة. أجده تحفة بأسلوبه الشاعري الغنائي، على الرغم من أسلوبه الذي سرعان ما يصبح خانقاً ليشعرك برهبة الاحتجاز. لا أتخيّل نفسي محتجزةً في زنزانة. قد أموت.

ثم سألتني عن دوامي، فقلتُ لها:

- لا أتبع دواماً معيناً. فساعات عملي قابلة للتغيير. أعمل هنا وهناك طالما أنا بحاجة لأغطي تكاليف إيجار السيارة، وثمن الوقود، وليبقى معي بعد ذلك قليل من الفكّة.

- هل أنت جائع؟

- قليلاً. ولكن يهمني أن أعرف أولاً ما تحتويه مكتبتك. إلا إذا كنتِ تفضّلين رؤية مكتبتي.

- لدي شعور بأن مجموعتك قد ترهقني الليلة. فآخر ما أنا بحاجة إليه الآن هو صورة أخرى عن اللوح الحديدي، بعد أن رقصتُ حوله طوال الليل. ما رأيك بالباستا؟

- لذيذة.

تحدثنا أكثر عن حياتنا. كانت تحب أن تصبح مدرّسة في مادة الأدب، ولكنها لم تكن تريد أن تنزل تحت ثقل الديون لدفع رسوم تعليمها. لذلك كانت تعمل ليلة الخميس راقصةً في ملهى العراة، وتعمل مرافقة للرجال بضع ليالٍ في الأسبوع. كانت قوية لتضع شروطها، ولم تكن ترضى أن يقبّلها زبائنها على شفتيها. كانت توضح لهم بأنه لا يمكنهم لمس وجهها أو عنقها. وكانت تحرص على أن يستحمّوا أمام عينيها، حتى لو أكدوا لها ألف مرة أنهم فعلوا ذلك قبل اللقاء.

أصبحنا صديقين حقيقيين، بعد فترة قصيرة، فصرتُ أنتظرها كل ليلة خميس في سيارتي. مارسنا الحب بين الفينة والأخرى. وكان ثمة صداقة بيننا أكثر من حب بمعناه الرومانسي. هذا ما اتفقنا عليه. كانت تخبرني ما يحصل تلك الليلة، في لقاءاتها بزبائنها، مثل قصة الرجل الذي كان يرتدي زيّ مهرّج، فقذف لحظة دخوله من الباب. وذات مرة، تبين لها أن أحد الزبائن هو صديق والدها، فوعدته ألّا تخبر زوجته، ووعدها ألّا يخبر والدها. هكذا حُسمت المشكلة. وحين أرادت أن ترحل، وقف على الباب وحاول أن يلمس وجهها، فقالت له: اسمع، لم أتحدث مع والدي منذ سنوات، لذلك أنا قادرة على تحمّل النتائج. ولكن هل أنت قادر على تحمّل نفقة طليقتك؟

في نهاية كل شهر، كانت سالي تستأجر سيارة مع اثنتين من زميلاتها في العمل، وينطلقن باتجاه الساحل الجنوبي، إلى قرية

تُعرف بالمسالخ، يعمل فيها رجال كثُر لقاء أجور متدنية. وكانت تستأجر هناك هي وزميلتاها بضع غرف في نزلٍ حقير، يستقبلن فيها الرجال العمال بنصف تعريفتهن العادية. أعمال خيرية! هكذا سمّتها سالي، وفسرتها بحركة متديّنة، ملمّحة بذلك إلى مريم المجدلية، التي كانت تعمل عاهرة قبل أن تلتقي المسيح. «وبعد ذلك بالتأكيد»، هكذا قالت وهي تقهقه. أما الفتاة التي أطلقت فكرة هذا المشروع فكانت تُدعى ماغي، اختصاراً لماغدالينا. وهكذا أطلقن على أنفسهن لقب فتيات ماغدالينا. إلا أنهن اشتهرن بين عمال المسالخ باسم الماغدالينازا.

قالت لي سالي إن معظم هؤلاء العمال يعيشون بعيداً عن أهاليهم. ليس لديهم أحد، ولا يمكنهم تحمّل تكاليف زيارة قراهم والرحيل عن قرية المسالخ، بالأجور القليلة التي يكسبونها. بعضهم وصل إلى مراحل متقدمة في التعليم، وبعضهم مجرد قرويين مساكين. إنهم من كل الفئات. أضافت:

التقيتُ مرة طبيباً من أوروبا الشرقية وكان يتكلم الإنجليزية بلهجة ثقيلة بالرغم من فصاحته. دخل غرفتي، وكان لطيفاً، لا بل لبقاً بتصرفاته. وصل، فاستحم، ثم حلق. كلهم يفعلون ذلك، ويعتبرون لقاءنا موعداً غرامياً، ويأخذوننا على محمل الجد. يتأنّقون من أجلنا. حتى أن البعض يرش العطر، فتنسى أنهم يسلخون الحيوانات في النهار، ويقضون معظم يومهم بين حمامات الدماء. في أول زيارة،

أحضر الطبيب قنينة نبيذٍ وباقة زهور، ثم شغّل الراديو على محطة تبث الموسيقا الكلاسيكية. أخرج من جيبه واقياً ذكرياً، ودخل الحمام ليغسل راحتي يديه وإبهاميه ومعصميه. ترك المياه تجري فوقها وهو يغني الأوبرا، ثم خرج من الحمام ويداه مرفوعتان إلى فوق كما يرفعهما الجرّاح. فتح قنينة النبيذ وقدم لي كأساً، حتى أنه أحضر الكأسين. كانت تصرفاته نبيلة.

حين دخل الحمام، فتشتُ حقيبته. وكنت دائماً أفتش ملابسهم بعد أن يتعرّوا. وإذا كانوا يحملون حقائب، أفتحها وأنظر داخلها، ولا أخاطر بأي فرصة. كان يحمل كتاباً، فأخرجتُه من حقيبته. كان يقرأ *The Good Soldier Švejk* (الجندي الصالح شفيجك) لهاسيك. ضحكتُ، وأنا أفكر في هذا الطبيب الذي يقرأ لهاسيك في ذلك المكان المنحط. ألتقي دائماً رجالاً واسعي الاطلاع في كل تلك الأماكن الغريبة. لم أشأ أن يعرف أنني فتحتُ حقيبته. سألتُه لاحقاً إذا كان تشيكياً. في البدء، أنكر. لكنني كنتُ متأكدة من أنه تشيكي. سألني لمَ أسأل، فقلتُ له إنه يذكرني بعمي.

- وهل عمك تشيكي؟

- نعم، واسمه جاروسلاف.

ارتبك وسألني:

- ما اسم عائلته؟

- هاسيك.

ضحك وصبَّ لي مزيداً من النبيذ، قائلاً: «أنتِ امرأة ذكية». ثم رفع كأسه وشرب. غنّى بالألمانية بعض الأغاني الأوبرالية، وشرب كثيراً حتى غطّ في نوم عميق. فكان عليّ أن أخرجه من السرير لأن عمّالاً آخرين كانوا ينتظّرون في الخارج. ناديتُ الأخوين الألبانيين اللذين يأتيان في نهاية كل شهر، ويحاولان الحصول علينا نحن الثلاث في الوقت نفسه. وكنّا نتمنّع، لأننا نحترم أحكامنا، والكل يعرف ذلك جيداً. لا نمارس الجنس من الخلف، ولا ندخل مع أكثر من رجل واحد، والاستحمام إلزامي طبعاً... ناديتُ التركيين، حسناً، الألبانيين أو ما شابه. كانا يحضران معهما ألواح صابون عندما يأتيان، وتين، وغيره من الطعام الذي ترسله أمهما. قرويان مضحكان وغير مؤذيين، وأيديهما كبيرة وخشنة. حملا الطبيب إلى أسفل الدرج، ودفعاه داخل السيارة، وأخذاه بعيداً.

كان علينا أن ندرّب هؤلاء العمال، وكما قلتُ سابقاً كان بعضهم لطفاء، لكن بعضهم الآخر يتفجّرون غضباً، وتسكنهم خيبة أمل. أتوا إلى هذه الأرض اعتقاداً منهم أنهم نجحوا في الهرب من البؤس الذي يتغلغل في منازلهم. إلا أنهم علقوا هنا في أعمال بغيضة. أعني، عملي أيضاً قاسٍ بعض الشيء، لكنني أحاول أن أبقيه نظيفاً ومثيراً قدر المستطاع. أما هؤلاء الرجال، فغارقون في الدماء طوال اليوم، والجو بارد في تلك المسالخ، والظروف المحيطة صعبة،

وساعات العمل طويلة. بعد أن الانتهاء من العمل، يعودون إلى مجمّعاتهم، فيستحمّون ويناموا. هذا كل ما يقومون به، وهذا كل ما يتوفر ليقوموا به. وبعضهم لا يزالون على هذه الحال منذ سنوات طوال. ذات مرة، أقاموا حفلة في مهجعهم، ودعونا للمشاركة فيها. كان طعامهم لذيذاً لأن بعضهم مَهَرَة في الطهو. كانوا يرتدون ملابس أنيقة. وعندما دخلنا، تقدّموا واحداً تلو الآخر، وركعوا على ركبهم، وقبّلوا أيدينا، ثم قدّموا لنا أزهاراً، ونبيذاً في أكواب بلاستيكة، وعاملونا مثل ملكات. عندما باشرنا هذا المشروع، تصرّف بعضهم معنا بعدوانية. حياتهم كانت تترجّح بين إذلال وإذلال. فيما بعد، تعلموا كيف يحترموننا ويحبوننا. الأذكياء بينهم يحاولون توفير بعض النقود ليرسلوها إلى بلادهم. وكانوا يحسنون فعل ذلك ليشعروا بأنهم حقّقوا شيئاً ذا فائدة تجاه أهلهم وأقربائهم. أما الآخرون فكانوا ينتظرون نهاية الشهر ليثملوا، وينفقوا المال القليل على آلات البوكر، والمشروب، والمخدرات. في البدء، رفضنا استقبال كثيرين منهم، خصوصاً السكارى والمشاكسين. كنا نكتفي بقول: لا. ماغي، شريكتي في المشروع وعشيقتي، تعرف الطبقة العاملة حق المعرفة. فقد كبرت في قرية بائسة صغيرة، وشهدت أباها وأعمامها يخسرون وظائفهم. علّمتني كيف أتعامل مع هؤلاء الشبان. كانت مؤثّرة للغاية. تبدأ بالصراخ عليهم حتى يصبحوا مثل الأولاد الصغار.

ذات يوم دخل شاب مغربي غرفتها. كان فحلاً، واثقاً من نفسه،

قوي البنية، متشبّثاً. وكان متبجّحاً ومتشامخاً. بالكاد وجّه إليها الحديث، ثم خلع ملابسه، وأومأ إلى السرير.

قالت له:

- لحظة، سنتحدث أولاً.

- موافق.

- حسناً، أرى أنك تجيد الإنجليزية. اسمع، لن أنام معك لأنك لا تحترم النساء.

تفاجأ الرجل. ربما لأنه لم يلتقِ بعد بامرأةٍ تكلمه بهذه الطريقة.

- في المغرب، أنتم الرجال تعاملون النساء كما تعاملون الكلاب. أما هنا فحتى العاهرة مثلي جديرة بالاحترام.

- عاهرة عنصرية.

- نعم أنا عنصرية ساقطة. احمل ملابسك وارحل قبل أن أنادي أحداً ليرميك في الشارع. أنتم تدفعون القليل القليل هنا لطيبة قلبنا. ولو كنتُ فعلاً عنصرية كما تقول، لما قطعتُ كل هذه المسافة لأساعدك على تحمل حياتك البائسة. كان بإمكاننا نحن الثلاث أن نكون الآن في مكان آخر، في فندقٍ فاخرٍ مثلاً نشرب شمبانيا، ونجني خمسة أضعاف ما نجنيه هنا. لكننا نأتي إلى هذا المكان في نهاية كل شهر بطيب خاطر وطيبة قلب. كل أصدقائنا يشهدون

لنا بذلك، ويقدّروننا على ما نقوم به. والآن احمل ملابسك وارحل فوراً.

وقف العربي وهو ينظر إلى الأرض، والدموع تنهمر من عينيه. حاول الاعتذار، لكن ماغي أمسكته بذراعه وقالت: «هذا لن ينقذك. تعالَ الشهر المقبل بسلوك أفضل وسنرى». وتابعت سالي: أؤكد لك أن العربي رحل مثل صبي صغير اشتاق إلى أمه.

قالت: نحن نقدم أجسادنا هديةً للفقراء. كم هو عظيم أن تحط من قدر جسدك لغاية أعظم. بمرور الوقت، أصبحتُ أحب هؤلاء العمال. فهم يأتون سعداء إلينا، يأتون بابتساماتهم الواسعة. بات آخر كل شهر أهم من أي يوم آخر في حياتهم. هناك مكسيكي يركع كل مرة قرب السرير، ويصلي قبل أن يخلع ملابسه، ثم بعد أن ننتهي. يقّبل يدي، ويرسم إشارة الصليب، ثم يرحل. لا ينطق كلمةً بالإنجليزية، وبرغم ذلك أفهم كل ما يريد قوله. نحن متشابهان. أنا أقوم بذلك بدافع الشفقة، وهو يقوم به ليكمل حياته، وليتمكن من دعم عائلته هناك في بلاده. عندما أعمل مرافقةً للرجال، تكون الأمور مختلفة. ففي اللحظة التي يرن فيها هاتفي، أصبح شخصاً آخر، شخصاً ليس أنا. أصبح مؤقتة.. غير واعية.. منعزلة... أشعر وكأن جسدي ليس له أي قيمة. أقول في نفسي: إنها مرحلة وتمر. ثم تأتي سيارة الوكالة، وأذهب إلى ذلك المكان لأقابل الزبون. أواجه مشكلات مع الموظفين والأثرياء أكثر مما أواجهها مع عمال المسالخ. أما هنا،

فعندما تواجهني مشكلة، أضغط على زر هاتفي ليظهر فوراً سائق الوكالة العملاق على بابي. فيوقف كل شيء في ثوان.

بعد مضي وقت، اكتشفتُ كم أن سالي محبّبة، وذكية، ومتواضعة. بدأتُ أتعلّق بها، وأدركَتْ هي ذلك. ذات ليلة، وهي تعمل مرافقةً للرجال، التقت محامياً شاباً وسيماً. وبعد أن انتهيا من اللقاء، دفع لها أجرها، وعادت إلى الليموزين ترتجف وتبكي. أكدت للسائق أنها على ما يرام، وحين وصلت إلى البيت، اتصلت بي فوراً. كانت خائفة. قالت لي: لا أدري ما أصابني يا فلاي. لقد ارتكبتُ حماقة. جاءني محام وسيم، شاب غني وذكي، فتحدثنا. ثم نمتُ معه دون أن ألجأ إلى أي وسيلة وقاية. لا أدري ما أصابني. ولم أكن يوماً بهذا التهوّر. اتصلتُ بالسائق لأقول له إنني سأبقى وقتاً إضافياً، حتى أنني غطيتُ التكاليف بنفسي. لم أشأ الرحيل. أعتقد أنني مغرمة بهذا الرجل، لكنه رفض أن يعطيني رقم هاتفه. أعتقد أنه متزوج مثل كثيرين غيره، أو ربما هو من النوع الذي يحكم على الآخرين. لا أدري ما أصابني، يا فلاي.

ليلة الخميس التالية، انتظرتُ سالي كالعادة خارج الملهى، لكنها لم تخرج. سألتُ الحراس عنها لأنهم صاروا يعرفونني، فقالوا لي إنها استقالت. اتصلتُ برقمها، فكان خارج الخدمة. ذهبتُ إلى شقتها، وسألتُ عنها في الحي، فقالت لي الحارسة إنها رحلت.

- دفعت لي إيجار آخر شهر ورحلت.

لم أشاهد سالي بعد ذلك. مضت شهور وأنا أبحثُ عنها في كل مكان. حتى أنني قصدتُ بلدة المسالخ، ووجدتُ النزل في نهاية المطاف. رشوتُ عامل الاستقبال، وكان تركياً ضخماً غير حليق. رشوتُه لأنه تركي ولأنني أعرف تاريخ السلطنة وأبنائها. فالسلطنة العثمانية كانت معروفة بنظامها القائم على الرشوة. قرأتُ ذلك في كتاب ألّفه رحّالة بريطاني، ولا أزال أحتفظ به في مكتبتي، لمزيد من الدقة، على الرف الثاني في أسفل الرواق المؤدي إلى الحمام، مع باقي كتب الأدباء المستشرقين. حين سألتُ التركي عن فتيات ماغدالينا، قال لي إن حفلاتهن انتهت منذ زمن بعيد، وإن الفتيات لم يعدن يستأجرن غرفاً هنا، وأن العمال توقفوا عن المجيء، باستثناء عربي واحد، طويل القامة. كان يحضر في نهاية كل شهر، يستأجر غرفة لليلةٍ واحدة، ويجلس على حافّة النافذة ليدخّن.

السيدة الملتحية

حين استيقظت أمي في ذلك اليوم الذي رحل فيه أبي، لم ترَ الجمل بسرجه، فسقطت على الأرض تشدّ شعرها وتصرخ. حام حولها الكلب والبعام والحصان. وراحت كلها تمسح لها دموعها، وتُربّت على ذراعها، وتلعق وجهها في محاولة لإعادتها إلى وعيها. حملها الرجل القوي إلى سريرها. ورأيتُ السيدة الملتحية تداعب وجهها، وتغطي جبينها بمناشف مبلّلة. ضعفت أمي إلى درجة اضطرتني إلى

تناول وجباتي، وأخذ قيلولتي، والقيام بفروضي المدرسية في خيمة السيدة الملتحية. وحين كنتُ أسألها عن أمي ليلاً، قبل أن أخلد إلى النوم، كانت «السيّدة» كما تسمي نفسها على المسرح، تقول لي: أمك الآن في عالمٍ موازٍ. أنهِ طعامك لأخبرك قصة.

كانت تقرأ لي القصص الكلاسيكية الفرنسية. فبكينا على كوزيت في البؤساء، ثم ضحكنا على المريض بالوهم عند موليير، وقصصنا خرافات لافونتين على القرد.

ذات مرة رأيتُ السيدة الملتحية تستحم. فسألتُها لمَ لها قضيب مثلي وثديان مثل أمي. اقتربت مني وقالت: لأنني مثلكما أنتما الاثنين. لديك الرجال وهم رجال. ولديك النساء وهن نساء. ولديك أيضاً من هم الاثنان معاً، ولكنهم في الواقع لا هؤلاء ولا هؤلاء. ذات يوم، عندما تكبر، سيقول لك العالم بأن لا وجود إلا لهذا أو لذاك. وعندما ترحل من هنا لتعيش وسط أولئك الذين يصفقون لي ولأمك ويهتفون لنا على المسرح، ستلاحظ أننا مختلفون، وستعرف كم حظيت بطفولةٍ ساحرة. هنا داخل السيرك، وفي الكرنفالات، الكل يحب الكل رغم اختلاف الواحد عن الآخر وغرابة أطواره. لذلك يبتعد الناس عنّا، لأننا نفتنهم بالحيل، ونداعبهم بالريش، ونجذب انتباههم بالعجائب والأمل. هم لا يعرفون أننا نقرأ الكتب، وأننا نحب الجميع، ونتقبّل كل شيء. لا يعرفون أن أجسامنا حرة، وأننا نسافر، ونقاوم، ونناضل، ونقدم ملجأً للمحكوم عليهم والثوار،

وأننا ذات يوم أنقذنا الغجر واليهود. لا يعرفون أننا نفك الحبال، وندرّب الخيول بعيداً عن ثقل الدروع والسيوف. ولا يعرفون أننا نحفظ سر الرجل القوي المغرم برجل المدفع، وسر كونهما يحضّران العشاء أحدهما للآخر ، ويتشاركان السرير نفسه. في كل مرة يكون رجل المدفع عالياً في الهواء الطلق، والدخان يتعقّب رجليه، ينتظره الرجل القوي في الجهة الثانية ليسنده إذا وقع. ثم، يا ولدي الصغير، لا تقل لإنسان إننا عرّافون وغير مؤمنين، وإننا نعرف تماماً أنه بعد مشهد الحياة العظيم هذا لن يبقى شيء سوى غبار تحت ساق الفيَلة، وصدى تصفيق القرود. وعندما يأتونك بأخبار الأنبياء، ويعدونك بجنات العسل واللبن، لا تنسَ أبداً أننا مجرد ورود ستحظى ببريقها الأخير قبل أن تموت بشرف، ممتنةً على كل العجائب التي شهدتها، وعلى صندوق السحر الذي أنشأته، وعلى الحيوانات التي أحبتها، وعلى السجادات التي طارت فوقها، وعلى النجوم التي قابلتها بعد كل عرض، وعلى المشاهدين الذين تركتهم لمآسيهم بانتظار مجيء أشباحهم في قُطُر عابرة لتأخذهم إلى جناتهم الخيالية...

في ساعة متأخرة من إحدى الليالي، انتحبت أمي وصرخت، وركضت بين الخيم. حاولت أن تفتح أقفال القفص الكبير لترمي بنفسها للأسود. لكن المروّض وصل في اللحظة الأخيرة لينقذها، ويغطي جسدها العاري. بقيتُ مجدداً عند السيدة الملتحية. كنتُ أحبها، وأقبّل لحيتها كل صباح قبل أن تقدّم لي الخبز والزبدة والحليب.

ذات يوم، استعادت أمي قوتها، فصعدت مجدداً إلى الحبال، لكنها شنقت نفسها. اكتُشف أمرها بنباح الكلاب، وإيماء البعام إلى الفضاء، وبالفيل الذي راح يدور ويدور في حلقات حول الخيمة، مصدراً صرخات مدوّية تعلن النهاية.

أعرف أن أمي دُفنت في مكانٍ ما بين نهر الدانوب وكعب شبه الجزيرة الإيطالية. ما زلتُ أذكر أنني أمسكتُ ذلك اليوم بيد السيدة الملتحية، ومشيتُ وراء فرقة من الغجر، وراء فِيَلة وأحصنة تلف حوافرها الراقصة بريش ملون. حمل تابوتها المهرّجون، والرجل القوي، ورجل المدفع، وحصانها الأبيض المفضّل. ومشينا كلنا بصمت، ثم عُزفت الموسيقا، ولما علا صوتها بدأنا نرقص بمظلات في أيدينا.

ينعم الجوّالون، وناصبو الخيم، ورعاة القطيع، بحق الموت في أي مكان يختارونه بأنفسهم. هكذا قالت السيدة الملتحية في تأبينها. فالكرة الأرضية هي موطنهم، وجميع الأمكنة صالحة لتكون مدافن لهم.

فوق قبرها المفتوح، وقفتُ ويدي اليسرى محشورة في قبضة يد السيدة الملتحية. أما اليمنى فكانت تقبض على حفنة من التراب، رميتُها فوق جثمان أمي عندما بدأ الغجر يعزفون.

في اليوم التالي، أوقف السيرك عروضه، ورحلنا جميعاً عن ذلك المكان. ونحن نمضي في سبيلنا، أوقفنا حرس الحدود بعد أن

قطعوا أمامنا الطريق، وضلّلوا مسارنا. حاول الحراس أن يسرقوا منا الأحصنة، فقام المهرّج بصرف انتباههم، وأخفى الساحر الحيوانات. بمرور الوقت، بدأ الطعام ينفد، وبدأت عظام الحيوانات تبرز. جعنا وتذمّرنا ونفد مالنا. التقينا أخيراً، وجمع مالك السيرك بعض العيدان، ورماها في قعر قبعة الساحر الطويلة. سحب كل منا واحداً، ثم وضعوا في يدي مسدساً وخمس رصاصات. فمشيتُ إلى الإسطبل، وأطلقتُ النار على أكبر حصان.

بعد مرور ستة أيام على تناول لحم الحصان فوق نيران واهنة، عاد ممثل الإيماء ليرسم وجوهاً حزينة. فجمعنا الرجل القوي وقال: علينا أن نفترق. ليرحل كل واحد منا في طريقه. سنرسل الأحصنة إلى إيرلندا ونطلق سراحها هناك، ونرسل الكلاب إلى إسبانيا، والفِيَلة والبعام إلى أفريقيا. أما أنتم فاذهبوا إلى أي مكان تجدونه مناسباً. لقد جُنّ جنون العالم، وقُدّر لنا أن نفترق.

وضّبت السيدة الملتحية حقائبنا وقالت لي: سأراسل قريبي البعيد في القارة الأميركية، فهو يعيش في مدينة مشهورة بالكرنفالات.

القبّعة

بعد أن بكينا وغنينا ورقصنا وتودّعنا، ألبستني السيدة الملتحية ملابس جديدة، وزادتني قبعة وحذاءً جديدين. ثم صعدنا إلى مركب كان سيبحر من مارساي عبر المتوسط إلى الأتلانتيك.

على سطح المركب، التقينا بساحر يقوم بحيل مألوفة. وقفتُ والسيدة الملتحية أمامه، وابتسمنا له وهو يقوم بألعاب كثيرة منها: الصولجان العائم، بروتوكول الأربطة، مصباح ديوجينس، إطار ورق الشدّة. حين أنهى العرض، ذهبنا إليه، وسألناه إن كان بإمكانه أن يقوم أمامنا وحدنا بحيلة ورقة النقود الساحرة، أو إكليل الورود داخل القبعة، أو الجرس السحري، أو الفراشة.

ضحك الساحر، وقدّم نفسه بأنه السيد و. فرينكيل. وحين سألَته السيدة الملتحية عن اسمه الحقيقي، وعرضت عليه أن تطعم الطيور المختبئة تحت قبعته، قال لنا: يمكنكما مناداتي ببيبس، وشبكنا أيدينا معاً. ولمّا كنتُ مدرَّباً حق التدريب على فن الخداع والأكمام، اقترحتُ أن أعاونه في عرضه التالي. رفعتُ قبعته الطويلة لأجمع فيها المال، بينما كان المنديل يتحول طيراً، والعصا وردةً، والأفق شمساً، والقبعة نفسها عالماً. في المساء، حين كنا نتنزّه على سطح السفينة، قال بيبس للسيدة الملتحية: لقد جلتُ العالم، لكنني لم أجد ألطف من الأقزام، وأولئك الذين لا يتكيّفون بسهولة مع المجتمع.

طوال الرحلة، كنتُ أستيقظ من النوم ليلاً لأجد السرير الذي أتشاركه مع السيدة الملتحية فارغاً. فكان ذلك يشعرني بالسعادة، لأنني أعرف أن بيبس سيهتم جيداً بـ «السيدة». سيفرح بأن يستقبلها في فراشه، والمركب يترجّح فوق الموج، والبحر يرش المياه، ويزرع

الأسماك وغيرها من الكائنات على سطح تلك السفينة ونوافذها الدائرية الصغيرة.

قرر بيبس أن يتابع الرحلة معنا. وحين وصلنا إلى مدينة الكرنفال، تشاركنا ثلاثتنا غرفاً صغيرة لها حمام مشترك. وجد بيبس عملاً مؤقتاً في حفلة عيد ميلاد، وفي مطعم حيث قدّم عروضاً لبضع ليال. لكن الفقر سرعان ما أصابنا، فبان الجوع تحت ملابسنا وقبعاتنا، واستوطن فراشنا، وافترش سِماطنا. فراح كل واحد منّا يبحث عن عمل.

وضعتُ عمامة على رأسي، وارتديتُ ثوباً طويلاً وصل إلى أسفل قدمَيّ. ثم وقفتُ عند إحدى الزوايا في حين راح بيبس يصيح: هذا هو الصبي العرّاف، سيداتي، سادتي! سيعرف عمركم ووزنكم، وما تبقّى لكم من العمر...

لم تتمكّن السيدة الملتحية من إيجاد عمل، فالناس هنا يفضّلون كل ما هو واضح. الرجال عندهم رجال، والنساء نساء. أما أولئك الذين هم ما بين الاثنين، فيرمونهم للنسور والتماسيح. بالكاد استطعنا أن نبقى أحياء. وذات يوم أمسكني بيبس وقال: اسمع أيها الصغير، أعرف حيلة غير حيلة الأكمام، وعليك مساعدتي ولكن من دون علم «السيدة». وأراني كتاباً عن «استحضار الأرواح» كما سماه. وقلّبه متباهياً أمام عينَي. تمكّنتُ من قراءة العنوان *The Book of Mediums and The Secret World of Beyond and After* (كتاب محضّري الأرواح، وسر العالم الآخر وما بعد الحياة). وحين حاولتُ الإمساك به، ردّه بيبس إلى الوراء وقال: ستقرأه ذات يوم.

استأجر بيبس غرفة، بالمال القليل الذي جمعناه في الشارع، وادّعى أنه محضّر للأرواح. فأكلنا وشربنا على حساب سيدات عجائز فقدن أزواجهن، وأمهات أردن التحدث مع أولادهن المفقودين في أدغال الوغى أو في أعماق السفن الغارقة أسفل البحار. استدعينا العشاق الضائعين، والزوجات، والكلاب، والأبناء، والبنات، من الآخرة. وحين كان الزبائن الجدد يتّصلون لأخذ موعد، كان بيبس يعطي نفسه أهمية، ويُقنعهم بأن الأمر جدّي، فيسألهم عن انتماءاتهم وأسمائهم، وسنوات مولدهم، ويجيبهم بأنه سيعاود الاتصال بهم لاحقاً. وكنتُ أذهب إلى المكتبة العامة لأبحث عن عناوين سابقة ووظائف، وعن حيوات. وبعد الظهر، كنا نذهب، أنا وبيبس، لنتنزّه في الأماكن حيث أمضى المتصلون بنا طفولتهم. كنا نراقب الأشجار، ونشاهد الصغار يلعبون، ونحفظ ألوان أطر النوافذ، والسفوح، والأعمدة الكهربائية المجاورة. زرنا البارات المحلية والمقاهي المجاورة، وأجرينا محادثات. وكم كان سهلاً علينا استحضار الموتى، فآثارهم منتشرة في كل مكان، وحيواتهم السابقة تمتد لتشمل محلات السكاكر، والمقاعد، ونوافير المياه، والشوارع القذرة، والقبور المغبّرة. «الأموات، نحن من أماتهم». قال بيبس.

خفّفنا الضوء في الغرفة المستأجرة، وعلّقنا ستائر مخملية، وثبّتنا مواضع الطاولات الراقصة والكراسي المتحركة، بحذاقة. اشترينا جمجمة رخيصة، ومرّرنا داخلها خيوطاً رفيعة. وتركتُ روحي الشريرة

تختبئ وراء خزانة الملابس لأشد الخيوط وأجعل الجمجمة تتحدث وترتجف. صنعنا صندوقاً خشبياً، ووضعنا داخله جرساً. ثم وضعنا الصندوق تحت الطاولة. وحين نركل الصندوق أو نلكزه، يدق الجرس. وحين تكون الروح على وشك الإجابة، يمسك بيبس بذراع الزبون، ويطلب من الموجودين الابتعاد عن الطاولة، وإمساك بعضهم أيادي بعض، وإغلاق العيون، والدفع بالأجسام إلى الأمام. حينذاك يمكنه هز الطاولة قليلاً برأسه لتتحرك وتَصرّ، فتضرب بالصندوق.

فيما بعد زيّتنا باب خزانة الملابس كي لا تحدث أصواتاً مسموعةً عند فتحها وإغلاقها. وقبل أن يدخل الزبون إلى الغرفة، كنتُ أنزلق إلى داخل الخزانة وبيدي مغلفات مختومة. وخلال الجلسة، يطلب بيبس من الزبون، ولنفترض أنها امرأة، أن تكتب سؤالاً تريد طرحه على الميت، ثم تضعه في مغلفٍ وتختمه. فيأخذه بيبس، ويطلب منها أن تغلق عينيها وتركّز. ومن داخل الخزانة، كنتُ أستبدل المغلف الذي يعطيني بيبس بواحد من مغلفاتي. ثم يطلب بيبس من السيدة أن تفتح عينيها، وتقرأ الإجابة التي أعطتها الروح. والأجوبة التي كنا ندوّنها دائماً مبهمة، وترتكز على مكانٍ زرناه أنا وبيبس في اليوم السابق. يا لنا من آدميين جهنميين!

وعقد بيبس اتفاقاً مع حفار للقبور. وعده بأن يرسل إليه، بين الحين والآخر، زبوناً يطلب استبدال حجر ضريح بواحد أكثر فخامة، على أن يأخذ عمولةً في كل مرة. أما مضمون المغلفات فكان يأتي

على نحو: «الحجر الأبيض»، أو «بدّلوا الحجر الأبيض»، أو «بدّلوا النافورة»، أو «أنا سعيد هنا». وكنتُ أحاول، وأنا داخل الخزانة، ألا أتنفس بعمق، أو أعطس، أو أضحك أو حتى أشعر بالحزن.

ازدهرت الأعمال فترة طويلة، فصرنا نأكل ونشبع. وراح بيبس يتجوّل ببذلةٍ جديدة، واشترى للسيدة الملتحية أزهاراً من المتجر. ذات يوم، احتجزتني السيدة الملتحية في الزاوية. قيّدتني بحبل، وهددتني بعصا، فاعترفتُ لها بأن المال كان يأتي من أمنيات سيدات عجائز، ومن يأس يتامى، وبأننا كنا نجمعه من ذرف دموع الأمهات، وننتزعه من وحدة أزواج لم يعد لديهم أحد يتحدّثون إليه. بكت السيدة الملتحية، وقالت لي إن رجال الدين والمشعوذين وحدهم يعدون براحة الموتى الأبدية. وأضافت أننا قد نكون مهرّجين، وأصحاب حيل نمشي على الحبال، وممثلين هزليين، لكننا لم نكن يوماً من النوع الذي يغش أولئك المؤمنين اليائسين بالكذب والخداع. ثم أمسكت يدي وقالت: أفضلهم ينهار حين يُصاب باليأس، فيقضي ما تبقى له من أيام، وهو ينفق ثروته على حصصٍ كهذه، وغرفٍ مظلمة، آملاً أن تتحرك الطاولة، وأن ينطق الزجاج. اسمع يا بني، كل ما يُسمح لنا ببيعه هو العجائب والغرائب التي نراها، والأفعال التي نشهدها، والألعاب التي نؤديها. والآن أغلق الستائر واذهب إلى غرفتك قبل أن يُفتح الباب ويختلط الحابل بالنابل.

عاد بيبس تلك الليلة في ساعة متأخرة ، فأمسكته السيدة الملتحية

من جمجمته وسحقتها سحقاً. نعتته بالخنزير، وجمعت أغراضه ورمته في الشارع.

الجوع

خرج تاجر المخدرات من ملهى العراة، وصعد إلى مقعد سيارتي الخلفي، ثم قال: حسناً، انتهينا الليلة، فلنعد إلى البيت. خذني إلى الجسر التالي، ذلك الجسر الأزرق. سأدلك أين تتوقف عندما نصل.

وفجأة صار ودوداً وثرثاراً، فرحتُ أفكر إذا كان قد شرب كأساً أو اثنتين في حضن راقصة أو اثنتين. سألني من خلف نظارة مظلّلة على الموضة:

- قل لي يا فلاي، من أين أنت؟

- من كل مكان.

- من كل مكان... من الصين وتومبوكتو؟ بعيداً عن المزاح، من أين أنت؟

- نشأتُ بين الحيوانات.

- إذاً أنت واحد من أولئك المزارعين. نحن أيضاً نقوم بأعمال مماثلة. جدي كان مزارعاً، لكن جيله كان من النوع الذي يخاف الله. هو من أولئك المزارعين الذين يذهبون باستمرار إلى الكنيسة. لم يبقَ واحد منهم. تراهم اليوم يضعون شاشات التلفزيون على أسطح

مزارعهم، ويشاركون بجلسات عربدة في زرائبهم. الزمن متحوّل، يا رجل، زمن يتغيّر باستمرار. إذا أخفقت أموري هنا، فهناك دائماً المزرعة والأبقار... وبالحديث عنها، هل تمانع القيادة إلى خارج المدينة؟

- أذهب إلى أي مكان يأتي منه قوت ومال.

- تعجبني يا رجل. هذا ما أحب فيك يا فلاي. قل لي: هل أنت لوطي؟

- كلا.

- لا أقصد الإهانة، أسألك هذا لأنك في المرة الماضية قلتَ إن لا صديقة لديك. لم أفهم إذا كنت تعني بأن لديك صديقاً أو أنك تعيش حياة زاهدة، أو حياة من الحرمان، أو تفضل ممارسة العادة السرية. أنت تعرف أن كل هذه الأمور يمكن أن تكون شائكة.

- لا، قصدتُ لا صديقة.

- لكنك تضاجع. أليس كذلك؟ لا تقل لي إنك تضاجع الحيوانات، آمل أنك لست منهم. هل تفضّل النزوات، السلاسل، التغوّط، بنات الهوى الراقيات، الفروج البيضاء، الفروج الوردية، الفروج الصينية، الفروج السوداء؟ باستطاعتي أن أتدبّرها لك. أشِرْ بإصبعك فقط وستكون عندك.

- أقدّر لك ذلك. لكنك تعرف ما يحصل حين تختلط الأعمال بالملذات.

- قد يكون الأمر ممتعاً. انظر إليّ، فامرأتي هي المحاسبة والمديرة ومستشارة الأزياء، وهي عاهرتي أيضاً. أتفهم ما أقصد؟ لم نتعارف بما فيه الكفاية. أنت فلاي، أعلم ذلك. ويمكنك أن تناديني زي. زي مثل «زي وان» أو الواحد، زي، فقط زي، (قالها وضحك)... شكراً لأنك سألتني عن اسمي، يا فلاي. الآن وقد أصبحنا صديقين، أقول إن ذلك كان مهذباً من جانبك، كان مهذباً جداً، يا فلاي.

نظرتُ في المرآة وابتسمتُ له، فابتسم لي بدوره.

- هل تتعاطى، يا فلاي؟

- لا أتعاطى أثناء عملي.

- سأترك لك شيئاً الليلة. أتفهم؟ إنه شيء رائع لأنفك الطويل. والآن انعطف إلى اليسار، أوشكنا على الوصول..

وقبل أن ينزل من سيارتي، ناولني كبسولةً في داخلها قليل من الكوكايين. فعدتُ فوراً إلى البيت خوفاً من أن تتأجّج عواطف مفتشة التاكسي وتبحث عني. قرعتُ باب السيدة الرومانية، ففتحت لي وقالت:

- نعم؟

- لديّ غرض أعتقد أنه يهم الدكتور.

- ما هو؟

- منتجات صيدلانية.

- هل ستبيع الطبيب منتجات صيدلانية؟

- نعم. لاحظتُ أن لديه عادة في تمرير ظهر يده تحت أنفه، وصودف أنه لدي دواء لهذه الحالة.

- أي حالة؟

- فهمتِ عليّ، حكاك الأنف، فيروس العيون، حالة التنشق المتكرّر. لاحظتُ ذلك عندما كان يعطيني درساً في منافع الاستهلاك الجيد. استهلاك الطعام، طبعاً.

- حسناً، كفاك مزاحاً، ماذا لديك؟

- بودرة بيضاء ناصعة كالثلج.

- مقابل؟

- كوب قهوة. وأضفت: في الداخل.

أدخلَتني، وناولتُها الكبسولة.

مشت مباشرةً باتجاه طاولة موضوعة في وسط الغرفة. وجلس كلّ منا على حافة السرير، وقامت بتوزيع الكوكايين على الطاولة وتقسيمه خيوطاً عديدة.

- هل تحمل ورقة نقود؟

مددتُ لها واحدة، فلفّتها وانحنت مباشرةً فوقها. مسحت البودرة بأنفها وقالت:

- ماذا تريد مقابل هذا؟

- لدي صديق حميم هو بمنزلة أخٍ لي. أريد أن أدبر له موعداً مع الطبيب. وأريد أن أتحدث معك، إذا كان لديك الوقت.

حملت الكبسولة، ووضعتها داخل دُرج، وقالت: سأترك الباقي للطبيب. والآن عمّ تريد أن تتحدث؟

- عن التاريخ.

- لا أعرف شيئاً عن التاريخ.

- تاريخك أنتِ.

- ماذا عني؟ هل أنا مَعْلَمٌ؟ هل تعتقد أنني عجوز إلى هذا الحد لتسأل عن تاريخي؟

- أقصد حياتكِ. حياتكِ أنتِ.

- حياتي؟ لماذا؟ لماذا تسألني عن حياتي إذا كان بإمكانك الحصول على أي شيء آخر؟

- لا يمكنني.

- أتقصد أنك لا تستطيع القيام به؟

- حسناً لا، بلى أستطيع، لكنني أفضل أن أكون وحدي.

- إذاً ماذا تريد أن تعرف؟

- أخبرني عن بيتك.

- أنت الآن في بيتي. انظر إلى تلك الخربة الصغيرة. لديك منزل بحجم بيتي نفسه.

- ما كان يشبه بيتك في صغرك.

- آه، ذلك البيت. لا أعرف. لا شيء بالتحديد. أنت تعرف كيف كان الأمر في المناطق الشيوعية.

- أين كان؟

- لمَ؟ إذا قلتُ لك اسم المكان ستعرفه؟

- حسناً، ربما. فقد نشأتُ في سيرك جوّال، وحططتُ معه في أراضٍ كثيرة.

- يا للسخرية! فالمكان الذي نشأتُ فيه سيرك أيضاً.

- آه، عرفتُ منذ البداية أن هناك شيئاً مشتركاً بيننا! وما كان لون خيمكم؟

- لم أقصد هذا النوع من السيرك. بالأحرى، كانوا يسمونه سيرك المجاعة.

- فعلاً. لقد سمعتُ عنه من الساحر الروماني الذي كان يقوم بدور دراكولا بين الحين والآخر.

- دراكولا كان من ترانسيلفانيا. أما أنا فمن بوخارست. ماذا سمعتَ عنها؟

- سمعتُ أن طاغيةً بنى هناك مجمعاً واسعاً، وقصراً كبيراً. وهو الأمر الذي أودى بشعبه إلى المجاعة.

- بالضبط. والآن ماذا تريد؟

- أريد أن أتأكد من أن الطبيب سيحصل على حصته من الهدية، ومن أنك سعيدة.

- بمَ يهمك أن أكون سعيدة؟

- هل يدفع لك؟

- يدفع لي مقابل أي شيء؟

- هل يدفع لك تكاليف الطعام والإيجار؟

- اخرج من هنا، أيها المجنون. اخرج قبل أن أتصل بالشرطة. رجل مجنون. مجنون!

صرختْ، ودفعَتني خارج شقتها، ثم أغلقت الباب بعنفٍ في وجهي.

فرحلتُ مطروداً، مهاناً وجائعاً.

دخلتُ شقتي وحشرتُ نفسي في قسم التاريخ عند مدخل المطبخ. حضّرتُ لنفسي شطيرةً صغيرةً من جبن الماعز وزيت الزيتون. ثم انتقلتُ إلى السجادة الطائرة على الأرض. بدت لي ترانسيلفانيا غارقة في الدماء والوباء، ومليئة بالأنياب في ذلك الوقت. إلى جانب أننا كنا في النهار، ومصاصو الدماء يغطون في سبات عميق. رحتُ أبحث عن أفضل واقعة تاريخية يستحسن أن أستذكرها من بين كل تلك القذارة، وذلك العنف الذي تسببنا به، نحن القرود الناطقة، منذ ظهورنا على الأغصان وترحيلنا من جنة الموز. أي حصة عن الرغبة الجنسية الجامحة، عن الرعب والدم، علَيّ أن اختار لأعالجها اليوم؟ أي سهل، أو جبل، أو نهر، علَيّ أن أختار ميداناً لمعركتي؟ أي تاريخ علَيّ أن أستعيده وأطهّره لأعزّز نمو البكتيريا داخل ذلك القرد الراقص اللطيف؟ حين كنت متمدّداً على الأرض، مرت بذهني صورة أنهر الطين الأحمر التي تجري بين شجرات الأرز. فأعادتني إلى الشرق القديم، حيث تولد مقابل كل عذراء تركت معبد بعل بعد أن قدمت للآلهة شفتيها وثدييها ومجموعة من الثقوب، آلاف العذراوات الأخريات ليعبرن أرض كنعان ويأخذن مكانها. وأنا، أدونيس الوسيم، نصف العاري، ممدّد على سجادته. أنا لستُ إغريقياً كما أخطأ الأوروبيون في تعريفي. والخنزير البري المتوحش الذي قتلني، لم يكن له أرض سوى تلك المتخمة ببوله على جذوع

الأشجار والصخور. لم يكن الإغريق يوماً أوروبيين، لأنهم لم يأبهوا قط لغانتر وقبيلته الشاحبة البشرة. لطالما تطلّع الإغريق إلى الشرق، وتقدموا باتجاهه بين أشجار الزيتون التي زرعها الآشوريون، نزولاً إلى المثلثات المصرية، باتجاه الفرس المتفاخرين، وأعدائهم الماكرين. كنتُ هناك، متوهماً نفسي جالساً على سجادة، تحت كرم من العنب، أشرب النبيذ، وأنتظر باخوس إله الخمر الإغريقي، ليرافقني في رحلتي الطويلة إلى المعبد. أنا أدونيس. مشيتُ على هذه الأراضي المسالمة، قبل مجيء المغول والعرب والعبرانيين والإغريق، وقبل تيللي سافالاس، الممثل الأصلع، نفسه. معابدنا كانت تعج ببناتنا المطيعات، اللواتي كنّ ينتظرن ليفقدن عذريتهن على يد غريب، تلك كانت عاداتنا، وبعد ذلك يسمح لهن بالزواج وبتأسيس عائلة. وأشدّد على أن تلك الأحكام كانت أحكام الكنعانيين. حتى أن بعض الأهالي كانوا يرشون الغرباء والكهنة لأن غريباً واحداً لم يلمس بناتهم. الذبح عادةً يقتضي سيلان دم، لكن الذبح عندنا كان يتم بين أفخاذ النساء. فهناك يبدأ كل شيء، وهناك يولد كل شيء. دم عذراء، هذا ما لوّن فخذَيّ ولوّن النهر تحت قدمَيّ.

بعد أن تركتُ المعبد، مشيتُ باتجاه الوادي البعيد، صوب جبل قاديشا التابع لسلسلة الجبال اللبنانية. عندئذ شم خنزير بري متوحش رائحة الدم الذي يلطخ فخذَيّ، فكشّر عن أنيابه. نزفتُ، ورأيتُ النهر يحمرّ على طوله عبر الوادي، نزولاً إلى البحر الأبيض

المتوسط. عندئذ تفتحت الأزهار في كل الأرجاء، ونبتت أشجار الأرز مثل أعضاء ذكرية لم تُختن، وتدفقت المياه مثل ينابيع بين النيل والفرات. بدا كل شيء وكأنه ينتشر ويبلغ ذروته على وقع أنين أشخاص، كانت قضبانهم الذكرية منتصبة، غطوا الأرض بسائلهم المنوي الأبيض، الذي اعتُبر لاحقاً ثلجاً مقدّساً.

ماري (مجدداً)

اغتسلتُ واتصلتُ بماري، فشعرت بها مشوشةً على الهاتف. تحدَثت عن زوجها، الذي هدّدها إن لم تُعِد إليه القلادة... كانت تبكي. اتهمتني بالسرقة والخيانة، فأكدتُ لها أن القلادة ما زالت معي وأنني سأعيدها إليها في الحال. وطلبتُ منها أن تنتظرني.

ركبتُ طائرتي المنقذة وطرتُ بها إلى شقتها. قالت لي إنها لم تتناول لقمةً واحدةً لأيام. كان شعرها قذراً وملبّداً، وكانت هزيلة، تبرز الجيوب من تحت عينيها. أعطيتُها القلادة والدواء، فرمت بالدواء عرض الحائط وقالت: «هذا هراء. لا يفيد. أنا لستُ مجنونة، ورأسي ليس بحاجة إلى أي حبوب». أمسكتُها بين ذراعَيّ، فشعرتُ بوهنها. فتحتُ الثلاجة وأخرجتُ منها وعاء فيه لبن. شممتُه، وتذوّقتُ منه قليلاً، ثم سكبتُه في كأس زجاجية، وقدّمته لها. قالت لي: لا يمكنني الخروج من المنزل. فأنا أخاف من كل تلك المخلوقات بأقنعتها وأزيائها التنكرية. إنها ترعبني. فذكّرتها بأنه موسم الكرنفال.

- لا، إنه الجحيم. كلهم شياطين في الأسفل. أنا أصلي كي يرحلوا بعيداً، أصلي طوال الوقت. العذراء ستساعدني. سأصلي لها.

سألتُها إن كان لديها أحد. ربما صديق يمكنني أن أتصل به، أو أهل، أو أي شخص، فأجابت:

- كلهم رحلوا.. ماتوا.. سأصلي، سأصلي لأن يسوع يحبني.

- لا بد من وجود أحد غير يسوع لأتصل به. فيسوع بالكاد يجيب على مكالماتي، منذ ألفي سنة، على الأقل.

- الأب سمايلي. اتصل بالأب سمايلي.

- ما رقمه؟

- لا أعرف.

- حسناً، أين يمكنني أن أجده؟

- في الكنيسة.

- أي كنيسة؟

- كنيسة السيّدة.

- سأبحث عنها.

كانت الكنيسة مقفلة، فجلتُ في أرجائها، متجهاً نحو البيت الصغير الذي بجانبها، وقرعتُ بابه. أجابتني امرأة عجوز اعتقدتُ

أنها السكرتيرة. أدركتُ ذلك من نظارتها ومكتبها الفوضوي. جعلتني أنتظر قليلاً، ثم دلتني إلى مكتب الكاهن.

- سيدي الكاهن.

- نادني الأب جون.

- سيد جون. أنا هنا من أجل ماري. ليست على ما يرام، وقد أرسلتني لأراك.

- أي ماري؟

فأجبتُه وأنا أومئ إلى الأيقونة المعلقة على الحائط:

- ليست هذه بالتأكيد، ولكن ماري الملائكية بشعرها الأسود.

- ما اسم عائلتها؟

- لا أعرف، ولم أسألها يوماً. لكننا صديقان وهي ليست بخير.

- حسناً، كما قلتُ يا بني، هناك ألف ماري وماري. أنا وحدي أعرف الكثيرات.

- هل أساعدك إذا قلتُ لك إنها ماري القارئة؟ تلك التي تحمل دائماً كتاباً في يدها، وتضع نظارة. هي جميلة. ابتسامتها جميلة، على ما أعتقد.

قال الكاهن، وهو يرفع إصبعه باتجاه السقف:

- أجل، بالطبع. عرفتُ عمّن تتحدث.

- هي ليست بخير.

- سآتي معك. هل جئت بسيارة؟

- جئتُ بتاكسي.

- حسناً. إذاً هيا نسرعْ، لا نريد أن يزيد السائق الأجرة علينا.

حين وصلنا إلى شقة ماري، جلس الكاهن بالقرب منها، وأمسك بيدها، ثم قال:

- كيف حالك يا صغيرتي؟

- أبتِ، اطردهم من هنا. كلهم شياطين. هم في كل مكان، يا أبتِ. كلهم يتحدثون ويتحركون من حولي في الوقت نفسه.. يصرخون...

أخذني الكاهن على انفراد وهمس في أذني: علينا نقلها إلى مصح عقلي. أعرف واحداً يمكننا الوثوق به هناك.

حين طلب الكاهن من ماري مرافقته، رفضت ترك الشقة، وراحت تردد وتقول: هم في الخارج، يا أبتِ.

قلتُ لها: لا تخافي. أمسكي صليب الكاهن واطرديهم على الفور.

عبس الكاهن في وجهي، لكن نصيحتي جاءت في وقتها.

لأن ماري غمرت الكاهن العجوز بيد واحدة وأمسكت صليبه باليد الأخرى، ثم صوّبَته باتجاه باب الجيران، نحو كل زاوية من الدرج وقاعة المدخل. هكذا تمكنا أخيراً من النزول إلى الشارع، ودخول السيارة، والانطلاق إلى المستشفى.

أمام مدخل المستشفى، قام معاون بمساعدة ماري على الخروج من السيارة. وأخذها بعيداً وراء باب زجاجي. تبعهما الكاهن، إلا أنهم لم يسمحوا لي بالدخول. وهكذا رأيتُ ماري تختفي أمام ناظرَيّ.

الدفن

فجر اليوم التالي، ركب معي مهرّج كان يقف في الشارع، أو بالأحرى، اعتقدتُ أنه مهرّج، لأنه كان يمشي متمايلاً وهو يبتسم. كان ثملاً، لكنني لم ألاحظ ذلك. حتى أنا المخمّن، الذي نشأ وسط أمهر المؤدّين والمقلّدين، فشلتُ في رؤية مأساته تحت تنكّره. دخل المهرّج سيارتي وسقط على المقعد الخلفي. فهززته، لكنه خرخر وبكى ثم أُغمي عليه. خفتُ أن يكون قد مات، إلّا أنني سمعتُه يلهث ويشخر من جديد. فرِحتُ لأنه ما زال على قيد الحياة، فخلعتُ سترتي وغطيتُه بها.

قدتُ من دون هدف إلى أن وصلتُ إلى ضفة المدينة. تركتُ المهرّج ينام في السيارة، ورحتُ أمشي باتجاه النهر لأشعل سيجارة.

عندما ماتت السيدة الملتحية، إثر معاناة طويلة من مرض عضال، قبّلتُ لحيتها، وتركتُها في فراشها. ثم خرجتُ أشتري مجرفة. وعدتُ إليها في منتصف الليل. لففتُها بلحافٍ، وحملتُ جثتها الصغيرة على كتفي. وضعتُها فوق المقعد الخلفي للسيارة، وانطلقتُ باتجاه ضواحي المدينة. هناك مررتُ بالمقابر، وكل ما رأيتُه هناك كان صفوفاً من الرخام وإرثاً من البلاط. يقول لك العربي: القطيع ينبطح دائماً مجتمعاً، وحده الجن يمر به في الليل. بقيتُ في سيارتي أنتظر بزوغ الفجر. حفرتُ حفرة في الأرض، وتسلقتُ شجرة قريبة لأترجّح على غصنها مثل قرد. حفرتُ التراب مثل حصان، ورششتُ التراب مثل فيل، وانتحبتُ عليها مثل بوم. رميتُ اللحاف مثل ستارةٍ ساقطة، وكأنني أصفق للمشهد الأخير. أطفأتُ الإشارة على سطح السيارة، وغطيتُ المرآة الخلفية بقطعة قماشٍ صغيرة، ثم قدتُ عائداً إلى المدينة وحيداً.

حين عدتُ إلى السيارة، رأيتُ المهرّج يمشي باتجاه المياه. أنزل بنطلونه في محاولة لمزج سوائل جسمه بتلك التي تتحرك في النهر. انتظرتُ حتى انتهى، ثم صفّرتُ له، فعاد إلى السيارة.

سألتُه: إلى أين تريد الذهاب؟

بالكاد تمتم «ذا دريم إن» قبل أن يفقد وعيه من جديد. فانطلقتُ به إلى فندق دريم إن. أيقظتُه هناك بكل لطف، ورافقتُه إلى قسم الاستقبال، ثم رحلتُ.

رحتُ مباشرة إلى البيت لأتمدّد على سجادتي، فرنّ الهاتف.

«نعم»، قلتُ بمرارة للذي قطع أوهامي المختمرة.

كنتُ على وشك الانضمام إلى الألوية الحمراء في إيطاليا. وكان الوزير الإيطالي في مؤخرة الشاحنة، مكتّفاً تماماً وعلى وشك الموت. وفجأة أوقفَت السائقة الشاحنة بمحاذاتي لتُعطيني رقماً. خرجتُ من الباب الأمامي، ودخلتُ كشك هاتف عمومي، وأنا أتخيّل صوت صفّارة البوليس تقترب مني. فأدركتُ حينها أن هاتف المنزل هو الذي يرن.

أجبتُ وأنا أشبك حزامي.

- مرحباً، معك الآنسة (لم أحفظ اسمها) من الأبرشية. أنا أحدثك باسم الأب سمايلي من كنيسة السيدة.

- هل ماري بخير؟

- نعم، أعتقد ذلك. لكن الكاهن يريد محادثتك.

- صِليني به لأكلمه.

- حسناً، هو الآن في المستشفى.

- مع ماري؟

- لا، أعتقد أن ماري تركت المستشفى.

- إلى أين؟

تجاهلت سؤالي قائلة:

- أعتقد أن الكاهن يريد محادثتك عن أمورٍ أخرى.

- حسناً، قلتُ. في أي مستشفى.

- مستشفى السيدة.

- تقولين مستشفى السيدة، وليس كنيسة السيدة. هل هذا صحيح؟

- أجل.

- وهل علَيّ أن أقابله في مطعم السيدة داخل مستشفى السيدة؟

- لا، يمكنك التوجه فوراً إلى الغرفة.

- وما رقم الغرفة؟

- غرفة ١٠٧.

- حسناً.

- شكراً، فليحمِك الرب.

أقفلتُ السماعة، وعدتُ إلى الشاحنة لأناقش الأمر مع فتاة الألوية الحمراء. قلتُ لها: الخطة ب.

فأومأت برأسها، ونظرت إلَيّ نظرةً مغريةً بطريقتها الجازمة.

قلتُ: سأدلّك على طريق مستشفى السيدة. هكذا يمكننا إيصال الوزير إلى هناك.

- والفدية؟

- سأتحقّق إذا كانت الكنيسة ستدفعها. فأهل الفاتيكان جدٌّ ميسورين.

ركبتُ سيارتي وطرتُ تحت الغيوم. وعندما تراءى لي المستشفى، ركنتُ السيارة، واندفعتُ مثل انتحاري باتجاه القدَر. دخلتُ غير مكترث، وصعدتُ الدرج، وولجت الغرفة.

تعرفتُ إلى الكاهن بصعوبة. بدا لي وكأنه اختُطِف من قِبَل كائنات فضائية، مكتّفاً بالأشرطة البلاستيكية. وبدا لي ضعيفاً وعجوزاً أكثر من آخر مرة التقينا فيها. رأيتُ خلفه غابةً من الأزهار المبرعمة، وصفّاً من البطاقات بصور رؤوس منحنية، تحمل له كل التمنيات بالشفاء العاجل، ومجموعةً من أيقونات العذراء، والصلبان، والبيوت الصغيرة. مشيتُ مباشرةً إلى النافذة لأتفقّد سيارتي. كنتُ قد ركنتُها في مكان مخصّص للأطباء اعتراضاً على التحيّز والتميّز. حتى ذلك الحين، كانت السيارة لا تزال في مكانها. مددتُ عنقي أكثر عبر النافذة، فلم أرَ أي رافعة مقبلة باتجاهها. لا شيء ينذر بالخطر، ما عدا صفّارة إنذار لسيارة إسعاف تتجه نحو مدخل الطوارئ. في الجزء الخلفي من الغرفة، وقفت راهبتان، لم ألاحظ وجودهما في البدء، ولم أشم رائحتهما. سألتُهما:

- متى تعتقدان أنه سيستعيد وعيه؟

أجابتا مثل جوقة متزامنة:

- لا ندري.

- هل هو غافٍ؟

- نعم، هو كذلك.

- هل أعود لاحقاً؟

- إذا أردتَ.

- حسناً سأنزل لأدخن سيجارة، وأعود بعد ساعة. بالمناسبة، هل رأيتما ماري؟

- الأخت ماري؟

- لا تلك ماري القوقازية. أقصد القارئة ماري، تلك التي تقرأ طوال الوقت. تحمل دائماً كتاباً في يدها.

تبادلت الراهبتان النظرات وقالتا سوياً: من الأفضل أن تتحدث مع الكاهن.

نزلتُ إلى الكافتيريا لأشتري القهوة، ورحتُ أتفقّد الكتب المعروضة على الرفوف الرفيعة في متجر الهدايا. لم أجد ما يعجبني. كلها تفاهات تشل تفكيرك بمآسي الدنيا.

خرجتُ من المبنى، وانضممتُ إلى مجموعة المدخنين المرتعشين المنفيين. المستشفيات، برأيي، كرنفالات من الموت،

حفلات تنكرية أبطالها عيونٌ منهَكة من التحديق إلى جدران بيضاء مطهّرة، وفوضى خافتة. كرنفالات من أمهات محدودبات يطاردن ممرضات، وأطباء متنكّرين في مآزر يومئون بصولجاناتهم إلى ممرضات يتنقّلن بأزياء ملائكية وأحذية وقع كعوبها شبه مكتوم، يلوّحن بضمادات تعتقدها لفائف من البيْض. المستشفيات ملاجئ، وسيارات إسعاف طائرة، وأجراس وأسرّة تستدعي أرواح الأطباء، وليف حمّام فوق الكتان الأبيض، وخدم يثبّتون مسّاحات الأرجل فوق أرضيات غير ثابتة، وتنهّدات مسائية تعلو مع مغيب الشمس النهائي، وبرّادات مليئة بمكعّبات ثلج تُداوى بها القلوب الميتة.

- سيدي، هل استيقظت؟

- آه، لقد جئت.

- نعم أنا هنا. طلبتَ رؤيتي؟

- أردتُ أن أسألك، يا بني، إذا كنت تفكر في اللّه والحياة والآخرة؟

- نعم، أفكّر بالطبع. أفكر في أن إلهك غير موجود، وأن الموجود هو الموت والحياة.

بدأ الكاهن بالبكاء وقال:

- يا بني، لقد وقع لي شيء غريب له معنى كبير.

أومأتُ إليه.

- متُّ وعشتُ مجدداً.

- مثل يسوع.

- حسناً، نعم ولا. ومن أنا لأقارن نفسي به. حصلت لي أعجوبة الليلة الماضية، بعد أن عانيتُ ذبحةً صدرية، وتوقف قلبي عن الخفقان. دخلتُ نفقاً، فرأيتُ بحيرةً، كما رأيتُ أبي وعمي. شعرتُ هناك بسلام وهدوء، لكن شيئاً ما أعادني إلى هنا. كنت أمشي في النفق بالاتجاه المعاكس، وشعرتُ وكأن أحدهم يجرني إلى الوراء، فالتفتُ إلى الخلف ورأيتُك. كنتَ أنت من أعادني إلى هذه الحياة. كنتَ أنت من رأيتُه في النفق، يا بني.

- حسناً، لا أدري ما أقول. ولكن سامحني لأنني أيقظتك من حلمك.

- لم يكن حلماً، بل حقيقة مطلقة.

- حسناً، ثمة أناس كثُر يمكنهم أن يشهدوا بأنني كنتُ هنا تلك الليلة، على هذا الكوكب. لقد توقفتُ لآكل في مقهى بوليرو، ثم عملتُ باقي الوقت. كنتُ أقود سيارتي لأحافظ على نظام حياتي. أقللتُ كثيراً من الزبائن الذين يشاركون اليوم في الكرنفال، كثيراً من الأرواح الضائعة، يا أبتِ.

- أجل، أصدّقك... ولكن يا بني، هل تؤمن بوجود العالم الآخر؟

- أؤمن بالآخرين.. بالإنسان.. وبعالم لا يكف عن التحوّل والتغيّر. أؤمن بأنني هنا الآن، وبأنني سأرحل ذات يوم تماماً كما ترحل الفراشات التي لا تطلب من الدنيا أكثر من هواء تلمسه بأجنحتها.

قال لي الكاهن، وهو يتنفّس بصخب عبر أنابيبه:

- وأنا أؤمن بأنك أكثر من ذلك. أؤمن بأنك قوة تحكم هذا العالم، وليس العالم الآخر. فأنت من أعادني إلى هنا. أؤمن بأنك نوع من القوة المطلقة، وأشك في أن تكون قوة تائهة، أو حتى شريرة.

- حسناً يا أبتِ، أعتقد أن الشرير الوحيد هنا هو أنت، ومؤمنوك الموهومون الكثر، الذين يجعلون المرأة تتألم، ويطلبون من الأفارقة الامتناع عن ممارسة الجنس بدلاً من حماية أنفسهم. أؤمن بأنك كاره للذين لا يتكيّفون مع المجتمع، وأنك قامع لضحكات المهرّجين، وقاطعٌ لحبال متسلّقي الجبال وسلسلة الجوّالين الرّحل، وعصبة لعيون العارفين. أنت كاره الإنسان، ومحب نفسك، ومحب القوة المطلقة، ومؤيد الطغاة المهرّجين، وحامي تجار الأسلحة، واللصوص الغدّارين، ومسامح المنافقين ذوي الألسنة التقيّة والأيادي القذرة...

- فليسامحك الله، يا بني.

- فليسامح إلهك نفسه، إذا كان موجوداً حقاً، على هذه المخلوقات الدنيئة. أنا ذاهب، لكني أريد أولاً أن أعرف أين ماري.

- ماري رحلت.

- إلى أين؟

- تدبّرنا أمر إرسالها إلى دير رهبنة في الخارج.

- أين في الخارج؟

- لن أقول لك، فرفقتك مسيئة إليها. هي الآن بين أيادٍ أمينة، ومع أناس مؤمنين، وأناس طيبين. هي مع أناس مثلها تماماً.

- أريد أن أعرف مكانها. أريد أن أرسل إليها بعض الكتب.

- ثمة كتاب واحد يهمها الآن في حياتها. ذلك الذي سينقذنا جميعاً في الآخرة.

- ليس هناك كتاب واحد فقط قادر على إنقاذنا.

- يمكنك أن ترحل الآن، سأنادي الممرضة. قد نلتقي مجدداً.

- ولكن في المرة المقبلة، لن أجرك إلى الخلف.

تركتُه وحده، وخرجتُ أمشي في الرواق. نزلتُ الدرج، وخرجتُ من المبنى.

انطلقتُ بسيارتي، وطرتُ بها متّجهاً إلى السوق حيث الكرنفال.

تخيّلتُ نفسي أولاً أطير مثل عصفور، ثم أمشي على الحبال في زيّ مهرّج يغني، وهو يتدرب عليها بقدمين تجريبيتين. ثم أصبح المهرّج ممثلاً هزلياً، ثم نبياً ينشد أمام الحشود:

علَيّ أن أطارد الغيوم، وأوقف الغيث لأنقذ حياتكم من تلك المسرحية الأبدية، بخيوطها ودُماها المتحركة! سيداتي، سادتي، معبد العجائب هذا معبدكم ويمكنكم دخوله، ولكن انتبهوا إلى رؤوسكم وأنتم تدخلون الخيمة. من فضلكم اخلعوا أحذيتكم عند الباب. ستجدون في الداخل حياةً جديدةً بانتظاركم. إنها فرصتكم يا سيدات، لتعدن نمرات ولبوات، ولتصبحن طيور محاكاة. هذه فرصتكم، يا سادة، لتروا الأنوار الأبدية، وتحموا أنفسكم من عبء الحياة اليومية. ثبّتوا أنفسكم في مقاعدكم، وصفقوا متى طُلب منكم. ارحلوا حين تسمعون رنّة الجوكر، أو حين يمتد النور فوق الباب ويصبح أفقياً. هيا أسرعوا، فالعرض على وشك أن يبدأ! تفضّلوا إلى الداخل تنسوا جميع مشاكلكم. ولكن إياكم أن تأكلوا الأطعمة الممنوعة عليكم. فهذا قد يثير أحاسيس الهر الكبير. ويا صغار، لا تعطسوا عندما يصل الرجل بيديه العاريتين إلى حنجرة الأسد. افعلوا كما يفعل الآخرون، وسترون العجائب. ستتخيّلون الأحصنة الطائرة، إحياءً للقديم وإكباراً للعظمة الإلهية! تعالوا إلى معبد الهناء والفرح، تحصلوا على قناع جديد، وتنعموا بحياة جديدة إلى الأبد.

اتصل بي صاحب اللكنة الإنجليزية قائلاً:

- هل أنت مستعد لمغامرة جديدة، أيها الرجل الطيب؟

- أنا على أتم استعداد للزبائن الفاضلين أمثالك.

بعد نصف ساعة كنتُ أقف أمام مدخل منزله.

- حسناً، أيها الفتى الكبير، هيا بنا ننطلق. نحن الآن، يا عزيزي فلاي، على وشك اللقاء بكاتب غير اعتيادي، بشخصية أيقونية، إذا صح القول.

قلتُ والحماسة تجتاحني:

- آمل أن يكون روائياً.

- أجل، إنه روائي.

- عظيم. وما اسم ذلك الروائي؟

- بمَ تهم الأسماء، يا عزيزي. هي مجرد أسماء.

- لا نريد أسماء. ولكن أي نوع من الكتب الأدبية يؤلف أو تؤلف؟

- تؤلّف... ولأرضي ذهنك الفضولي، سأقول لك إن كتاباتها فظّة وقذرة. لكن أدب الحذاء الجلدي (leather-boot literature)

كما نسميه، بات اليوم ذابلاً. لم يعد صادماً، بل أصبح مضحكاً، هي في انتظاري الآن. وأنا أتمتّع بامتياز كبير لأقابلها على انفراد. وفي الأمسية لاحقاً، أريدك أن تلتقي بها أنت أيضاً.

- هذا مؤكّد. يشرّفني أن أتعرّف إلى رواياتها القذرة. ذات مرة، فكّرتُ في أن أصبح واحداً منهم... لكنني فضلتُ إيقاف الكتابة، واخترتُ عادةً أكثر إبداعاً أبقت أصابعي منشغلة منذ ذلك الوقت.

- نعم، نعم، أنا متأكد من ذلك. وأي قارئ، لا يحب الارتقاء إلى حياة الكتّاب الحالمة، ليتسكع صباحاً بين المكتبة والثلاجة، ويشارك مساءً في الكوكتيلات والحفلات، تلك التي يُقيمها حديثو النعمة، وسيدات المجتمع اللواتي لا يجدن وقتاً للقراءة. كلهم متعطَشون للشهرة، والجنس، والمعرفة الأبدية. صدّقني، كان يمكن لحياتك أن تكون أسوأ من ذلك. كان بإمكانك أن تعيش مطولاً في الجنة، ثم تُطرد منها من دون سببٍ وجيه. تخيّل أن لديك الشهرة والأوسمة، وذات يوم، «بوووف»، كما يقولها الفرنسي، يختفي كل شيء، فتلف العتمة اسمك، وتُمزَّق كتبك، ويُعاد تدويرها إلى ورقٍ صحي. فيبقى عزاؤك الوحيد في هذه الحياة بعض الصور القديمة، وكؤوساً تحاول التلذّذ بها يومياً فوق طاولة المطبخ. وهذا يذكرني تماماً بالشخص الذي سنقابله اليوم.

ثم قال وهو يناولني طرف ورقةٍ ممزقة: خذْ هذا العنوان، هناك سنلتقي بتلك الكاتبة التي كانت مشهورة ذات يوم.

قلتُ، محاولاً أن أتعمّد لهجة التخويف التي يشتهر بها المخبرون، والمغنون الرديئون النحيلون:

- نعم، أعرف ذلك الفندق. إنه مكلف نوعاً ما.

- أتخبرني عنه؟ فأنا من يدفع الفاتورة. إذاً يا صديقي، هل لديك اسم؟

- اسمي فلاي.

- أتقصد بذلك الطيران؟ أو الحشرات؟

- لم أفكر في ذلك.

- بالطبع لم تفكر، فلا أحد منا يختار اسمه... تعرّفت إلى صوتي على الهاتف، فلم يعد ضرورياً أن أطلعك على اسمي.

- من دون أسماء، أفضل.

- ممتاز، هيا بنا ننطلق.

ولأكسب الوقت، تفاديتُ المرور في وسط المدينة، لكثرة إشارات السير هناك. وسلكتُ المخرج الذي يؤدي بنا مباشرةً إلى الطريق السريع. ضاعفتُ السرعة، ففتح الرجل النافذة، ومال برأسه عبرها ليلفح الهواء وجهه. ثم صرخ قائلاً:

- هيا أيها الرجل الطيب، انطلق وحلّق.

في المرآة الخلفية، رأيتُ شعره يرتعش، ووشاحه الحريري يهتز، ويرفرف، ويخفق، ويقفز في وجه الريح.

- أعتقد أننا وصلنا. حسناً يا سيد فلاي، اسمعني جيداً. أريدك أن تصعد إلى الغرفة بعد خمس وأربعين دقيقة بالضبط. لا قبل بدقيقة ولا بعد بدقيقة. هذا رقم الغرفة. تقرع ثلاث مرات وتدخل. بعد أن تدخل، عليك أن تتأكد أولاً من أنني فُككت تماماً من وثاقي. هل فهمت؟

- نعم.

- عليك فكّي فوراً، دون أي مهلة. أكرّر لك.

- بالتأكيد.

- حسناً يا فلاي. أرى ساعةً على لوحة العدّادات. هيا نضبط ساعتينا لنكون على الوقت نفسه. أقدّر أنك ستترك السيارة قبل الموعد المحدد بسبع دقائق، وأنصحك بأن تصعد الدرج لتحترم الوقت.

- بالتأكيد.

- هل فهمتَ؟

- تماماً.

- خذْ، هذا سكين سويسري، هدية مني إليك. اجلبه معك واتركه في محفظتك. ستعرف ماذا تفعل به عندما يحين الوقت.

- بعد ثمان وثلاثين دقيقة، دخلتُ الفندق، وصعدتُ الدرج، وبحثتُ عن الغرفة. وقفتُ أمام الباب، وقرعتُه ثلاث مرات.

فتحت لي امرأة، قدّرتُ أن تكون الروائية. كانت ترتدي لباساً جلدياً، وتحمل في يدها سوطاً.

قالت بصوت جازم، وهي تقف مستقيمةً مثل راقصةٍ غجرية:

- وصلتَ باكراً.

- لا، وصلتُ في الموعد المحدّد. أين هو؟

- لم أنتهِ من البرنامج بعد.

دفعتُها جانباً ودخلت الغرفة، فوجدتُ زبوني مكتّفاً على الأرض، قفاه عارية، وجوربه يعصب فمه. وعندما حاولتُ أن أفكّه، وقفت الروائية، المشهورة فيما مضى، تفلع بسوطها خلفي وتقول:

- إياك أن تلمسه قبل أن أنهي شرابي.

- لديّ أوامر.

- ولديّ أوامري أيضاً.

ثم نظر كل منا إلى الرجل. كان يهز رأسه بوحشية ويريّل من طرف فمه.

قالت وهي تقترب مني لتمسك بزوج من الأصفاد:

- انظر إلى ساعتك، أيها الحقير.

دستُ على سوطها. وقبل أن تحظى بفرصة نزعه من تحت رجلي، سدّدت لكمة إلى وجهها، فحاولت أن تردّها لي. حين اقتربتْ، تشقلبتُ إلى الخلف، وبقصد أو من دون قصد، ركلتُها على ذقنها فسقطت أرضاً على خزانة التزيين، وارتطمت بالتلفزيون. وقفتْ مجدداً، ثم ركضتْ باكيةً إلى الحمام لتقفل على نفسها داخله. راحت تشهق وتصرخ: لقد ضربني... ضربني! أنا أنزف...

بحثتُ في جيوبي عن السكين الأحمر السخيف بصليبه، واستغرقتُ وقتاً لفتحه. احترتُ بين الشفرة الكبيرة ومقص الأظفار المعلَق به. بدأ لون الرجل يزرقّ، فأدركتُ أنه يختنق. أخرجتُ فوراً الجورب من فمه، فتنشق كمية كبيرة من الهواء، ثم بدأ يكح ويبصق.

قطعتُ الحبال بسكيني السويسري، بعد أن اخترتُ الشفرة الكبيرة، فحرّر الرجل نفسه، وأسرع عاري القدمين يركع على ركبتيه عند باب الحمام، ويتوسّل من كانت تسيطر عليه لتفتح له. قال لها وهو يكح:

- أنا آسف، يا معلمة. أنا حقاً آسف. في المرة المقبلة سألقى عقاباً على ما حصل. فلاي مجرد سائق تاكسي، وذهنه بطيء.

يصعب عليّ إيجاد المساعدة الملائمة، وأنا أتحمّل كامل المسؤولية.

فتحتِ الباب وقالت:

- انظر ماذا فعل بي حيوانك. لن أراك بعد اليوم، فأنت رجل غبي يا غانتر. والآن لديّ سواد حول عينيّ، وأنا على وشك توقيع كتاب!

ثم أغلقتْ باب الحمام بعنف.

قال لي الرجل: هيا نرحل.

ارتدى بنطلونه، وجمع ملابسه بسرعة، ثم أمسك بحذائه وجوربيه القذرين، وأسرعنا بالخروج من الغرفة إلى الرواق. هناك بدأ يضحك وهو ينتعل حذاءه. وعندما أصبحنا في السيارة، قال:

- كان الأمر رائعاً. أحسنت بالفعل يا فلاي. ممتاز! كان أشبه بمشهد من فيلم لغودار، عبثي وفلسفي. وأنت يا رجل، لم يرف لك جفن. أنت عنيف وغرائزي. تفعل من دون تردد أو حتى من دون تفكير بما تقوم به. الأمر مضحك. كنا نناقش ذلك الليلة الماضية بحضور الروائية نفسها وبعض الأصدقاء. كنا نناقش أمر الكتّاب، والكتابة وفعل الكتابة. فذكّروني بمشهد من فيلم *Vivre sa vie* (تحيا حياتها) للمخرج غودار، هل شاهدتَه؟

- لا أملك تلفزيون.

- هذا هراء مبالغ فيه. عليك أن تشتري واحداً يا رجل. فالمرئي والشائع أمران أساسيان. في هذا الفيلم، ثمة امرأة شابة وذكية وجميلة يغويها قوّاد ويحوّلها عاهرة... لكن المشهد الذي أقصده في هذا الفيلم، هو حين تلتقي تلك المرأة فيلسوفاً في مقهى باريسي. يُخبرها الفيلسوف العجوز قصة مجرم وضع قنبلة تحت سيارة وهرب. وهو هارب، بدأ يفكر في فعل المشي، ويتخيّل الفعل نفسه، ويحاول فهم الحركة أو القوة التي تدفع الساق إلى التحرك. فمجرد فعل التفكير في ميكانيكية المشي شلّه وجعله عاجزاً عن التقدُّم.

- والقنبلة؟

ومن يأبه إذا كان قد مات أم لا؟ فهو مجرد مجرم، ولا يهمنا أمره. ليس لأنني حَكَمٌ، ولكن كل ما أقصده هنا، يا فلاي، هو أنني أعتقد بأنك قادر على الكتابة. ربما أكون مخطئاً، لكنني أؤمن بأنك، خلافاً لغرائزك القتالية التي أظهرتَها قبل دقائق، لو كنتَ تكتب لربما فكّرتَ أكثر في فعل الكتابة. وهذا تماماً ما حدث لروائيتنا. في الآونة الأخيرة كانت تشن حملةً عنيفةً على الثقافة الفرنسية. وأفترض أنها بذلك تحاول التستّر على ثقافتها الساذجة المحدودة. وكنا قد ناقشنا حديثاً التواطؤ بين الثقافة والرموز الثقافية في مشروع الإمبريالية، فتطرقَت إلى عظمة هنري ميلر. وإذا سألتَني عنه، قلت لك فوراً إن ميلر مبالَغ في أمره. فتسعة وتسعون بالمئة

من كتاباته غير مفهومة، والمبالغة في تكرار كلمة «فرج» لا تجعل منه متحرّراً جنسياً. لم تشأ أن تسمع ذلك، فضربت بقبضة يدها على الطاولة، وبصقت النبيذ في وجهي. هل فهمت؟ تعتقد أنها وميلر ساهما في الثورة الجنسية الأميركية، وهذا هراء. أنا أؤمن بأن الثورة الوحيدة المهمة في ذلك البلد كانت، ولا تزال، ثورة الزنوج. وكل ما تبقى هو أثر للتنوير الأوروبي. دعنا من الفلسفة. فكل ما أقصده هنا هو أنني أعتقد أن ممانعتها من فك وثاقي الليلة، قد يكون له علاقة بذلك النقاش. وبالطبع، يمكنه أن يعود أيضاً إلى عقلها الباطن. ففي النهاية، لاوعينا مجبول بدوافع القتل. لقد عادت إلى الإفراط في الشرب. وهي تطالب، في منهجها، بولادة جديدة بالمفهوم المسيحي، وبالعبودية أيضاً. فلا تناقض بينهما. كم صدّقتُ ذلك... على كل حال، سررتُ لأنك وصلت في الوقت المناسب. حسناً، الآن وأنت تقود، أرجو ألّا تفكّر في فعل القيادة، وإلا فلن نعود إلى البيت، أم أنك تفعل ذلك، يا منقذي؟ تبدو متأملاً، يا عزيزي فلاي.

- حسناً. أنا أفكر في صاحبة الزيّ الجلدي. الكاتبة التي تركناها تبصق الدم في الحمام.

- ستكون على ما يُرام، فلا تقلق. سأتصل بها الليلة، وسنضحك معاً على ما حصل. بعض الإثارة ستعزّز إبداعها. لقد عانت كثيراً

لتنتج شيئاً ذا قيمة في السنوات العشر أو الخمس عشرة الماضية. والآن، خذني إلى البيت. لقد حظينا بكثير من الإثارة، مقارنة بما يمكن للمرء أن يحصل عليه في يوم واحد.

- هل يمكنني أن أطرح عليك سؤالاً؟

- تفضّل.

- نادتك السيدة باسم. هل غانتر هو اسمك الحقيقي؟

- لقد وصلنا. سأتركك. تا.. تا!

المبارزة

أنا أيضاً قررتُ أن أتوقف عن العمل تلك الليلة. أردتُ أن أعود إلى البيت، لأشعل الضوء، وأتناول كأساً، وأشاهد معارك الحياة تجري من حولي. في طريقي إلى هناك، التقيتُ بعض الشبان والشابات في أزياء تنكرية وملابس غريبة. التقيت بأينشتاين، وبحيوانات مقنّعة، وبهائم شبه عارية، وغيرها من مخلوقات غير واضحة. لوّح لي كثيرون، حتى أن بعضهم ضرب بعنف على سيارتي. أطفأتُ إشارة التاكسي، وأومأتُ لهم من وراء الزجاج لأعلمهم أنني خارج الخدمة، وأنني ذاهب للمشاركة في تسميم تاريخ البشرية المجيد. لقد اتخذتُ قراري، وكنتُ متّجهاً إلى سجادتي لأستحضر الشمس، ودماء الشهداء، والحشرات، والسوائل المخمّرة، وسجادات القصور القديمة الطائرة. كنتُ سأتمدّد على الأرض وأفكر في مبارزة الرئيس

لينكولن المصيرية مع خصمه القوي. أوقفتُ تلك المبارزة في الوقت المناسب. من يدري ماذا كان سيحدث لو...

وأنا في طريق العودة، تذكرتُ قصةً حقيقيةً سمعتُها في مقهى بوليرو. هذه القصة تورّط الـ٧٢ المعروف باسم ناني، وفي قاموسي، العنكبوت الجنسي، والـ٨٩ الذي لقّبتُه مؤخراً بالعنكبوت المتحكم بنفسه. ذات يوم، كان عدد من تلك الأرقام يجتمع حول ركن سيارات الأجرة. هم مجموعة كاملة من العناكب المصابين بالملل. وكانت الأعمال في ذلك الوقت بطيئة، بعد أن رفعت لجنة سيارات الأجرة تعريفة الرحلة. والناس، باعتراض واقتصاد، فضّلوا وسائل النقل الأخرى، وبخاصة في الأسبوع الأول، ولو أنهم في النهاية سيرضخون للأمر، وينسونه مع الوقت، ويعودون إلى ركوب سيارات الأجرة. باختصار، مرت امرأة أنيقة أمام الـ٧٢ والـ٨٩، وراحت تمشي ذهاباً وإياباً. تتوقف أحياناً، وتبتسم أحياناً أخرى. بدت متردِّدة، ثم حائرة. قال الـ٨٩: انظر إلى هذه الزبونة المتردِّدة. قد تكون واحدةً من أولئك الذين يقاطعون التاكسي. فأجابه الـ٧٢، أو العنكبوت الجنسي: لا، بل هي تبحث عن جسدي.

سخر الـ٨٩ من العنكبوت الجنسي، الذي راهنه أمام كل من كان موجوداً هناك في ذلك اليوم قائلاً: إذا نجحتُ في جعلها تركب سيارتي، وتدخل فراشي، سأقوم بمضاجعتك. وإذا لم أنجح، فلديك الحرية في مضاجعتي.

أجابه العنكبوت المتحكّم بنفسه: لستُ ممن يضاجعون الرجال.

- حسناً. إذا ربحتُ أضاجعك، وإذا ربحتَ سأدفع لك ألف دولار.

فقام الرهان، وراح العنكبوت الجنسي يتبع المرأة. ابتسم لها، وأرخى ذقنه، وفتح عينيه. ثم تحدّث معها، وابتسم مجدداً، وأشار إلى سيارته، ودلّها على المقعد الأمامي. ثم لوّح للمتفرجين الذين لم يصدّقوا عيونهم الجاحظة.

قال العنكبوت المتحكّم بنفسه: هذا لا يعني أنه فاز بالرهان، لأن الرهان يقتضي أن يقودها إلى فراشه.

بعد ساعتين، نجح العنكبوت الجنسي في إقناع المراسل ببث ما يلي على الهواء: حاجة ماسة إلى شهود ليشهدوا على حدث تاريخي، يقتضي بإدخال الـ٨٩ إلى عالم جديد من المغامرات والسعادة. ليحضر كل من له دخل في هذه القصة، بعد خمس عشرة دقيقة إلى النزل رقم ٩ الواقع في شارع فينيارد.

ظهرت فجأةً عشرون سيارة على أرض النزل، لحظة كان العنكبوت الجنسي يخرج من النزل مع المرأة يداً بيد. قيل إن الـ ٨٩ رفض كلياً تصديق الموضوع، وقد انفجر منه ينبوع من العرق. فراحت سيارات الأجرة تزمّر معلنة ماني، أو الـ٧٢، فائزاً ورجُلاً على الـ ٨٩.

بعد أسبوعين، تبين أن تلك المرأة لم تكن سوى عاهرة.

لا أحد يضاهي العنكبوت الجنسي في شهيته إلى الحب والمغامرة. فهو متحدّث لبق، وعاشق للأفخاذ المتبجّحة، والأفخاذ الطويلة والقصيرة، والأفخاذ اللمّاعة والمحلوقة، والأفخاذ المكتظة بالشعر. والعنكبوت الجنسي مؤيد لتكافؤ الفرص، يحب العالم بسكانه، كما يصرّح دوماً، ويحب الناس بمختلف ألوانهم وأشكالهم وحجومهم.

ذات مرة، كنا نجلس في مقهى بوليرو جنباً إلى جنب، فدخلنا جدالاً في الظروف المتوفرة في هذا العالم.

قلتُ له:

- العالم مجرد مكان منحط.

فقال: بالعكس. لقد خلق اللّه كل واحد منا وفي داخله نور. ضاجعتُ أنواعاً كثيرة من الناس، واكتشفتُ أن كل واحد منهم يتميّز بنور في داخله، يشع عليك إذا نجحت في لمسه.

- وهل رأيتَ ذلك الشعاع؟

- طبعاً. أراه كل الوقت. لماذا تعتقد أن الناس يفضلون ممارسة الجنس ليلاً؟ لأن النور يسطع أكثر في العتمة.

- لا تقل لي.

- اسمع. أوَتدري لمَ أطلب اليوم من الجميع أن ينادوني ماني؟

قلتُ له وأنا أتناول السلطة والسمك:

- لا، لمَ؟

- حسناً. ذات مرة، نقلتُ زبونةً جميلة متقدمة قليلاً في السن، كانت مدرّسة لمادة التاريخ أو الدين، أو المادتين معاً. دار حوار قصير ومهذب بيننا، وتحدثنا في الفلسفة والحياة. سألتني من أين أنا. وحين عرفت أنني فارسي، بدأت تتحدث عن ماني، النبي ماني.

قلتُ لها: طبعاً أعرفه.

- إذاً أنت تعرف أسطورة العالمين.

- بالطبع أعرفها. ولكن أخبريني المزيد عنها.

قالت: في البدء كان يوجد عالمان: عالم الظلام، وعالم النور. وكان العالَمان موجودَيْن دون أن يعرف أحدهما الآخر. وذات يوم، رأى عالم الظلام عالم النور يشع بجماله الأخّاذ، وقرّر أن يهاجمه ليسيطر عليه. أدرك عالم النور بأن عالم الظلام إن مسّه، فلن يبقيه نقياً على حاله. فأرسل إله عالم النور ابنه إلى أرض عالم الظلام ليكافح الظلمة، ويحمي عالم النور من اجتياحها... وكان ذلك الابن يشع نوراً. فانطلق من عالمه بأسلحته وسيوفه. وحين وصل إلى عالم الظلام، شعر بركلة على قفاه. هكذا أدخل عالم الظلام ابن عالم النور إلى جوفه، وجزّأه إلى مليون شعلة صغيرة لتنتشر في جميع أنحاء عالم الظلام.

سألته: ماذا حصل بعد ذلك؟

قال: نظرتُ إلى المدرّسة في المرآة وقلتُ لها: في كل مرة أرى سيدةً جميلةً مثلك، أرى نوراً يشعّ أمامي وأدرك أن هناك عالماً رائعاً في الخارج.

أوصلتُها إلى منزلها، فدعتني إلى شرب القهوة. امرأة جميلة، وساقان طويلتان، وصراخ مدوّ، وشعلة نور كبيرة تشع من الداخل...

ذات مرة، كنتُ أقود على الطريق السريع عائداً إلى المدينة. رأيتُ سيارة تاكسي، إطارها مخروقٌ، تركن على حافة الطريق. تعرّفتُ فوراً إلى العنكبوت الجنسي، فتوقفتُ لأعينه. وقبل أن أخرج من السيارة، أسرع إليّ وأعطاني عنواناً، وطلب مني أن أذهب لأقل لاري من مطعم وسط المدينة. قال لي إن الأمر طارئ.

قدتُ بسرعة لأنني لاحظتُ كم كان الأمر مهماً للعنكبوت الجنسي. وصلتُ إلى المطعم، وركنتُ السيارة أمامه. فجاء مسؤول الموقف وسألني إن كنتُ أنتظر شخصاً محدداً. قلتُ له: لاري. فابتسم المسؤول ابتسامة متكلفّة ودخل إلى المطعم.

بدا لي المطعم من الخارج فاخراً. رأيتُ على بابه، رجلين ضخمين بنظّارتين شمسيّتين وبذلتين سوداوين، وكأنهما حارسان شخصيان، فانتظرتُ. ثم رأيتُ امرأة بساقين طويلتين جدّاً تتمايل بوركيها باتجاه سيارتي. كانت مذهلة.

وصلت إلى السيارة، وانتظرت المسؤول ليفتح لها الباب كي تدخل وتجلس على المقعد الخلفي.

قلتُ لها: عفواً سيدتي، لكن سيارتي محجوزة باسم لاري. هل أنتِ لاري؟

نظرت مباشرةً في المرآة، وقالت بصوت رجولي خشن: بالمبدأ نعم.

فابتسمتُ لها وقلتُ: لم يتمكن ماني من الحضور، فقد خُرِق إطاره.

- عظيم. الآن تأكّدت أن اليوم يومي. نادراً ما يحضر سعادته في الوقت المحدّد لكن اليوم، وأنا في أمسّ الحاجة إليه... يا لها من أمسية رهيبة. هل أنت صديق لماني؟

- نعم.

- أتمنى أن تكون قد حظيتَ بيوم جيد.

وقبل أن أجيبها، قالت مجدداً: كانت أمسيتي رهيبة. اعتقدتُ أنني سأموت. فهؤلاء الرجال في الداخل مجرد خنازير. لا يتمتعون بأي تربية. يصعب عليك أن تُؤخذ على محمل الجد في هذا العالم المليء بالنسور والحشرات. أنا على وشك البكاء، اعذرني.

رفعتُ فوراً علبة المناديل الورقية عن لوحة العدّادات وقدمتها للاري.

- شكراً. أخيراً، وجدت من يتمتع بالسلوك الحسن والاحترام. ما اسمك أيها السائق؟

- فلاي.

- أصدقائي ينادونني أيضاً ليمو.

- نيمو؟

- لا. ليمو، مثل ليمينال. ما بين بين. ولكن، آه يا فلاي، يا لتلك الأمسية الرهيبة التي قضيتها في هذا المكان!

قلتُ لها وأنا أنطلق بسيارتي: أخبريني ماذا حصل لك، ولماذا تبدين مستاءة إلى هذا الحد؟

قالت: حسناً سأخبرك... لمَ لا، فأنت صديق لماني. أعتقد أن بإمكاني إخبارك. وردتني مكالمة لأقدم عرضاً في مطعم إيطالي. سألت عن كيفية حصولهم على رقمي، فقيل لي عبر صديقٍ لصديقي. عادةً، أفضل أن أكتفي بعروض البيكاديللي، أقدّمها ثلاث مرات في الأسبوع مع غيري من المتحوّلين جنسياً، الآتين من حول العالم. صدّقني، فنحن نقدم هناك عرضاً هائلاً. البيكاديللي كاباريه من الدرجة الأولى. لديك التوأمان اللذان يقدمان مشهداً مخادعاً، ولديك صاحب العضلات الذي يرفع فتاتين معاً في الهواء، بتنورتيهما المنفوختين وغير ذلك. أما أنا فأقدم ثلاث أغنيات، ومونولوجاً، والعرض النهائي بفستان أزرق طويل مشكوك بالريش. حين تلقيتُ

المكالمة، رفضتُ أولاً، لكنهم عرضوا علي مالاً وفيراً، فوافقتُ على أساس أنها سهرة خاصة. بدا لي المطعم من النوع الراقي.

وصلتُ إلى هناك، فأخذوني مباشرةً إلى غرفةٍ خلفية، وجدتُ فيها خمسة رجال وسيمين، يرتدون ملابس إيطالية فاخرة. رحّبوا بي، وقدموا لي شراباً، وتحدثوا معي بكل لباقة. سألوني إن كنتُ حقاً رجلاً، لأنني أبدو فعلاً امرأةً جميلةً وغيرها من المدائح كالعادة. ثم قدموا لي شراباً. في تلك اللحظة، أسرع النادل إلينا ليخبرنا أن صاحب العيد قد وصل، أطفأوا الأنوار. وفور دخوله الغرفة صرخوا كلهم: مفاجأة! شغّل النادل الموسيقا، فتقدمتُ من صاحب العيد لأرقص معه وأغني له «سنة حلوة يا جميل». كنتُ أبدو مثل مارلين مونرو، فراح الشبان يصفرون ويهتفون. حشرني صاحب العيد وبدأ يقبّلني... حتى صار الأمر مزعجاً وفظاً... فبدأ الكل يصرخون ويرمون شرابهم على الأرض، ويخلعون ستراتهم ليرجّحوها بأياديهم فوق رؤوسهم.

رقصتُ معه لبعض الوقت، ثم اقترب منا واحد منهم وقال له: هاي فرانك، أمسك به... وقبل أن أحظى بفرصة دفعه إلى الوراء، حشر فرانك يده تحت فستاني وقبض علَيّ بين فخذَي. تركني بسرعة كما لو أنه لمس الشيطان عينه، وبدأ يلعن، ثم دفعني بعيداً عنه. تعثّرتُ وسقطت على الأرض، على ظهري... بكعبي العالي... ويمكنك أن تتخيّل الأمر، أنا متأكدة. انفجر كل أصدقائه بالضحك، فشعرتُ

بالإهانة. كنتُ ممدَدة على الأرض، منقوعة بالشراب والقذارة، وخائفة من جرح نفسي بالزجاج المكسّر حولي. جن جنون صاحب العيد، فقد شعر هو أيضاً بالإهانة. ثم اقترب مني وركلني وحاول أن يدوس على رأسي... لو لم يبعده أصدقاؤه عني...

لحظة هناك المزيد يا فلاي. بحث ذلك المتوحش عن سترته، وأخرج من داخلها مسدساً. كان ينوي قتلي. خفتُ. لكن أصدقاءه وقفوا في وجهه وحاولوا تهدئته، قائلين: فرانكي، هدّئ من روعك، إنها مجرد مزحة.

كنتُ على الأرض أبكي وأرتجف، وأفكر في أنني لستُ مزحة.. أنا لستُ مزحة! ثم مدّ لي أحدهم يده ليساعدني على الوقوف، وقدّم لي اعتذاراً. ثم أخرج رزمة من المال وناولني إياها. وطلب من النادل أن يرافقني إلى الحمام لأغتسل. عندئذ اتصلتُ بماني باكية، لكن عجلته...

على كل حال، سُررتُ لأنه أرسلك. قبل أن أرحل، قلتُ للرجل الذي دفع لي النقود إنني فنانة محترمة ولستُ مزحة. وفي المرة المقبلة، عليهم ألا يتعاملوا مع الناس على أنهم مزحة، فكلنا متساوون. هذا ما قلتُه له. لا تزال ملابسي ملطّخة بالبيرة والويسكي، وتفوح مني رائحة الدخان، هذا مقرف. ما زلتُ أرتجف. كان عليّ أن أعرف حقيقتهم من خواتمهم الذهبية الضخمة. أتعرف، أنا مسرورة لأن ماني لم يأتِ. لو رآني على هذه الحال... هو غير صبور،

وهم رجال أشرار. أعرف نوعهم. إنهم مجرمون يملكون الكثير من المطاعم الفاخرة ليبيّضوا من خلالها الأموال. وأماكن كهذه وُجدت لهذا السبب. آهٍ تذكرتُ، عليّ أن أرسل فستاني للتنظيف، فلديّ عرض بعد غد. طال عمرك يا بيكاديللي! هنا، لقد وصلنا. بكم أدين لك، يا فلاي؟

- لا شيء. فالحساب واصل.

- خُذْ شيئاً، أرجوك. فهؤلاء الوحوش، دفعوا الكثير هذه الليلة. تفضلْ خُذْ، هذا يكفي لتتوقف عن العمل الليلة. خذه وأطفئ مصباحك، واذهب إلى بيتك واسترحْ.

ثم حشرت لاري ورقتين نقديتين كبيرتين داخل يدي قائلة:

- تفضَلْ.

- شكراً... وعمتِ مساءً.

- عمتَ مساءً.

هكذا قالت قبل أن ترحل.

الفولاذ

بعد ليلةٍ واحدةٍ على مغامرتي مع تلك الكاتبة المجهولة، المشهورة سابقاً، قصدتُ مقهى بوليرو. وصلتُ إلى هناك، فحجزتُ طاولة، وحملتُ صينية، واتجهتُ نحو الصندوق لأطلب طعامي، فشاهدتُ

المالك اليوناني في المطبخ. لمحتُ مئزره الأبيض الملطّخ، وتخيّلته يتعرّق تحت وشاحه الأزرق والأبيض الذي يشدّه دائماً حول عنقه. وشاح أزرق فاتح وأبيض ناصع مثل باقي الديكور. قيل إنه، بعد استشارته للكهنة اليونان، غرس علم اليونان الرسمي، ووضع بعض البطاقات البريدية التي تصور معالم يونانية قرب صندوق الدفع لتنجح السيادة الهيلينية في التغلب على اسم بوليرو اللاتيني، الذي اختاره لمطعمه لأسباب عملية.

أما زوجة المالك فكانت تبدو دائماً متعبة. إنها سيدة لجوجة لا يعجبها العجب، ونظارتها توشك أن تغرق فوق أنفها الحثّي. لكن ابنته، الإلهة الصغيرة التي تظهر وتختفي وراء دخان الطعام الخارج من المطبخ، هي التي تنقذنا من المجاعة. شعرها طويل متموّج يحوم باستمرار فوق صوانٍ فولاذية ساخنة مقاومة للصدأ. ومنذ أن بدأت عملها في المقهى، لم تسقط منها شعرة واحدة في طبق. شعرها دائماً مسرّح، ومقصوص بدقة باهرة. وأنا على ثقة بأن أي سائق لن يرفض تلك النكهة المملّحة المضافة، أو ذلك الطعم الهوميري الحاد، أو تلك الخطيئة الإلهية. سمعتُ أن مزيج اللبن وزيت الزيتون يعزّز لمعان الشعر.

بعد قليل، وصل عنكبوتان لينضما إلى الطاولة التي أجلس عليها. وضعا صينيّتيهما قرب صينيّتي، لنصبح ثالوثاً.

كنتُ أريد أن أعطي ملاحظة عن الرقم ثلاثة، وعن دوره

الأساسي في الثقافة الإغريقية، لكن الـ٧٦، الذي تردّدتُ أولاً في مناداته بالعنكبوت المقاطع أو العنكبوت المدّمر، ورسيتُ أخيراً على مناداته بالعنكبوت شمشون، كان مضطرباً، وبدأ يخبرنا عن مواجهته مع فتيين ثريين.

قال: منذ فترة، ركب معي فتيان شقيان. بدآ، فور دخولهما السيارة، يتصرفان بظرافة على المقعد الخلفي. عندما سألاني عن العمل في تلك الليلة، قلتُ لهما إنني بدأتُ للتو، وإنهما أول زبونين. وعلى الرغم من أنني كنتُ قد بدأتُ العمل منذ أكثر من عشر ساعات، فقد حدثتني نفسي في أنني لو قلت لهما الحقيقة، فسيتخيّلان رزماً من النقود داخل السيارة. وكما توقّعتُ، قال لي أحد الفتيين:

- أراهن أنك تحملها تحت المقعد.

- أحمل ماذا؟

- ألم تحزر؟ النقود.

- ولِمَ تهتم لذلك؟

- هي كل شيء، يا ابن الساقطة.

ثم تابع قائلاً: نظرتُ في المرآة. فلم أرَ مسدساً. لكنني رأيتُ حقيرين صغيرين في ملابس فاخرة، يحاولان إخافتي. قلتُ لهما: تمسّكا جيداً، فقد ركبتما مع السائق الأكثر جنوناً في المدينة. هل

تعتقدان أنني سأخاف منكما أيها الحقيران الصغيران؟ ودستُ على دوّاسة الوقود.

كنتُ أقود بسرعة مئة وثمانين أو مئتين على الطريق السريع، حتى بدأت السيارة ترتجف! ولأخيفهما أكثر، رحتُ أغني أوبرا، وأوهمهما بأنني أقود فرقة أوركسترا. ثم صرختُ: أنا شمشون! فليسقط المعبد عليَّ وعلى أعدائي. يا إلهي، لقد نما شعري مجدداً! أنا لا أخاف من شيء، وشعبي ينهض... وترّهات كهذه. ثم أخذت أؤلّف أغاني عن الرب ومجيئه الثاني، وقلتُ لهما: اركعا على ركبتيكما، فالمعبد سيقوم من جديد ويفترض أن ننجو كلنا... هلّلويا!

بال أحدهما في بنطلونه، وراح الآخر يتوسّلني أن أوقف السيارة. ثم اعترفا بأنهما كانا يمزحان ويحاولان إخافتي، ولم يريدا سرقتي لأنهما من عائلة ثرية، وأنهما سيعطيانني كثيراً من النقود إذا أوقفتُ السيارة في الحال... ثم أدركتُ أن سيارة شرطة كانت تطاردني بمصابيحها وصفارة إنذارها، فأوقفتُ السيارة في الحال. غرّموني غرامةً كبيرة مصحوبةً بإنذار.

بعد ذلك تبين لي أن هذين الغلامين ابنا أحد رجال الأعمال الأثرياء، وهو ذلك الذي يموّل حملة المحافظ. وها هو الرجل يقاضيني بتهمة القيادة المستهترة، وتعريض ولديه للخطر، أما محاميهما فيطالب بتقويم فيزيولوجي، كما طلب من لجنة سيارات الأجرة أن تسحب مني الرخصة. لا أعرف كم هي مقدرة المرء على

التحمّل؟ أريد أن أدافع عن نفسي، لكنني لا أملك النقود لأوكّل محامياً. وأنا مستعد لأقف أمام القاضي وأخبره ما حصل، لكن زوجتي مهمومة، وقد ضاقت ذرعاً بي. لا أرى صغاري لأنني أعمل كثيراً... وهدّدتني زوجتي بأنني إذا فقدتُ رخصتي فستتركني وتعود مع الصغار إلى أهلها...

توقّفت، أنا فلاي الطيّار وليس العنكبوت، عن تناول وجبتي، ونظرتُ إلى العنكبوت شمشون لأسأله:

- ما اسم الشركة التي يعمل فيها الرجل، وما اسم الرجل؟

اسمه السيد سارنات باتل. وهو رئيس المجلس التنفيذي لدوفلين ستيل. إنه رجل ينهب الناس، ويلوّث ست قرى. ومن المؤكّد أنه لن يشغل باله بسائق سيارة أجرة مثلي. لقد انتهيتُ!

قمتُ عن الكرسي وأعدتُ صينيّتي، في حين أصبح المالك خارج المطبخ. كان يصب القهوة في كوب من الكرتون، مزين بصفوف من أعمدة معبد يوناني، ألوانها متناسقة مع ألوان الجدران، ومع لون مئزره الأبيض وقبعته الزرقاء.

في صباح اليوم التالي، عدتُ باكراً إلى البيت استحممتُ وحلقتُ، ثم انطلقتُ مباشرةً إلى مبنى دوفلين. سألتُ عند مكتب الاستقبال عن السيد باتل، رئيس المجلس التنفيذي، فطلبوا مني الانتظار. ثم حضر رجل يرتدي بزّة نظامية، وناداني لأرافقه إلى مكتب الأمن.

- ما هي طبيعة عملك؟

- أنا سائق تاكسي، وأنا هنا بالنيابة عن سائق آخر، بشأن المسألة التي تخص ولدي السيد باتل.

طلب مني صاحب البزة النظامية الانتظار مجدداً. ثم قام عن كرسيه ورحل.

بعد نصف ساعة، نزلت امرأة يرافقها حارس شخصي، ورافقتني إلى الطابق الرابع والعشرين. عند باب المصعد، التقيتُ حارسين أمنين أو ربما شخصيين، فأشارا إلى طاولة ليفتشا عليها حقيبتي. كانت الحقيبة تحتوي على كتاب *Invisible Man* (رجل غير مرئي) انتقيتُه من مكتبتي في البيت، وحسبته حين كنتُ أنظّم المكتبة، كتيّباً عن السحر وفن الاختفاء. لكنه في الواقع، كان يروي قصة رجل يعيش في حفرة كلها نور. فتبين لي أخيراً أنه يتناول السحر أكثر من أي كتيّب. نظر الحارس إلى الكتاب وتمتم: هنا الجميع مرئيون. ثم حشر الكتاب بازدراء في حقيبتي. كان عليّ أن أمسك بنفسي كيلا أرميه بصواعق ضوئية فينهار المبنى.

بعد ذلك، عرضوا عليّ قهوةً أو ماء. فاخترتُ القهوة، لكنها لم تأتِ. فانتظرتُ ساعةً أخرى. كانت المرأة تعود إليّ باعتذاراتها الجبانة، طالبةً مني الصبر. ولم تكف عن تذكيري بأن السيد باتل رجل كثير الانشغال.

أخيراً، وصل السيد باتل مع تلك المرأة، سكرتيرته، وهي تزحف وراءه. فقدّرتُ فوراً وزنه من وقع خطواته على الأرض المغطاة بالسجاد، وعرفتُ في تلك اللحظة أن القهوة لن تصل أبداً.

سلّم عليّ بكل تواضع شابكاً يده بيدي، ثم قال: أنا أعتذر على التأخير. لدي بضع دقائق فقط قبل أن أتوجّه إلى المطار. أعلموني أنك سائق تاكسي، وأنك صديق للسائق الذي عرّض ولدَيّ للخطر.

قلتُ له: لا تقلق يا سيد باتل، وسأحدّثك باختصار. قام صديقي بما قام به لأنه كان خائفاً. فنحن، سائقي التاكسي، تحت تهديد متواصل، لأننا غير محصّنين. وأنا هنا اليوم لأرجوك أن تعيد النظر في إسقاط الدعوى. الحقيقة هي أن ولديك أساءا التصرّف، لذلك قام صديقي بما قام به. كان يحاول حماية نفسه خوفاً على حياته...

قاطعني الرجل قائلاً بهدوء: لكن صديقك خالف القانون.

ردّدت مستهجناً: ومن لا يخالف القانون؟ هل شركتك الضخمة تطيع القانون عندما تُحدث كلّ هذا الخراب؟ وعندما تلوث القرى والأنهر بالسوائل السامة؟ كم من وجه مشوّه وصغير مشلول يجب أن يقاضيك على هذه الحال؟

رحل من دون أن يقول أي كلمة، فركضت سكرتيرته وراءه في حالة ذعر. وبعد ثوانٍ، وقف الحارسان الأمنيان بجانبي، وطلبا إليّ أن أنظر إلى الحائط.

لما اعترضتُ، وضع أحد هذين الوحشين فمه في أذني وهمس قائلاً: أنا في العادة أطلب ذلك مرَّةً واحدةً ولا أعاود الكرَّة. فمشيتُ مُذعناً باتجاه الحائط. ثم طلب مني أن أرفع ذراعَيّ وأن أمد ساقَيّ.

مرّر يديه حول وسطي، وبين أفخاذي، وفوق صدري، وتحت إبطَي. ثم طلب مني أن أنزع حذائي وجوربيّ. عندما انتهيا من تفتيشي، طلبا مني أن أنتعل حذائي مجدداً، ثم التصقا بي ليرافقاني إلى المصعد، نزولاً إلى قاعة الاستقبال، فإلى خارج المبنى.

خرجتُ لاعناً كل شيء من حولي، ومشيتُ فوق المرج الأخضر. فامتداد العشب كان واسعاً بما يكفي لأمسك بساطورٍ وأقطعه من جذوره. وكان شاسعاً بما يكفي لأرى الأعداء يتقدمون صوبي. وكان فسيحاً بما يكفي لأعطي المدافعين وقتاً لسماع الإنذار وتجهيز أنفسهم. فالمروج هي أقصر امتداد ماكر للأراضي. ووراء ذلك الخضار الممتع للنظر، والبريء بنضارته، تعلو بوابات، وتتغاضى قوانين، ويُستخرج ذهب، ويُستعبد سائقون. وداخل تلك القلاع الزجاجية أرى أبراجاً شاهقة، ومخلوقاتٍ خانعة، وخدماً حُذْباً، وراضخين وحشيين يتآمرون حول مبرّدات المياه، ويحركون الزوابع في فناجين قهوتهم، ثم يتلقّون الأوامر ليسرقوا قصب السكر من الأرض، والمياه من تحت الأرض. أرى رقصات فالس مميتة لن يهنأ لها عيش حتى تنتزع آخر قطعة لحمٍ من معدة فقير.

لعنتُ ولعنتُ وأنا أجتاز المرج. ثم بصقتُ عليه. خرجتُ من ذلك السراب، ومن واحات الموت تلك، لأعود إلى الحياة.

يسوع

في اليوم التالي، انتظرتُ زينب في مدخل المبنى، وحين وصلت بادرتني قائله:

- بتُّ أعتقد أنك تتعمّد لقائي.

- لم أخفِ حقيقة ذلك يوماً.

- اسمع، يا فلاي. أنا أقابل أحدهم، وأعتقد أنه سيزورني باستمرار. وكما تعرف...

- نعم أعرف... هل هو من هنا؟

- أجل، من هنا.

- ما اسمه؟

- ليس من شأنك، يا فلاي.

- أهو مختون؟

- لا تبدأ بمزاحك الصبياني يا فلاي.

- إنه مجرد سؤال.

- توقّف عن المزاح. أنا أعني ذلك. عدا عن أنه ليس من شأنك.

- آه، إذاً تعرفين!

- اتركني وشأني، ما زال الوقت مبكراً لهواجسك الهجومية.

- أريد فقط أن أعرف، وبعدها سأتركك بسلام. أعدك بذلك.

- لا، ليس مختوناً.

- آه، حسناً... أنا أؤيّد العلاقات بين الأديان، فهي تثمر تجربة مدنية رائعة. وماذا يفعل ذلك الشخص البكر المكتمل؟

- هو أكاديمي. عليّ الذهاب.

ودّعتُها وأنا أخفض قبعة السائق، وأحيّيها مثل فارس إسباني يُحيِّي أندلسية ساحرة: وداعاً زينب، يا أعزّ سيدة على قلبي. اذهبي في أمان اللّه.

قالت زينب بلباقةٍ وشهامة: وأنت أيضاً قُدْ بحذر.

نمتُ بضع ساعات إلى أن علا ضجيج بعض الورش في الخارج. فاستيقظتُ وأنا أفكر بماري. مسكينة ماري زوّجوها بثائرٍ لا يعنيه قضيبه المختون، ذلك الطفل غير المختون. ورحتُ أتساءل عما سيؤول إليه ذلك السيناريو.

استحممتُ، وسرّحتُ ما بقي لي من شعر إلى جنب. ثم دسست قميصي القطني تحت كرشي، وتذكرتُ الطعام الذي أكلتُه في اليوم السابق. لا شيء أفتخر به، ولا شيء أندم عليه. كل نصائح الطبيب ضاعت في بحر النسيان.

بيل

اتصل بي التاجر، فذهبتُ إلى منزله. وقفَت امرأته وراء النافذة تلوّح بيدها وتصرخ: أنا أنتظرك، يا حبيبي زي! ثم لوحّت لي وقالت: حظاً موفقاً أيها الرجل الطيب!

اتجهنا نحو وسط المدينة، وباشرنا الجولة على الفور.

سألني: هل أنت مستعد للأسبوع المقبل؟ فقلت: نعم.

- حسناً، سأتصل بك. هل تعرف المنطقة الصناعية؟

- تمام المعرفة.

- جيّد. أتفضّل النقود أم قليلاً من البضاعة لليلة؟

- النقود.

- حسناً يا فلاي... يا رجل النقود.

وربّت على كتفي، ثم فتح باب السيارة وخرج.

أنزلتُه عند ملهى ليلي، ورأيتُه يتخطّى طابوراً طويلاً من الناس ليدخله، وحراس الباب يلتفون حوله، ويفتحون أمامه الباب واسعاً، كأنهم يعلنون عن وصول ملك الشارع.

قدتُ بعض الأمتار، فأوقفني رجل ضخم، يتمايل بعنقٍ عريضٍ مثل مصارع. قال لي وهو يجهد نفسه ليدخل من الباب: إلى أعلى الشارع الرئيسي.

حسناً. قلتُ وأنا أنظر إليه في المرآة، وأفكر في أنه إذا علق عنقي بين مرفقيه المنفوخين بالستيرويد، فسأسمع حبالي الصوتية تتقطع قبل أن يتبدل ضوء الإشارة.

شعرتُ بثقل ذهنه عند احتكاك عجلات السيارة بإسفلت المدينة. ولأخفف من ثقل الأجواء، رحتُ أحدّثه عن الطقس والرطوبة العالية.

أومأ برأسه.

سألتُه إن كان في الماضي مصارعاً، فابتسم لي وقال: لا يا رجل، المصارعون مجرد لوطيين. لستُ ممن يمسكون بقفا الرجال ليشمّوا العرق السائح بين خصاهم. لا، لستُ كلباً.

أقحمتُ ملاحظةً عن المصارعة، كيف أنها لا تزال معتمدةً في شبه الجزيرة الفارسية حتى اليوم. ثم قلتُ: لا بد أنها ازدهرت خلال الاحتلال المقدوني. إنه التأثير الثقافي. وكم يسهل علينا إيجاد آثار الماضي في أعمال اليوم. لقد أمر الإسكندر الكبير جيشه في بداية فتوحاته، بأن يتزوجوا من النساء الفارسيات... ثم نظرتُ في المرآة الخلفية، وأدركتُ أن حديثي عن التاريخ يبدو معقّداً لصاحب العضلات، فتوقفتُ عن الكلام. وعدت إلى الحاضر لأسأله:

- ماذا تفعل، إذاً؟

- أعمل حارساً.

- في الملهى الذي خلفنا؟

- نعم.

- أوصلتُ لتوي صديقاً إلى هناك.

- العالم كله هناك الليلة. ولكن علَيّ أن أنهي بعض الأعمال في الحي المجاور. هل يمكنك الإسراع إلى الشارع الرئيسي، قبل أن ترحل النادلة التي سألتقي بها؟

- سأقوم بما في وسعي.

وتابعتُ القيادة بصمت، إلى أن قال لي: توقّف هنا.

ثم ناولني ورقة من فئة المئة دولار وقال: هل تحمل فكّة؟

أخرجتُ رزمة نقود من تحت مقعدي، وأعطيتُه اثنين وتسعين دولاراً. فرحل بسرعة من دون أن يترك لي البقشيش.

تابعتُ القيادة بضعة أمتار، ثم توقفتُ عند إشارة حمراء، ونظرتُ إلى ورقة النقود التي أعطاني إياها. كانت مزيفةً مثل ورقة المونوبولي.

عدتُ أدراجي، واتّجهت مباشرةً إلى حيث تركتُه، لكنه لم يكن هناك. رحتُ أجول في الجوار، وقلتُ في نفسي إن صاحب العضلات هذا لم يكن ذاهباً إلى بيته. فركنتُ سيارتي، ورحتُ أدورُ في المكان. وأول شيء بحثتُ عنه هو حانة فيها نادلة، وآلة بوكر، وعجائز يشربون البيرة في أكواب، وآليات لبيع السجائر. هذا ما

أوحته لي الأرجاء. وجدتُ واحدة لكن المكان كان فارغاً باستثناء الموظفين. وكما توقعتُ، كان صاحب العضلات المنفوخة يتحدّث إلى امرأة ترتدي تنورةً قصيرة، وتقف على كعب رفيع عالٍ.

رآني فأدار رأسه، لكنني ربّتت على كتفه.

- ماذا؟

- ورقة النقود التي أعطيتني إياها مزيّفة.

- لم تعد مشكلتي.

- أعتقد أنك أعطيتَني ورقة مزيّفة، وعليك استرجاعها.

- أعتقد أن عليك الرحيل.

هكذا قال، وهو يصوّب إصبعه إلى وجهي، ويركّز عينيه في مكان ما بين ذقني والسرة. فشعرتُ بتهديدات عضلاته. لكنني سألتُه:

- هل اسم زي يوحي لك بشيء؟

فمال إصبع الرجل إلى الأسفل، واستدارت المرأة ورحلت بعيداً.

تراجع خطوةً إلى الوراء وقال:

- ما بال زي؟

يمكنك أن تعتبرني سائقه الخاص. ويمكنني أن أتصل به الآن ليسوي المشكلة بيننا. أو يمكنني أن أعيد إليك المئة دولار، وتعيد إلَيّ الفكّة، ورحلتك القادمة ستكون على حسابي.

أومأ برأسه. ثم أخرج المال من جيبه وأعاده إلَيّ. وقال بتهذيب:

- هل يمكنك انتظاري في الخارج لحظة. علَي أن أنهي مسألة صغيرة مع السيدة.

بعد دقائق قليلة، عاد وانضم إلَيّ في السيارة، ثم قال: حسناً، فلنعد إلى الملهى.

جلس بقربي هذه المرة، وليس في الخلف. وراح ينظر إلَيّ مطولاً، ثم قال:

- هل يعرف أحدنا الآخر؟

- لا أدري.

- بلى. تباً، أنت السائق الذي تعوّد أن ينتظر الشقراء كل ليلة خميس أمام مدخل الملهى.

- نعم، هذا أنا.

- طبعاً أنت، لقد تعرّفتُ إليك. ما أصغر هذا العالم. لقد استقلتُ من ذلك المكان، فالملهى الذي أعمل فيه الآن يناسبني أكثر. أنا هنا أفضل بكثير، لأني أحصل كل ليلة على ساقطة من فتيات الملاهي. يدسسن أرقامهن في سترتي لأسمح لهن بالتقدم إلى الصف الأمامي. لكنني أسفتُ على فتاتك، يا رجل. هل كان اسمها سالي؟

- نعم، ماذا عنها؟

- عليك أن تعرف، يا رجل.

- علَيّ أن أعرف ماذا؟

- اعتقدتُ أنك تضاجعها.

- كلا. نحن صديقان. قل لي ما تعرفه عنها.

- بدا لي أنكما كنتما أكثر من صديقين. انظر إلى نفسك كم أنت حزين الآن. على كل حال، كل ما أعرفه هو أنها ذات ليلة، أقفلت على نفسها باب الحمام، ولم تفتحه أو تظهر على المسرح. فبكت وبكت وكان عليّ أن أحطم الباب. وجدتُها ملقاة على الأرض عارية، تبكي عاريةً، إلا من كعبها العالي والبيكيني. لم تقل شيئاً، بل كانت تبكي طول الوقت. فناديتُ فتاة أخرى لتحضر لها الملابس. ثم قالت إن صديقتها الحميمة ماغي، وهي راقصة أيضاً، ماتت في حادث دراجة نارية الليلة السابقة. فقدّمتُ لصديقتك الماء. ثم أخذَت حقيبتها ورحلَت، وقُضي الأمر. لم تعد فتاتك بعد تلك الليلة إلى العمل.

- هل تعرف إلى أين رحلت؟

- لا يا رجل، فأولئك الفتيات يأتين ويذهبن هكذا. وأنا لا أتدخل في حياتهن الشخصية. لكن يمكنني القول إن فتاتك كانت بحاجة فعلاً إلى مساعدة. فأياً كان من فقدته، بدا الأمر صعباً جداً عليها.

ثم قال: هذا هو الباب، سأخرج هنا. مرّ بي ذات ليلة، وسأقدّم لك مشروباً.

ومشى باتجاه طابور من النساء كن يقفن شبه عاريات، وينتظرن في البرد مرتعشات.

الفصل الرابع

القتل

فتحتُ صندوق البريد، فوجدتُ رسائل لا أحب رؤيتها، كبعض الفواتير، ورسائل تخص أوتو، يعود تاريخها إلى الزمن الذي كان يتردَد فيه إلى شقتي.

في تلك الليلة، فكرتُ في البحث عنه لأعطيه رسائله. قصدتُ البار الذي يتردّد عليه، فلم أجده هناك. سألتُ الساقي عنه، فقال لي إنه يصل عادة في ساعة متأخرة. قصدتُه في منزله الذي يتشاركه مع السيدة العجوز. كان يتذمر منها باستمرار لأنها لا تكف عن التدخين، وشرب الروم والكوكا. وكانت غرفتها ملأى بمئات قناني الكوكا المصفوفة جنباً إلى جنب لتغطي الجدران. وأكبر سؤال وجودي كان يدورُ في رأس أوتو، هو إنْ كانت تلك السيدة ستموت بداء السكري أو توقف الكبد.

يعتقد أوتو أنها قد تموت من البدانة، مثل كثيرين في هذه الأمة. وقد سمعته يقول أيضاً إن الشيوعيين والمسلمين ليسوا الأعداء الذين يجب أن نخافهم على هذه الأرض، بل الإفراط في تناول الطعام الذي سينفجر يوماً في وجه الجميع.

لم يكن أوتو في منزله، فعدت إلى البار حيث رأيتُه يجلس ويتحدث إلى رجلٍ أنيق بحماس.

اقتربتُ منهما، فوجدتُ نفسي وسط جدال محتدم. كان الرجل يتكلم بلكنة فرنسية غليظة ذكّرتني بالسيدة الملتحية. ثم سمعتُ أوتو يقول إن الإمبراطورية الفرنسية وثقافتها قد اضمحلّتا، وأن الأمر له ما يبرّره. في حين كان يتحدث الرجل عن مساهمةٍ متواصلةٍ في الثقافة العالمية.

قال أوتو بعد أن استفزه كلام الرجل: أي ثقافة؟ دعني أخبرك عن الثقافة. عندما أمشي في أروقة المتاحف، وأنظر إلى التماثيل والنُّصُب المعروضة هناك، تلك الأمجاد المبنية على السرقة والقهر، فكل ما يمكنني أن أفكّر فيه هو معاناة المستعبَدين، والعمال المحرومين، الذين نحتوا تلك الحجارة الثقيلة وحملوها على أكتافهم. هل تعرف أي ثقافة أؤمن بها؟ أؤمن بثورة يونس على همجية الإمبراطورية الرومانية، أؤمن بتحرر الهايتيين من الاستعمار الفرنسي، وبمبالغتهم في الثورة على نابوليون الثالث. أؤمن بالعنف والمقاومة فقط لا غير. على كل إمبراطورية أن تعاني الألم، وإلا فلن توقف انقضاضها عليك. طالما أنك لم تضع المسدس في وجه الآخر، فهذا يعني أن الأمور ستبقى على حالها. إن جميع الإمبراطوريات آكلةٌ جائعةٌ للحوم البشر.

قلتُ لأوتو:

- هيّا نقُمْ بنزهة قرب النهر.

- أي نهر يا فلاي. السائل الوحيد الذي أحتاج إليه الآن موجود في هذه الكأس. وهل نحظى دائماً بفرصة التحدث إلى صحافي كولونيالي؟

قال الفرنسي: عفواً يا سيد، أنا لستُ كولونيالياً!

- حسناً، ماذا عن الجزائر؟ وماذا عن ثقافتك، والكتّاب الذين تتباهون بهم!

قلت لأوتو إني ذاهب، وعرضتُ عليه أن آخذه إلى بيته، لكنه فضّل البقاء لمتابعة الشرب والحديث مع ذلك الفرنسي.

قدتُ إلى أقرب محطة وقود لأملأ خزاني. اشتريتُ كيساً من المكسّرات، وبعد أن انتهيتُ منه، رحتُ أبحث عن زبائن.

ذات مرة، غابت ليندا عن بيتها أياماً عدة، تاركةً ابنها تامر وحيداً في الشقة. ذهبت تنتشي في وكر للحشّاشين وتجار المخدرات. ولحسن الحظ، قرر أوتو في ذلك الأسبوع زيارة تامر. كانت عائشة ترقد في المستشفى، وتسأل عن تامر باستمرار. عندما دخل أوتو شقة ليندا، وجد تامر وحيداً وقذراً وجائعاً، وكان وجهه ملطّخاً بالمخاط ومبلّلاً بالدموع. حين شعرت الجارة بقدوم أوتو، فتحت باب شقتها، وقالت له إن الفتى أمضى وقتاً طويلاً يئن مثل جروٍ صغيرٍ يسأل عن الطعام. وقفت المرأة في مكانها عابسةً في وجه أوتو، وأخبرَته بأنها

كانت على وشك الاتصال بالشرطة. فإذا كانت أمه غير قادرة على الاعتناء به، فلا بد من إيجاد بديلٍ لها. وعلى السلطات أن تعرف بهذه الحالة.

أكد لها أوتو أن كل شيء سيكون على ما يرام. أغلق الباب مباشرةً وراءه، وراح يغمر تامر بين ذراعيه. ثم فتح عبوة سباغيتي وسخّنها، بعد أن وجدها على رفّ عالٍ. بعد لحظات، كان تامر يحشر الطعام في فمه، وينظر إلى أوتو بعينين كئيبتين، يملؤهما الحزن والجحود.

اتصل أوتو بفريداو معنّفاً، وأمره بالحضور فوراً. بعد أن أنهى تامر طبقه، رافقه أوتو إلى الحمام، وساعده على الاستحمام، ثم سرّح له شعره، وألبسه بيجامته، ووضعه في السرير، وأخبره قصة إلى أن غطّ في النوم. ثم عاد أوتو إلى المطبخ ليغسل الصحون. وقام بعدها بترتيب الشقة، وجمع الملابس المبعثرة في كل مكان. وأخيراً أشعل سيجارةً وانتظر وصول فريداو.

وصل فريداو، ففتح أوتو الباب، وانقض عليه ممسكاً بياقة قميصه، ثم دفعه إلى الحائط وقال له: عالجْ هذه الفوضى فوراً.

أبعد فريداو أوتو عنه وراح يدق باب الشقة المجاورة. ابتسم للمرأة، وعرّف عن نفسه بأنه والد الصغير. ثم أخبرها أنّ أم الصبي تعرضّت لحادث ونقلت إلى المستشفى، وأنه كان في طريقه للاعتناء

بتامر، لكنه علق في ازدحام سير خانق، ولسوء الحظ تعطّلت سيارته. فكان عليه أن ينتظر وصول الرافعة... وكل تلك الأمور التي تحدث حين ينهمر المطر بقوة.

لم تصدّق المرأة كلمةً واحدة. نظرت إلى قبعة فريداو اللماعة وبذلته البرّاقة ثم قالت: الصبي جلد على عظم. وهو على هذه الحال مذ رأيتُه لأول مرة. يأتي إلَيّ ليتوسل الطعام فأعطيه سكاكر. لكنني لستُ أمه، وليس من واجبي أن أقدم له الطعام. يُفترض على شخصٍ آخر أن يعتني به، إذا كنتم لا تقومون بواجبكم.

ابتسم فريداو وقال لها: أقدّر لك قلقك يا سيدتي. واسمحي لي أن أعوّض عن إزعاجك. أرجوك أن تقبلي مني هذا.

فعلا صوت السيدة في الرواق: هل ترشوني يا سيد؟ الصبي على وشك الموت من الجوع. هل تعتقد أنني سأتفرج على ولد يتضوّر جوعاً وأسكت؟

- حسناً يا سيدتي، هذا فقط للتعويض عن إزعاجك. لقد قدّمتِ سكاكر للصغير، وها أنا بالمقابل أقدّم لك شيئاً حلواً. فالحياةُ ذوق. إما أن تستمتعي بطعمها الحلو، وإما أن تتجرّعي كأسها المرة. وأنا لم أقدّم لك الكأس المرة، لأنني أفضّل التلذّذ أولاً بالطعم الحلو. وإذا رفض الناس الحلو الذي أقدّمه لهم، فليس أمامي خيار سوى تقديم المر. والآن ماذا تفضّلين، هذا أم ذاك؟

- لن أجيبك هذه المرة. احتفظ بحاجتك لنفسك.

وأغلقت الجارة بابها تدريجاً وهي ممتعضة.

اليوم، وبعد مرور سنوات عديدة، ها هو تامر يقرع باب شقتي. كان الوقت في الصباح الباكر، وكنتُ قد بدأتُ أغفو بعد ليلة طويلة في العمل. وفجأةً سمعتُ طرقاً على الباب: أنا تامر، افتح لي!

فتحتُ له فدخل. بدا لي أكبر سناً مما هو عليه، وأكثر نحولاً مما أذكر. وحين سألتُه عن أمه، أجابني بالسؤال عن القهوة والدوناتس.

قلتُ له:

- يمكنني أن أسخّن المياه لتحضّر القهوة. ولكن ليس لديّ دوناتس. ما الأمر؟

- يريد أوتو أن يراك، فالأمر طارئ. يطلب منك أن تحمل إليه بعض المشروب والمال والطعام.

- أين هو؟

- معنا.

- في منزل أمك؟

- لا، تحت الجسر.

- هيا بنا إذاً.

حين وصلنا إلى هناك، رحتُ أنظر إلى نار المخيّم المطفأة،

وعظام الحمام المبعثرة، وقناني المشروب الفارغة، وملابس المتشردين المرمية في الأرجاء. ظهر أوتو من خلف العمود الإسمنتي المبقّع بروث الطيور، وكان يعاني من البرد وآثار الخمرة. ناولتُه حقيبةً فيها طعام وكحول، ومغلفاً فيه قليل من النقود. فكسر الخبز، وفتح قنينة النبيذ، وراح يحتسيه بسرعة. أما تامر فبقي في التاكسي، ورأيتُه من مكاني يحرّك إبرة الراديو.

قال لي أوتو: هل تعرف ما هو أساس مشكلتنا يا فلاي؟ أترى تلك الطقوس التي نمارسها، والرموز التي نقدّسها، مهما حاولنا التخلّص منها، ستبقى هي المسيطرة علينا. أنت بنفسك جلبتَ لي الخبز والنبيذ... ضحك وتابع قائلاً: لا بد أنني أحتفل الآن بعشائي السري. ثم ضحك وقال: سيأتون لاعتقالي.

- من سيأتي لاعتقالك؟

- قتلتُ رجلاً الليلة الماضية، يا فلاي.

- قتلتَ رجلاً؟!

- نعم، قتلتُ ذلك الصحافي.

ابتعد قليلاً عن الظلال المعتمة واقترب من مساحة أكثر إضاءة. كانت السيارات تهز الجسر فوقنا، وترجّ عوارضه الحديدية. وقفتُ هناك تائهاً، لا أفهم لِمَ انتبه إلى تلك الأصوات الهزّازة والرجّاجة. فجأة قلتُ له مجدداً:

- قتلتَ رجلاً؟!

- لا أدري كيف حدث ذلك يا فلاي، لكنه حدث بالفعل. شعرتُ بانفعال شديد. شعرتُ وكأنني أقف تحت أشعة شمس ناسِفة. كنا نتحدث عن ألبير كامو، ففكرتُ بالجزائر وبملايين القتلى هناك. لا أذكر أنني ضغطتُ على الزناد، ولكنني أذكر أنني قلتُ للصحافي «إن كامو مجرد حقير». فأجابني: «هذا مؤكد. إلا أن حقارته، لا تمنعه من أن يكون مفكراً عظيماً». فقلتُ له مجدداً: «إنه حقير، هل تسمعني؟ وكل إنسان يؤيد سلطة استعمارية تحرم أهل بلد من أبسط حقوقهم، ومن العيش بهناء على أرضهم هو مجرد حقير. وأمثالك دعموا *Les Pieds Noirs*(*)، إذاً أنت وجمهوريتك بالحقارة نفسها». فأدار الفرنسي ظهره لي وجلس إلى طاولةٍ أخرى...

تركتُ المكان لأذهب إلى البيت، لكنني لم أكف عن التفكير بالجزائر... فانتظرتُ في الزقاق إلى أن خرج، وتبعتُه إلى فندقه. أذكر أنني وضعتُ كرة المهرّج على أنفي. كانت في جيبي، وكنتُ أحمل مسدساً. لكني لا أذكر ماذا حدث بعد ذلك. كان السواد حالكاً، وكنا في الزقاق. جعلتُه يردّد أسماء أماكن مثل إسبانيا النابوليونية، وهاييتي، وفيتنام، والجزائر. فبدأ الرجل بالصراخ. كان مسدسي مصوباً إلى رأسه يا فلاي، وأذكر أنه قال لي: «هذا القناع لن يفيدك، ولا حاجة إلى المسدس، فأنا أعرف من تكون. يمكننا

(*) الأقدام السوداء.

التحدث مثل شخصين متحضّرين». لكنني أجبرتُه على ترداد: بلدي ليس متحضّراً، بلدي ليس متحضّراً، بلدي ليس متحضّراً، بلدي ليس متحضّراً، كامو لم يكن متحضّراً... ثم تصرفتُ من دون وعي. كان الأمر أشبه بهبّة ريح ساخنة. خرجت الرصاصة تلقائياً من المسدس، ورأيتُ الرجل ممدَّداً على الأرض. لا أذكر ما حصل بعدها. لا بد من أنني كنتُ ثملاً. لقد انضغط الزناد وحده يا فلاي، لم أعد أذكر. لا أذكر يا فلاي.

مرّر أوتو أصابعه بين خصل شعره الدهني المتجمّع بعضه على بعض. أعطيتُه سيجارة أخرى، وأخرجتُ ولاعتي. فأحاط يدي التي تحمي الشعلة من الهواء بيدَيه الباردتين.

قلتُ له إنني سأساعده. ثم سألتُه: علامَ تنوي؟

- سأتنقّل في الأرجاء لبعض الوقت. لن أدعهم يعتقلونني يا فلاي. لن أعود إلى ذلك المصحّ.

- وأين المسدس؟

- سأتركه معي كآخر وسيلةٍ للدفاع عن نفسي.

- ارمِهِ في النهر.

- قلتُ لك يا فلاي، هذا سيكون آخر خرطوشة لي. لن أقبل بالأسر والطاعة بعد اليوم. ولا يمكنني البقاء هنا، فهذه اللعبة على وشك الانتهاء. علينا أن نعرف متى نخضع ومتى نرحل.

- انتظر.

لكن أوتو ودّعني وهو يشبك يده بيدي، ويطبع قبلةً على جبيني.

في اليوم التالي، دقّ شرطيان بابي، فدعوتُهما إلى الدخول. ولسخرية القدر، وقف الاثنان بين كتب الجرائم وكتب الطهو. وقد تعمّدتُ ترتيب هذين القسمين قرب النافذة، كإجراء وقائي من النيران الملتهبة الناتجة عن الزيوت المشتعلة، أو من السموم المدسوسة في الطعام، أو غيرها من طرائق القتل المتعمّد.

- هل تعرف السيد أوتو بلاك؟

- نعم، هو صديق لي.

- منذ متى تعرف السيد بلاك؟

- منذ عشرين سنة تقريباً، أو ربما أكثر.

- هل كان السيد بلاك يسكن معك؟

- كان يتردد علَيّ بالمناسبات.

- لكنه يتلقى بريده على هذا العنوان.

- نعم، لأنه يتنقّل كثيراً. ربما أعطاهم هذا العنوان كونه مقراً ثابتاً.

- هل ذكر أمامك يوماً السيد بوشار؟

- لا، لا أعرف من يكون.

- هو صحافي فرنسي وُجِد مقتولاً قبل ليلتين. تلقى رصاصة في وجهه من مسدس ٩ ملّيمترات.

هززتُ رأسي. وأضاف:

- شوهد السيد بلاك يتناقش معه في الملهى الإيرلندي في شارع كورتيس. هل لديك فكرة عن الموضوع؟

- لا، ليس لديّ أدنى فكرة.

- هل كنتَ موجوداً في الملهى ليلة السابع من الشهر الجاري؟ كان ذلك يوم الجمعة الفائت.

- نعم، لفترة قصيرة.

- هل كان السيد بوشار موجوداً هناك؟

- لا أعرف. كان المكان مزدحماً بالناس.

- هذه صورة للسيد بوشار قبل مقتله.

- لا أذكر وجهه وسط أجواء الكرنفال والزحمة. كانت الفوضى تعم المكان. تحدّثتُ إلى أوتو ورحلت.

- هل كان السيد بلاك يتحدّث مع السيد بوشار؟

- كما قلتُ لك، كان المكان مزدحماً.

- هل تعرف إن كان السيد بلاك يملك مسدساً؟

- لا. ليس لديّ أدنى فكرة.

- أين ذهبتَ بعد أن تركتَ المكان.

- عدتُ إلى العمل، فأنا سائق تاكسي. ذهبت لأملأ خزاني بالوقود.

- هل لديك إيصال؟

- نعم. دقيقة، سأجده لك.

أحضرتُ محفظتي الموضوعة على طاولة المطبخ، ورحتُ أبحث بين الإيصالات إلى أن وجدتُ الإيصال المطلوب. أعطيتُه للتحري الذي كان قد بدأ التفتيش في مكتبتي.

- هل تمانع إذا احتفظنا به؟

- كلا.

- هل قمتَ بشيء آخر تلك الليلة.

- قدتُ طوال الليل وأوصلتُ ركاباً.

- هل لديك زبون يمكنه أن يفيد بأنك نقلته تلك الليلة؟ أو ربما نداء من مراسل يكشف لنا عن وجهة تحركاتك.

- لا، فأنا سائق مستقل. لا أتعامل مع المراسلين.

- إذاً، أنت طيّار.

- نعم، أتجوّل في المدينة، ويركب معي زبائن من الشارع. فأنا من النوع الذي يضجر من انتظار النداءات والمكالمات.

- هل يمكنك أن تعطيني اسم أي شخص يؤكد لنا أنك كنتَ تعمل وراء مقودك تلك الليلة؟

- حسناً، أوصلتُ رجلاً عجوزاً وابنته إلى دار العجزة في إيستماونت. وقد ساعدتُ الرجل على دخول المكان.

- هل تذكر اسمه؟

- لا، لكنني أذكر أنه كان يبكي. ثم أعدت ابنته إلى منزلها. يمكنني أن أعطيك عنوانها لتتأكد منها. تحدّثنا كثيراً في طريق العودة، ونصحتني كثيراً، وسألتني عن اسمي. أنا معروف في عملي باسم فلاي. لا بد من أن تتذكرني.

- عمّ تحدّثتما؟

- عن الموت.

- عن الموت قتلاً؟

- لا، بل عن الموت الطبيعي بعد عمرٍ طويل.

- هل ستبقى هنا في الفترة القريبة.

- أتقصد هنا في البيت؟

- لا، أقصد هنا في المدينة. أو أنك ستركب قريباً طائرةً إلى مكانٍ ما؟

- لا، لن أحتاج إلى ركوب طائرة.

سياسي؟

- كلا.

- هل لي بمعرفة إذا كنتَ تشترك في استطلاعات أي حزب سياسي؟

- سبق وقلتُ لك أيها الملازم، أنا سائق تاكسي حر ومستقل.

- فهمتُ قصدك. هل تمانع إذا ألقيتُ نظرةً سريعةً على شقتك.

- بتاتاً. تفضلْ، لكن أرجوك انتبه إلى رأسك.

عمّ مقتل الصحافي الفرنسي الأخبار. قالوا إن البوليس يبحث عن المشتبه به، ثم ذكروا اسم أوتو. وأضافوا إن الجريمة لم تكن بدافع السرقة، لأن محفظة الصحافي وُجِدت كما هي في جيب الضحية.

في المساء، كنتُ أقود سيارتي وأتابع الأخبار، فسمعتُ المقابلة التي أجرتْها مراسلة صحافية مع السيدة العجوز، التي كانت تتقاسم المنزل مع أوتو. كانت العجوز متأثّرة جداً، وكان صوتها الأجش يعكس هديراً أطلقه دخان سجائر لا ترحم. وصفت أوتو بالرجل الغاضب الوحداني، وذكرت أنهما كانا يتشاجران باستمرار حول موضوع الرب. سألتْها المراسلة أيّ رب تقصد. فأجابتْها العجوز إن أوتو كان يكرههم كلهم، وإنه لم يحترمها يوماً لأنها مؤمنة. وفي كل مرة

يطل واحد من أولئك الطيبين على شاشة التلفزيون ليقرأ الإنجيل، أو يلقي عظةً، أو يطلب هبةً، كان أوتو يلعنه ويناديه بالمشعوذ. ثم يغلق الباب بعنف ليحجز نفسه داخل غرفته. ثم عاودَت وصفه بالرجل الغاضب.

المطر

تركتُ إشارة التاكسي في الصندوق، ورحتُ أجول في المدينة حيث الأجواء احتفالية. قصدتُ البحث عن مهرّج، آملاً أن أتعرّف إلى أوتو وسط تلك الحشود الراقصة. فكرتُ في أنّ لا مكان لهاربٍ يختبئ فيه، أفضل من صفوف الحشود المقنّعة، وهي تعاود تمثيل دورة الحياة والموت المتسلسلة.

هطل المطر، وقامت زينة المدينة ترقص تحته. تابعتُ القيادة تاركاً نافذتي مفتوحة، ودخّنتُ سيجارةً رغم اللافتة المعلّقة داخل السيارة. بلّل المطر وجنتيّ، فأرسيتُ مركبي على مقربة من بيتي، ورحتُ أمشي تحت الطوفان. توقفتُ لحظةً لأضحك، وأنا أتذكر المهرّج بانزي مبلّلاً بالمياه الخارجة من خرطوم الفيل، في كل عرض من عروضه. أردتُ أن أخطف نظرةً أخرى من داخل الخيمة، ومن وراء ستائر غرفة الملابس، إلى ضحكات المتفرجين الصغار، والوجوه المغطاة بالأيادي، والجماهير الصاخبة. لكنها أمطرت. فوقفتُ بوجه مهرّجٍ حزينٍ ينتظر أن يصفّقوا له. انتظرتُ أن يأتي

الفيل، ويرفعني على ظهره لأقف فوق، وأخبر كل إنسانٍ بأن المهرّج الذي أطلق المدافع كان بريئاً، وضائعاً، وحيّره شكل الكرة الأرضية الدائري، وإيماءات القرود المسنّين، وترجّحات النساء والرجال الخطيرة، وتصرّفاتهم الحيوانية. أردتُ أن أخبره بأن نيّة ذلك المهرّج لم تكن الدوس على قدم الفيل، ولا الغناء بصوت كهذا، ولا التهادي بملابس غير ملابسه، وبحذاء يأبى الرباط وبأزهارٍ تُرمى في وجوه الجماهير. أردتُ أن أوضح لكم سيداتي سادتي، أن نيّته الحقيقية كانت إعادة الحضور إلى وعيه، ليدرك أخيراً أن النهاية حتمية، وأننا راحلون بلا عودة.

هطل المطر، فاخترق ملابسي حتى بلغ عظامي. وقفتُ أراقب مجرى المياه وهي تتراقص على حواف الأرصفة قبل أن تتلاشى. فجأةً رأيتُ مظلةً تعوم في الأعلى، وامرأة تسرع إليّ، وتهز بقبضة يدها عصى ألوانها كتيمة لتحميني من شلالات الفيل. ضحكتُ. فغطّتني بمظلتها، وغمرتني بذراعها، ثم قالت: «ماذا تفعل يا فلاي؟ هيا بنا إلى الداخل». فبدا الأمر وكأننا في بروفة صامتة ينقصها تصفيق.

عدنا إلى الداخل. ذراعها حول كتفي أشعرني بالدفء، وعطرها الفوّاح تحت قطرات المطر أسال قطرات الدمع من عينَيّ. وقفتُ في المدخل لأحدّثها عن قدرتنا على الأذيّة.

فقالت:

- لمَ لا تصعد إلى شقتك؟ تعالَ يا فلاي، تعالَ معي.

مشيتُ والبلل في حذائي يشعرني برغبة القفز والخبط في بركة مياهٍ مثل أي ولد صغير.

سألتني، حتى أنها شعرت بالحاجة إلى الصراخ في وجهي:

- أين مفاتيحك يا فلاي؟ مفاتيحك؟

لا أدري كيف وجدتُ مفاتيحي، وفتحتُ الباب لأدخل شقتي. تبعتَني زينب إلى الداخل، وساعدَتني في خلع ملابسي. ركضَت إلى الحمام، وبحثَت عن منشفةٍ جفّفَت بها شعري ولفّته، ثم أدخلَتني الفراش. شعرتُ بإرهاقٍ كبير وضعفٍ شديد حتى تخيّلت السقف وجدار الكتب يدوران من حولي بسرعة خيالية. لا بد أنني كنتُ أفقد وعيي.

الملح

في صباح اليوم التالي دقّت زينب بابي. كانت تريد أن تطمئن علَيّ. الآن وقد عرفَت أنني أعيش بين الكتب، لم تعد تمانع من دخول شقتي.

حضّرتُ لها الشاي. في حين بدت مأخوذةً بحجوم الكتب وكميتها. أملتُ ألاّ تخرج فأرة من الفئران المختبئة بين الكتب لتتجوّل بين قدميها، فتخيفها، وتدفعها إلى الرحيل.

قالت لي: فلاي، عليك أن تراجع طبيباً. أعني أن تتحدّث إلى أحد. لم تكن في وعيك الليلة الماضية. لا أدري إن كنتَ تفهم قصدي. اعتقدتَ أنني شخص آخر، أو بالأحرى أشخاص آخرون. كنتَ، على ما أعتقد، تعيش حالةً، يمكن وصفها بـ...

فجأةً غيّرت زينب الحديث، وراحت تسألني عن الكتب. شرحتُ لها عن منهج التوثيق الذي أتّبعه، وكم هو مختلف عن ذلك المعتمَد في المكتبة التي تعمل فيها.

- ترتيبي قائم على رأيي الشخصي وعلى مقياس انطباعي.

فضحكت وقالت:

- هذا مثير للاهتمام يا فلاي. تابع أرجوك.

فابتهجتُ وقلتُ:

- ممتاز! أخيراً فزتُ باهتمامك. من كان يتوقّع هذا؟

- لطالما أثرتَ اهتمامي يا فلاي، لكنني لم أكن أهتم لِـ...

- الفوارق... بالفعل. إن ملاحظة الفوارق دليل على سرعة الخاطر.. لنبدأ بالكتب الخيالية مثلاً. رتّبتُها حسب انطباعي الخاص بمؤلفيها وشخصياتها. الأبطال الشهداء لهم أفضلية على المنتصرين، أو الشخصيات التي تحظى بنهاية سعيدة. لكن هذه المجموعة لا تتفوّق على كتب النهايات المفتوحة. تلك التي لا تبشّرك بمغزى

كبير. هذا لأنني أعتبر الروايات ذات النهايات المفتوحة أرقى مرتبة. ولذلك أنظّمها قبل تلك التي تنتهي بنهاياتٍ سعيدة. والتي أصفها عادة بالنهايات الدينية أو «القيامة» إذا صح التعبير. وكل هذه، تجدينها على الأغلب فوق الرفوف السفلى مقابل باب الحمام، هنا... أما الروايات التاريخية فهي منظّمة حسب الترتيب الأبجدي لأسماء المنتصرين في أولى المعارك التي تقع في الكتب. على سبيل المثال، وضعتُ كتاب *War and Peace* (الحرب والسلم) في قسم النون، نسبة إلى نابوليون طبعاً. وستجدين، لسوء الحظ، كتباً كثيرة في قسم الهاء، نسبة إلى القائد القرطاجي هنيبعل، وغيره من رعاة الفِيَلة المخادعين، والفنانين الفاشلين.

ونظراً لكوني ما زلتُ أستحوذ على انتباه زينب، تابعتُ شرح القسم الأكثر غموضاً في نظامي التوثيقي، ذلك الذي أنظّم فيه كتب الجرائم أو الروايات البوليسية. فأولئك الضحايا الجهلة مرتبون حسب محاولتي الأولية لمعرفة القاتل. ولمّا كنت أشتبه دائماً بكبير الخدم وينستون، ارتأيتُ أن من الأفضل وضع قسم الواو على الرفوف الأولى...

لننتقل الآن إلى الأمور الأكثر جدية. يا عزيزتي زينب، دعيني أعترف لك بأنني احتفظتُ بأفضل الأماكن وأكثرها تميّزاً للكتّاب الذين يبغضون البشر... على سبيل المثال، الكاتب الدرامي الأسترالي برنهارد، الذي ستجدين كتابه *L'enfant Terrible* (الولد الرهيب) على

الرف الذهبي، إلى جانب أعمال زملائه الأدباء الراديكاليين، وكتّاب الضمير الحي، والمتمردين، والمحرّضين، والداعين إلى التحرّر... فهذا النوع من الكتّاب يستحق احترامي المطلق، على الرغم من أنهم تعرّضوا في حياتهم لكثيرٍ من الاستخفاف والاحتقار. فعلى سبيل المثال، ولأذكر اسماً قد يهمك أو لا يهمك، ستجدين معظم الكتّاب العرب ضمن مجموعتي، مثل عبد الرحمن منيف الذي ألّف رائعة «مدن الملح»، في قسم فرعي سمّيتُه «المقاهي الباريسية». وهذا القسم يشمل أعمالاً لمؤلفين تعرّضوا للنفي، فكان عليهم أن يهجروا أوطانهم إلى فرنسا، ويتسكّعوا بقية حياتهم في المقاهي الباريسية. يدخّنون ويتذمّرون من الثقافة الفرنسية وثقافتهم الأم. هؤلاء بالنسبة لي هم كتّاب حقيقيون، لأنهم أخذوا موقفاً صارماً ضد حكوماتهم إلى أن اصفرّت أسنانهم من الإفراط في تدخين السجائر الأميركية. وهذا الأمر جعلهم يمتنعون عن الضحك أو حتى الابتسام، خوفاً من الإصابة بالإحراج، أو ربما لإصابتهم بالإحباط. فقضوا بقية حياتهم في حالة مزمنة من الوجود الشاعري الوحداني. أرجوك اتبعيني، من هنا، وانتبهي إلى رأسك. هنا، إذا نظرتِ فوق المرحاض، ستجدين كتباً أدبيةً ممتعةً بعيدةً عن السياسة. وتعمل تلك الصفحات، التوّاقة إلى إرضائك، أولاً، عمل الإسفنجة بامتصاص الرطوبة اللزجة بعد استحمامي العَرَضي وممارستي اليومية... حسناً، لا أقصد التصوير... ثم تأتي هذه الكتب التي رتّبتُها قرب النافذة كما لاحظت. دعيني أعرّفكِ بها. إنها كتب الاعتماد على النفس الهاربة من الواقع، والتي

أنقذها أحياناً من فوق مقعد سيارتي الخلفي. أما مكانها فيقع وفقاً لكل تمثيلية وفيلم مضحك يصور قصة هروب عاشق عارياً من نافذة الحمام.

قالت زينب:

ولكن يا فلاي، متى تمكّنتَ من جمع كل هذه الكتب؟ وكيف؟

- حسناً يا عزيزتي زينب. اعتقدت أنك لن تسأليني هذا السؤال أبداً، واسمحي لي أن أخبرك بالتفصيل. هل تذكرين السيدة الملتحية التي ربتني بعد موت أمي؟ لقد سقطت ذات يوم على أرض شقتنا الصغيرة، فحملتُها ورحتُ أدور بها في المدينة بحثاً عن طبيب. لا أحد من أولئك الأتقياء كان سيأتي إلى شقتنا، ولا أحد كان سيقبل أن يلمس سيدةً لها لحية طويلة، وقضيب ذكري، وثديان نجسان. ونحن لم نكن قادرين على دفع مبالغ طائلة تجعلهم يغيّرون رأيهم. وقد رفضَت السيدة الملتحية الذهاب إلى المستشفى الحكومي، قائلة لي بأن علينا أن نموت جميعاً بكرامة. كنتُ حينها في السادسة عشرة من عمري، وكنتُ معروفاً في أنحاء المدينة بابن السيدة الغريبة. حملتُها إلى حيّ معدم حيث وجدتُ أخيراً طبيباً قَبِل مساعدتي. كان من النوع المطّلع. وذات يوم، كنتُ أتحدّث معه عن الكتب، فأعطاني رواية بولدوين لأقرأها. بالمناسبة، ما زالت لديّ حتى اليوم، وأضعها على الرف الذهبي إلى جهة الشمال، فوق ما تبقى... ها هي *Giovanni's Room* (غرفة جيوفاني).

اهتم الطبيب كثيراً بالسيدة الملتحية من دون مقابل. وبقيت مريضة لسنوات طويلة، فتركتُ المدرسة لأعمل في كل أرجاء المدينة إلى أن حصلتُ يوماً على وظيفة ثابتة في خدمة التوصيل. كنتُ أوصل الطعام إلى كل مكان، وكنتُ أختلس النظر داخل البيوت لأرى صلباناً معلّقة فوق التلفزيونات، وعلى جدران المطابخ، إلى جانب القدور والمقالي. رأيتُ عمالاً مبتهجين أمام علبة هامبرغر وكيس بطاطا مقلية، وأكواب صودا مليئة بمكعبات الثلج. وذات يوم، تعرفتُ إلى البروفسور، وكان قد طلب وجبةً من دون لحم مع ملح إضافي. قرعتُ بابه وانتظرتُه كي يفتح. كان مشغولاً دائماً بأمور عديدة لا صلة لها بالاستهلاك، ويخطئ في عد النقود المعدنية. كل مرة أدق فيها بابه، كان يردد عليّ الجملة نفسها: آه لقد وصلت، سأضع كتابي على الطاولة وأجلب لك الفكّة. أعتقد أنني تركتُها... ثم ينغلق الباب، وأنتظر مجدداً. وفي بعض الأحيان، عليّ أن أدق الجرس من جديد ليتذكّر أنني ما زلتُ أنتظره.

ذات مرة، فتح الباب من دون أن ينظر إليّ، ودعاني إلى الدخول، ثم أرشدني إلى الطابق الأرضي، قائلاً لي إن علبة الموزّع الكهربائي في هذه الناحية. وقفتُ في وسط القاعة، ووجدتُ نفسي مُحاطاً بمجرّات من الكتب. قلتُ له إنني لن أتمكّن من تصليح علبة الموزع، وذكّرتُه بأن الإنسان قادر على تناول وجبته في العتمة. فأجابني وهو يبتسم: «بالطبع، فهناك نور علينا البحث عنه في الأماكن الأكثر ظلمة». ثم سألني:

- هل أكلتَ؟

- كلا.

- حسناً إذاً، يمكنك الانضمام إلَي.

انضممت إليه وأصبحنا صديقين. كنتُ أوصل إليه الطعام، ونجلس لنتحدث عن الحياة، وعن النجوم والمعادن والكتب. كان اهتمامه منصبّاً على التاريخ والأدب، لكنه كان مطّلعاً أيضاً على علم النجوم والكونيات. أما وقت ترفيهه فكان ينقسم بين القراءة والبحث في الكواكب الجوّالة. أخبرني ذات يوم، ونحن نأكل ونتحدّث، أن تلك الكواكب تُعرف باسم «بلانيمو». وهي رزمات منفية من الأجسام تجول في الفضاء دون توقّف. وقال لي أن لا مدار لها، وإن النجوم لا تستضيفها لتدور حولها. فهي جوّالة ضائعة بلا هدف. لكنها تحاول التآلف لتصل إلى أبعد مكان.

بعد أن أصبحنا صديقين، وبسبب ضعف نظره الشديد، راح يدعو كل من يدق بابه إلى الدخول، ويناديه باسم فلاي. دخل الكهربائي أولاً وقبل ما قدّمه له من بقايا طعام. ثم دخل سائق تاكسي ليأكل كل الحلويات الهلامية الخضراء. ثم توافد عليه سلسلة من المتشردين المثقفين الذين قدّموا لأنفسهم ما لذ وطاب في ثلاجته، وما توفّر من نبيذ. أما الاعتراض الوحيد الذي صدر عن هؤلاء المستفيدين فبان عندما كان يناديهم البروفسور بفلاي. وقد سُمع يوماً أحد

المتشردين يقول له: أنت بنفسك دعوتني إلى الدخول، فلمَ الإهانة والافتراء.

بعد مرور سنوات عدة، وبعد أن عاش مطوّلاً في عالمه الخاص، قال البروفسور: فلاي ما زال لدي ثلاثة أشهر لأعيشها. سأسلّم كل أوراقي، ورسائلي الشخصية إلى أرشيف الجامعات، لكنني سأترك لك الكتب. وهكذا كان. فبقيتُ أسابيع طويلة أنقل كل هذه الكتب إلى شقتي.

أخبرني البروفسور، الذي كان يُدعى مصادفة ألبيرتو مانويل، بأنه لطالما أمل أن يموت ميتةً شاعريةً مجيدة، كميتة الجاحظ، فيلسوف القرن التاسع العربي، الذي كان يملك أيضاً مكتبة هائلة، وسقط قسم منها، ذات يوم، على رأسه فمات.

ثم تابع قائلاً: إن أكثر ما يحيّرني يا عزيزي فلاي، هو: أي قسم بالتحديد وقع على رأسه؟ وأي ترتيب كان يتّبع في تنظيم كتبه؟

أجبتُه: على كل المكتبات أن تخضع لترتيب معين.

أكّد لي قائلاً: بالطبع، وإلّا يضيع كل شيء. فسقوط أعظم الأمم والإمبراطوريات بدأ بسقوط مكتباتها.

مشيتُ وراء نعش البروفسور، إلى جانب طلابه وزملائه. ألقى الجميع خطابات تناولت حياته وإنجازاته، وحبه للكتب والتعلّم والحياة. وألقى بعضهم أبيات شعرٍ ومقاطع أغان. ثم وقف رجل

أشقر وقال: سأقرأ مقطعاً من أبيات شاعر البروفسور المفضَّل: أبو العلاء المعرّي. واعتذر قبل أن يستهل القراءة على لفظه لاسم الشاعر:

ضحكنا وكان الضحكُ منّا سفاهةً وحق لسكانِ البسيطةِ أن يبكوا
يحطِّمنا ريْبَ الزمان، كأننا زجاجٌ ولكن لا يُعاد له سبكُ

حملتُ في الجنازة كتاباً اخترتُه من مكتبته وهو *The History of Salt* (تاريخ الملح). وعندما حان دوري لألقي كلمتي، قرأتُ مقطعاً من ذلك الكتاب يتناول أهمية الملح في زمن الفراعنة، ودوره في تحنيط الأحياء. وقد اخترت ذلك عن قصد، لمعرفتي بحب البروفسور للملح. قرأتُ: «العثمانيون لم يفرضوا ضريبة على الملح. وكلمة (طوز) على الرغم من أنها لم تعد موجودةً في القاموس التركي الحديث، إلا أنها تعيش حتى اليومِ في اللغات التي يتحدثها سكان الشرق، وقد مرّ زمن طويل على تفكك السلطنة العثمانية وغيابها عن المنطقة». ثم أنهيتُ قائلاً: «الغموض يحيط بما يبقيه التاريخ وبما يمحوه».

ومنذ ذلك الوقت وأنا أعيش وسط مكتبةٍ واسعةٍ.

نظرَت زينب إلَيّ وعيناها ملأى بالدموع، ثم قالت: فلاي، هذا رائع.

ثم مدَّت يديها لتلمس وجهي وتابعت قائلة: فلاي، لا يمكنني

الاعتناء بك. لم تكن على ما يرام الليلة الماضية. يجب أن تبحث عن مساعدة. يجب أن ترى أحداً...

الضباب

في اليوم التالي، كنتُ مرمياً في فراشي وسط ضباب من الكلل والكسل، حين عادت فكرة القتل تنهشني. فرحتُ أفكر في أوتو، وأتساءل أين يمكن أن يكون.

وكي ألهي نفسي فكّرتُ في إعادة ترتيب قسم التاريخ القائم على حرف السين، فأعطي هذه المرة الأولوية للشهوة الجنسية على حساب النصب التذكارية. في تلك اللحظة، سمعتُ صوت اهتزاز السرير بالرومانية والطبيب على أنغام معزوفة «الدانوب الأزرق الجميل»، فنهضتُ وانطلقتُ مسرعاً إلى الرواق. قرعتُ وقرعتُ إلى أن جاءت الرومانية وشقّت الباب، وصرخت في وجهي: ماذا تريد؟

قلت لها: أعرف أن الطبيب هنا، فقد رأيتُ سيارته في الأسفل. أريد إن أسأله إن كان بإمكاني الحصول على استشارة طبية خارج مواعيد العمل.

سمعتُ الطبيب يصرخ وهو يخفّض صوت الموسيقا: من هناك؟

- هذا أنا، يا دكتور، الجار الذي يقدّم الهدايا.

- انتظر في الخارج، سآتي حالاً.

انتظرتُه في الرواق. فخرج وهو يعدّل بنطلونه. قلتُ له: أرجو أن نكون قد استمتعت بالغرض الذي أعطيتُه لصديقتنا المرة الماضية يا دكتور.

اكتفى بالإيماء، دون أن يعترف بالأمر بطريقةٍ صريحة. فقلتُ له:

- على كل حال، أنا هنا طمعاً بخدمة. فأنا أعاني مما يمكن أن نسميه هواجس وأفكاراً خيالية.

- أي نوع من الأفكار؟

- أفكار بريئة واستعراضية، تشمل الحبال والمهرّجين، وحتى الحيوانات.

- هل يتخلّلها هواجس جنسية؟

- لا، بل نوع من الذكريات. لذلك، فكرتُ في مراجعة طبيب مختص. أعرف اسم طبيب حاذق، وكنتُ أتساءل إن كان بإمكانك إحالتي إليه. اسمه الدكتور وو.

- طبعاً، طبعاً. لكن عليك أن تزورني أولاً في عيادتي.

- بالطبع، وعفواً على الإزعاج. فكرتُ في... بما أنك هنا...

- لا مشكلة. تعالَ إلى عيادتي غداً صباحاً. هل قلتَ الدكتور وو؟ ذكّرني به غداً، وسأقوم بإحالتك إليه. لستَ مضطراً إلى الانتظار.

- ممتاز.

- بالمناسبة، إذا كان لديك المزيد من تلك الوصفة... هل فهمتَ قصدي؟... اجلبها معك.

- سأحاول.

عندما أحالني إلى الطبيب المعني، قصدتُ مباشرةً عيادته. كنتُ أخاطر في ذلك، ولكن كان علَيّ أن أتأكّد من أنه لا يتذكر وجهي، بعد تلك الليلة التي أوصلتُه فيها إلى أسفل الجسر حيث انتظره أوتو. لذلك حرصتُ على ارتداء أفضل بذلةٍ وربطة عنق والتطيّب بأفضل عطر.

دخلتُ العيادة، وسألتُ السكرتيرة إن كنت أستطيع رؤية الطبيب. كانت جد لطيفة معي، وسألتني إن كان لدي تأمين صحي. فابتسمتُ لها وقلتُ: «لا، كل ما أنا بحاجة إليه اليوم هو معاينة سريعة قبل رحيلي عن المدينة، وأنا مستعد للدفع». فطلبت مني أن أملأ استمارة وأنتظر دوري. جلستُ واستغرقتُ وقتاً كافياً لملء تلك الاستمارة تحت اسم مستعار. وضعتُ إشارة على الأعراض التي تصف حالتي النفسية والجسدية. وقرّرتُ عشوائياً أن أعاني التهاباً مزمناً في المثانة والرؤية المزدوجة.

دخلتُ على الطبيب فسألني: «بمَ أخدمك».

قلت: أعاني من أرق شديد، ولا أنام طول الليل. أشعر بالكآبة،

وفي بعض الأحيان يقودني الحزن إلى الفراش. كما أشعر بالتعب طوال الوقت، وقد خطرت ببالي أفكار انتحارية. لا أجد الراحة إلا عند ممارسة عادتي السرية بانتظام.

نظر إلَيّ بوجهٍ جاف وقال:

- ماذا تفعل يا سيد...

- لقد تركت عملي السابق، وسأباشر عملاً جديداً.

- وماذا كنتَ تعمل من قبل؟

- كنتُ أعمل في النقل.

- وهل كان عملك يتطلب مجهوداً جسدياً.

- لا، كنتُ أجلس طوال الوقت.

- حسناً، سأرسلك لتقوم بفحص صحي كامل. سيقيسون ضغطك وسيجرون لك فحصاً للدم وتقويماً نفسياً. أنصحك ببعض الحبوب التي ستهدئ من رغباتك. هل تعاني تشوّشاً في الرؤية وأعراض هذيان؟

- أي نوع من الأعراض؟

- سماع أصواتٍ مثلاً.

- أصوات من؟

- الله، مثلاً.

- لا، ليس أنا. لكن يبدو لي أن كل من حولي يسمعون ذلك الصوت.

عبس الدكتور ونظر إلَيّ من أعلى نظارته. فقلت:

- لستُ مؤمناً، يا دكتور.

- استنتجتُ ذلك. هل ثمة شيء آخر؟

- يصعب علَيّ قول ذلك. لكنني تذكرتُ مؤخراً مراحل من طفولتي، وأحزنني الأمر. فتذكُّر تلك المراحل الانتقالية، والتردّد بين الحرية والضياع، يستنزفانني.

- الأمر طبيعي. في مرحلة معينة من العمر، يميل كل واحد منا إلى النظر إلى ماضيه. على كل حال، قلتُ لك إنه يمكننا مناقشة تلك الأمور بالتفصيل في الجلسة المقبلة. سأطلب من سكرتيرتي أن تحجز لك موعداً، وتدلك على المكان الذي ستجري فيه فحص الدم.

- دكتور، هل التقينا من قبل؟

- لا، لا أعتقد ذلك.

- لكن وجهك مألوف.

ألقى الطبيب نظرةً سريعةً إلى الاستمارة التي ملأتُها ثم قال:

- لا أذكر اسمك. هل دخلتَ المستشفى سابقاً بسبب مرضٍ عقلي؟

أجبتُه وأنا أضحك في نفسي:

- لا، ليس بعد. ولكن لديّ ميل إلى جمع أصدقاء ومعارف خاضوا في مرحلةٍ من حياتهم، تلك التجربة.

- هل هم من أفراد العائلة؟

- نعم، شيء من هذا القبيل.

- إذاً، لمَ لا تزورني في المستشفى الأسبوع المقبل. سنرى هناك كيف نعالج الأعراض التي تعانيها.

- الأسبوع المقبل؟ علَيّ أن أراجع أولاً جدول أعمالي، ولاحقاً أؤكد لك الموعد. على الرغم من أنني قد أضطر إلى السفر خارج البلاد.

- فهمتُ. إذاً علينا انتظار عودتك.

- ستكون على الأغلب رحلة طويلة.

قلتُ ذلك، واستدرتُ صوب الباب لأخرج إلى الشارع، وأستنشق الهواء النقي على أرصفة المدينة.

العناكب (مجدّداً)

توقفتُ عند مقهى بوليرو. ورحتُ أفكر في أوزان هؤلاء العناكب التي تزيد تدريجاً مع مرور الأيام. إنهم يجلسون هناك

طوال الوقت، ويتناولون وجباتٍ دسمةً وكبيرةً لتعلو أصواتهم وتضيق عليهم مقاعد سياراتهم. طلبتُ القهوة، وانضممتُ إلى الطاولة الأكثر ضجيجاً. كان الـ١٧ يلوّح بيديه، ويتحدث عن هذا البلد، وعن الاختلاف بينه وبين غيره، فقاطعه الـ٦٧ قائلاً: «أنت محق، فنحن نأتي من بلد لا يعرف الديموقراطية. ولكن هناك، على الأقل، يمكنك أن تنهي أمورك بسرعة كبيرة، خصوصاً إذا كانت لديك علاقات نافذة، أو كنت تعرف كيف تدخل على الشخص المسؤول، وتكسب احترامه.

وتابع الـ٦٧ قائلاً: دعني أخبرك هذه القصة. ذات ليلة ركبَت معي سيدة جميلة وأنيقة. سرعان ما بدَت لي ميسورة، وتأكد لي الأمر فيما بعد، عندما أوصلتُها إلى منطقة راقية. فسألتني من أين أتيت.

قلتُ لها إنني من تونس، أجمل بلد في القارة الإفريقية. فنحن ندعوها «تونس الخضراء». ثم سألتُها إن كانت تعلم أين تقع.

قالت لي إنها زارتها سابقاً، وإنها أخطأت في الوثوق بتاجر سجاد في السوق. طلبتُ منها أن تخبرني بما حصل. فقالت إنها حين زارت تونس، ذهبت إلى السوق لتشتري سجادة جميلة لمنزلها. هناك حاول جميع التجار إدخالها إلى متاجرهم، حتى أنهم رموا بضائعهم تحت قدميها.

فجأةً ظهر رجل يرتدي بذلةً أنيقةً، ويتحدث الإنجليزية بلكنة

بريطانية. دعاها إلى مرافقته، ثم أمسك يدها بلباقة، وقادها إلى متجره. أخبرها بأنه عاش صباه في إنجلترا، حيث درس التاريخ، لكن وفاة والده أجبرَته على العودة إلى تونس للاعتناء بعائلته وإدارة أعمالها. ثم دعاها إلى الجلوس، وقدم لها الشاي والحلويات، وعرض أمامها تشكيلة من السجاد. ثم جاءت ابنته بوردة، وشكّتها في شعرها. وراح مساعدوه يقلّبون أمامها السجاد، واحدةً تلو أخرى، إلى أن اختارت سجادة إيرانية حمراء... قال لها الجميع إنها من إيران، ولكن تبيّن أخيراً أنها صنع تركيا... على كل حال، لم تكن هذه المشكلة الحقيقة، وإنما وزن السجادة وحجمها لم يسمحا لها بحملها معها على الطائرة. فقال لها مالك المتجر إنه يستطيع إرسالها لها عبر البريد المضمون، وأخرج لها وثائق تابعة لشركة شحن توصل جميع أنواع البضائع إلى أي مكان في العالم، بما في ذلك اليابان. فقد سبق أن زاره يابانيون في متجره واشتروا منه...

طلب منها المالك أن تترك عربوناً بنسبة خمسين في المئة، وتدفع الباقي عند استلام السجادة. وأكد لها أنه يثق بزبائنه، وأنه عليها فقط إرسال المال عبر الحوالة المصرفية بعد أن تصلها البضاعة سليمة. كما ناولها بطاقة أعماله.

عادت السيدة إلى بلادها. ولم تتلقّ أي سجادة رغم مرور أسابيع عديدة. فاتصلت بالرقم الموجود على البطاقة، ووجدَته خارج الخدمة. كانت قد دفعت للرجل ثمانمئة دولار مقابل لا شيء. الرجل سرق مالها، هذا كل ما في الأمر.

سألتُها إن كانت تذكر اسم المتجر، فأجابت بنعم. وكنا قد وصلنا إلى منزلها، فأخبرتُها بأنني عائد إلى تونس بعد أسابيع لزيارة عائلتي، وبأنني سأسترجع المال وأعيده لها. واشترطتُ عليها، في حال استرددتُ الثمانمئة دولار، أن أحتفظ بمئتين. فكّرَت ملياً ثم قالت لي: «بعد كل الذي جرى، ليس لديّ ما أخسره». دخلَت منزلها، ويا له من منزل، فالسيدة راقية. أخرجت لي بطاقة الأعمال وإيصال السجادة، ودوّنت رقمها عليه. فقلتُ لها إنني سأتصل بها فور عودتي.

وصلتُ إلى تونس في آخر شهر رمضان الكريم، وكانت الأعمال راكدة في ذلك الوقت. مرّ الأسبوع الأول، فاحتفلتُ بالعيد مع عائلتي. وفي الأسبوع الثاني، ارتديتُ أجمل ملابسي، وقصدتُ المقر الرئيسي لمركز الشرطة. هناك سألتُ عن الضابط محمود.

سألني الرجل من وراء مكتب الاستعلامات: «ومن تكون؟». فأجبت: «قل له إنني صديق قديم لأخيه منصور».

خرج الضابط بنفسه من مكتبه ليستقبلني ويرافقني إلى الداخل. كان أخوه منصور قد رحل عن تونس منذ زمنٍ بعيد، ولم يرَ الضابط أخاه لسنوات. أما أنا فتعرفتُ إلى منصور في تلك البلاد، وتشاركنا في غرفة واحدة خلال خمس سنوات، أصبح خلالها منصور بمنزلة أخ لي.

أمر الضابط حارسه بإحضار الشاي والحلويات، ورحنا نتحدّث عن منصور وعن حياته في المهجر. قلتُ له إنني لم أرَ منصور يبدّل عاداته منذ أن ترك تونس. فما زال يستيقظ كل صباح، ويتناول الخبز، والملح، وزيت الزيتون. وما زال يشغّل في الصباح شريط أم كلثوم، ويهزّ رأسه على وقع الأغنية، ويشرب الشاي، ويتنقّل في الغرفة بزحافاته البلاستيكية، تلك التي أحضرها معه من تونس.

ضحك الضابط ولمعت الدموع في عينيه.

في تلك الليلة، أخذني إلى قريته لأتعرف إلى أمه وعائلته. وبعد أن تناولنا وجبةً لذيذة، سألَتني أمه إن كان بوسعي أن أحمل قنينة من زيت الزيتون البلدي إلى ابنها في المهجر. فقلتُ لها إن حقيبتي ممتلئة، ورغم ذلك سأحمل العالم فيها، فقط من أجل عينيْ منصور.

قبل مغادرتي بثلاثة أيام، عدتُ لأزور محمود في مكتبه، وقلتُ له: أيها الضابط، أصبحتُ الآن فرداً من العائلة، فمنصور بمنزلة أخٍ لي. قبل أن أرحل، سأطلب منك خدمة صغيرة.

فقال لي: إذا أزعجك أحدهم، أو إذا أردتَ أي شيء من هذه المدينة، فلا تتردّد لحظة في إخباري!

ناولتُه البطاقة والإيصال اللذين أخذتُهما من السيدة، وأخبرتُه بقصة تاجر السجاد. ثم قلتُ له: إن لصاً مثل هذا الرجل يجعلنا، أنا وأخاك، نبدو سيِّئين في نظر أهل تلك البلاد الغريبة. فهو وأمثاله

يرمون أسماءنا في الوحل، وسمعة بلادنا في الحضيض. وقريباً جداً، سيبدأ الأجانب ينصحون بعضهم بعضاً بعدم زيارة تونس، على أساس أن التونسيين لصوص. فباسم هذا البلد المجيد، وباسم صداقتنا، أسألك أن تفعل شيئاً، أيها الضابط.

قام الضابط عن كرسيه، وضرب بقبضة يده على المكتب الحديدي، وصرخ منادياً مساعده الذي يقف على الباب. وبعد عشر دقائق، كنتُ أسير في موكب مؤلّفٍ من خمس سيارات جيب، فيها عشرون شرطياً نحو السوق القديمة. جلستُ قرب الضابط، وحين وصلنا إلى السوق، رأيتُ عناصر الشرطة التي كانت ترافقنا، تركض في الشارع وتقفل جميع المتاجر باستثناء واحد.

يمكنني أن أقول إن السوق كلها أقفلت في دقائق. رحتُ أمشي في السوق بجانب الضابط، ونادى أحدهم المالك. رأيتُ الرجل العجوز يخرج في بذلته من وراء كومة سجاد، منحني الرأس مثل كلب.

أراه الضابط البطاقة والإيصال، ثم صفعه وأملى عليه محاضرة في الغش، وجرف سمعة البلاد إلى الحضيض. صفعه مجدداً أمام موظفيه وأفراد عائلته، فراحت زوجته تندب، وأحفاده يبكون. وفي دقيقتين - وصدقّني عندما أقول لك دقيقتين - كان المالك قد دخل إلى متجره وعاد بثمانمئة دولار. أمره الضابط بعد ذلك بأن يكتب رسالة اعتذار إلى السيدة. فطلبتُ من الضابط أن يكتبها بالإنجليزية،

وإن كان صحيحاً ما قال عن نفسه بأنه رجل مهم في إنجلترا. كان كاذباً، ومجرد كاذب. حتى أنه غير قادر على كتابتها بالعربية.

حين عدتُ إلى هنا، اتصلتُ فوراً بالسيدة. كانت متأثرة للغاية، حتى أنها تركت لي مئة دولار إضافية. فجمعتُ ثلاثمئة دولار من لا شيء.

هكذا أنهى الـ٦٧ قصته. ثم رأيتُه يميل إلى الخلف مبتهجاً، فاعتبرتُ ما قام به مثيراً للشفقة. ونظرتُ إلى الطاولة، فرأيتُ طبقه شبه فارغ، تطفو على سطحه بقايا كسرات خبز. وبعدها راح عاشق الطغاة والمستبدين ينكش أسنانه.

التفتُ إليه وقلتُ له: الوحيد في هذه القصة الذي يجب أن يكتب رسالة اعتذار هو ضابط جمهورية الموز تلك في شرطة الولاية.

أجابني: عن أي موز تتحدّث؟ هل تعتقد أننا موز؟ الموزة الوحيدة التي أراها هنا هي تلك التي تجلس عليها. فضحك العناكب من حولنا.

قلتُ له: حسناً، لن أمنع الموزة من مؤخرتي، فهي تثير شهوتي على أختك العذراء. ثم ارتشفتُ القهوة بهدوء.

قام عن كرسيه وصرخ: لوطي ابن ساقطة! سترى يا ابن الساقطة.

عندئذ وقفتُ عن الكرسي وخرجتُ من المقهى. أخرجتُ مفاتيح السيارة من جيبي، وأشعلتُ سيجارة، وانتظرتُ.

خرج الـ٦٧. ففاجأته وأمسكتُه من عنقه، ورحتُ أضربه على وجهه، والمفاتيح في يدي. سدّدت لكمة قوية على أنفه، فاحمرّ. ثم خرج سائقان من المقهى ليردّاني عنه. قبض أحدهما على حنجرتي، لكنني أمسكتُ ببنصره، وضغطتُ عليه إلى الخلف، حتى سمعتُه يطقطق، وسمعتُ الرجل يتنهّد، فتركتُه. حين رأى الباقون السائق الأكبر يمسك بيده، وينهار على حافة الطريق، تراجعوا وراحوا يهددونني من وراء أسطح سيارات التاكسي. اتّجهت نحو سيارتي، ثم قررتُ أن أتركها مكانها، وأتابع مشياً على الأقدام. كانت مفاصلي وأظفاري، وأكمامي، كلها ملطخة بالدماء.

ابتعدتُ عن البوليرو سائراً في الشوارع دون هدف، إلى أن بلغتُ الجسر، وكانت السماء قد بدأت تمطر من جديد. صعدتُ الدرج لأجتاز الطريق السريع من الأعلى، فشعرتُ بالسيارات تزحل تحتي. رحتُ أراقب المدينة تمتد وتتقلّص تحت حبال الأمطار الغزيرة والأضواء المشعة. وقفتُ هناك تحت مياه إله البحار، تحت لعاب جاموس يسيل فوق العالم، تحت دوي رعد ابن كرونوس، تحت دموع أمنا العجوز، تحت حب يَهْوَه المخادع لأبناء قبيلته، تحت ختان السجناء على السفن العابرة للأتلانتيك، تحت يدي راما الموشومتين وهما تنظفان ما حظّر مسّه على حافة النهر، تحت قرابين العذارى إلى التماسيح المتلاطمة، المريّلة، الرشّاشة.

تركتُ المطر يغسل الدماء عن يدي، ويعيد البياض الناصع إلى

أكمامي. وحين وصلتُ إلى الجانب الشرقي للمدينة، وقفتُ أحتمي تحت سقف محطة للباص. رحتُ أشاهد الباصات تنطلق، والمطر يهطل حبالاً سميكة بسماكة الستائر وظلمة الحجاب. مشيتُ مجدداً تحته، وكان شعري مبلّلاً، وملابسي تخفي انتصاب حلمتَيْ صدري وتقوّس كرشي إلى الداخل. لا بدّ أنني بدوتُ للسائقين المارين على الطريق السريع شبحاً رمادياً محدودباً، مكسوراً تحت لعنة المياه وفيضاناتها. وما أدرى تلك الهياكل المعدنية والزجاجية، وأولئك الحارقين للنفط، وصانعي المطر الأسود، بمتعة المياه، وثقل الأجسام المنقوعة، وتحليقات المجانين.

في صغري، كان مدير السيرك يستدعينا حين تمطر، فنخلع ملابسنا ونسرع إلى الخارج، إلى الفيلة مع دلائنا وفراشينا. كنا نطلق سراح الأحصنة والكلاب في دوائر الوحل، ونُؤوي الأسود، والقرود والطيور من الأمطار الغزيرة المفاجئة والسماء السائلة، ونقفز كالسعادين، ونصدر أصوات الخنازير في القذارة، ونصفّق للفقمات كي تأتي وتنضم إلينا تحت السماء الملبدة بالغيوم. وحين يتوقف المطر، كنا ندخل جميعاً الخيمة الرئيسية لنشعل النار، ونعزف الموسيقا، ونرقص على المقاعد الفارغة. ذات مرة، بعد أن توقف المطر، مشيتُ وحدي بجانب الخيم الرطبة، تحت علم السيرك المبلّل، باتجاه قافلتنا، لأخلع ملابسي. كنتُ وحدي. وكان جسمي الصغير والنحيل يرتجف من البرد والسعادة. بعد دقائق، دخلت أمي

عليَّ. كانت عيناها باهتتين، وخصل شعرها مبلّلة، ووجهها مزين بألوان سائلة على وجنتيها. نادتني باسم غير اسمي، وضحكت حين رأتني عارياً، فحدّقت إليّ وراحت تردّد: الرجل الطائر، دعني أُرْضِكَ أيها الرجل الطائر. ثم شدّتني إلى صدرها، وقبّلتني في عنقي، ومسحت بشرتي بيدها، ولامستني. ثم أمسكت قضيبي المنتصب، وداعبته حتى قذفتُ. فقالت: هيا اذهب، لقد حان وقت رحيلك، امشِ باتجاه صحرائك وحجرك.

تامر

حين يصبح لون الإشارة أحمر، وتنتظر جميع المحركات، مطلقةً الدخان السام من مؤخرة سائقيها، تسقط قطرات مياه غير متوقعة على زجاجك الأمامي من بخاخات القناني البلاستيكية، المعصورة بين أصابع أولاد الشوارع القذرة. هؤلاء الذين يدفعونك إلى الصراخ عالياً في وجه العالم، هذا ظلم! أعترض كلياً على هدر تلك المياه النظيفة التي يعيش منها الفقراء، فأصرخ في وجه حاملي الممسحة المطاطية الصغار: هاكم النقود ولكن لا تحجبوا الأفق عني بماضيكم المشبع والملوّث بأمهات تشك أذرعها بالإبر وآباء مجهولي الهوية.

في مساء اليوم التالي، ركبت الحافلة إلى مقهى بوليرو، لكنني لم أدخله. استعدتُ سيارتي من هناك لأجول مجدداً في شوارع

المدينة. عند إشارة ضوئية، رأيتُ مهرّجاً يقترب من سيارتي، وفي يده قنينة جاهزة لبخ المياه على الزجاج الأمامي. وقبل أن ألوّح بيدي وأطلب منه ألاّ يفعل، سمعتُ المهرّج يناديني: فلاي، فلاي! هذا أنا، تامر. ثم ركض باتجاهي، ونادى صديقه الذي كان يرتدي أسوأ ما رأيتُه في حياتي من أزياء للحشرات. قلتُ له: ماذا تفعل في الشارع يا تامر؟

فأجاب: أجمع المال مثل أجدادي. وضحك الاثنان.

قلت: اركب.

ركب الاثنان، وأغلقا وراءهما الباب بعنف. ذكّرني ثقلهما، ومنحنى المقاعد شبه المرئي تحت جسميهما، والعظام الناتئة من وجناتهما، بأن الجوع ليس قضيّة مضحكة. فلا احتفال تنكري، ولا زَيّ، ولا ضحكة، ولا حركة بهلوانية، يمكنها أن تسد جوع معدة فارغة. قلتُ لهما: «هيا بنا نأكل». ففرحا وبدآ يضحكان ويصفقان.

أخذتُهما إلى مطعم يقدّم الوجبات السريعة. ودفعتُ ثمن كل أطباق الهمبرغر التي أمكنهما أن يمسحاها بلحظة، وكل أكواب الصودا التي قد فاضت على الحواف، وكل علب البطاطا المقلية التي أصر كل منهما على أن تكون بالحجم الأكبر.

حرصتُ على معرفة أي نوع من الحشرات يتقمّص صديق تامر. وعندما سألتُه، اكتفى بقول: البق. ثم سألتُه عن اسمه، فأجابني تامر:

إنه البق سكيبي! بدا ذلك لهما مضحكاً، وتابعا تناول الطعام مثل جرويْن جائعيْن.

سألتُ تامر: كيف حال أمك؟

فأومأ وهز رأسه، لأن فمه كان مليئاً بالطعام. ثم نجح في قول:

- ليست على ما يرام.

- هل تعمل؟

- كلا.

- وفريداو؟

- رحل.

ونظر كل من الصبيين إلى الآخر. ضحكا ثم قالا:

- تخلّصنا منه.

- وكيف تخلّصتما منه؟

أجاب البق سكيبي: ضربناه. وضحك الاثنان مجدداً.

- إذاً أين أمك؟

- تتعالج في المستشفى لأن فريداو ضربها.

وتوقف تامر عن الكلام لحظة، ثم قال مجدداً:

- لكنه لن يضربها بعد اليوم.

- أيها اللقيطان الملعونان.

بقينا صامتين فترة قصيرة. ثم رأيتُهما يحنيان رأسيهما فوق كعكة الخبز ليلتهماها. سألتُهما: هل سمعتما بمقتل الصحافي الفرنسي؟

فأجاب البق سكيبي: البطاطا الفرنسية. وانفجرا ضحكاً. ثم طلبا مني أن أشتري لهما الميلك شايك، ومزيداً من الطعام، لأنهما ما زالا جائعين. وأثناء عودتنا إلى الصندوق لطلب مزيد من الطعام، سألتُ تامر:

- هل تعيش في منزل أمك؟

- كلا.

- أين تنام إذاً؟

- حيث أخذتُك المرة الماضية. تحت الجسر.

قال البق سكيبي: هناك نُعد الباربكيو.

ضحكا مجدداً، وضرب كل منهما كفه بكف الآخر عالياً في الهواء. ثم سألتُ تامر إن رأى أوتو مجدداً بعد تلك الليلة. فقال لي:

- نعم. أتى إلينا ذات ليلة، لكنه رحل من جديد.

- هل بقي مطوّلاً؟

- لا. عاد ليأخذ بعض الأغراض.

- أي نوع من الأغراض؟

- المشروب. وضحك.

حين تركنا المطعم، أعطيتُ تامر بعض الدولارات.

أخذ مني المال بسرعة، وأراه لصديقه. ضحكا وصرخا. ثم مرر سكيبي ذراعه حول كتفي تامر، ومن دون أن يودعاني، انطلقا يترنّحان على الرصيف، ويعبران الشارع إلى الجهة الثانية، ويركضان أمام المجمّعات الضخمة والأبنية الشاهقة وإشارات المرور.

زي

تلك الليلة، ذهبتُ لإيصال زي. كان أكثر هدوءاً من عادته. وكان يحمل محفظةً في يده، ولا ينفك عن تعديل قبته، ودس يده داخل سترته. كان يتحرك باستمرار، فسألتُه مثل قَاطع طرق منحط: إلى أين يا زعيم؟

- إلى المنطقة الصناعية.

سلكتُ الطريق السريع ٤١ باتجاه الضواحي. وسرعان ما لاحت أمامنا مداخن المجمعات الصناعية. كان الدخان يخرج من أفرانها ليملأ الفضاء أشكالاً دائرية وأنماطاً غامضة. وكانت منازل العمال القديمة تمتد على جانبي الطريق السريع، وتتسم بظلال رمادية متشابهة تماماً، مثل المصانع الواقعة خلفها. أما الجدران فكانت مشبعة بلون الإسفلت والغبار الباهت والسام.

قال زي: اسلك المخرج التالي.

سلكتُ طريق المنحدر، وقدتُ مباشرةً على طول صف من المنازل. كان الطريق ضيّقاً، فزاحمتنا شاحنة محمّلة بما يشبه جبلاً من الرمال. تقدّم سائق الشاحنة باتجاهنا دون تردّد، كأنه لا ينوي إفساح الطريق أمامنا. كان عليّ أن أتخلص منه، فانحرفتُ يميناً، وصعدتُ على الرصيف. تصاعد الغبار من الجانبين، وغطى سيارتي حتى نوافذها. شغّلتُ المسّاحات، فارتسم قوسان على الزجاج كذيل طاووسٍ أو مروحتين أندلسيّتين. وتخيّلتُ نفسي أمشي في الأندلس بين أقواس قصورها ونوافيرها، وسط روائح زهر الليمون.

مررنا بمجموعة مخازن، ثم بمتجر بقالة مفتوح. بدا المتجر فارغاً وحزيناً. تتدلّى على بابه لوحة حديدية قديمة، عليها حروف باهتة لاسم مرطب لم يعد موجوداً في السوق.

طلب مني زي أن أتوقف. وخرج من السيارة ليقف عند الزاوية. ثم ناداني قائلاً:

- تعالَ يا فلاي لتتنشق بعض الهواء النقي.

- خرجتُ إليه. فأردف:

- تعالَ، قفْ بجانبي.

وقفتُ بجانبه، وانتظرنا إلى أن أطل ولد صغير من الزاوية ومشى باتجاهنا. بدت لي خطواته عرجاء، ومشيته متراقصة، وكأنه يميل

إلى جهةٍ واحدة. أما قبّعته فكانت أكبر حجماً من رأسه بدرجة أو درجتين، وكانت تلقي ظلالاً فعلية على عينيه. وقف الصبي أمام زي ودسّ شيئاً ما في يده.

راح زي يوبّخ الصغير قائلاً: تأخّرتَ مجدداً. أنتَ من عليه انتظاري، وليس العكس. هل أحضرتَ كل شيء.

هزّ الصبي رأسه.

رأيتُ صبياً آخر في آخر الشارع، يعترض الطريق، ويراقب ما يحدث على دراجة هوائية. سأل زي.

- من ذلك الصبي؟

- هذا أخي.

- في المرة القادمة، تعالَ وحدك. وكُنْ هنا في الموعد المحدد.

ثم أدار ظهره، وعاد إلى السيارة. فتبعتُه، وقلتُ له:

- والآن، إلى أين؟

- فاونتن ستريت، الرقم ٤٥.

اكتفى بقول ذلك. وبقي صامتاً على مدى نصف ساعة، مشغول الفكر.

كنا على وشك الوصول حين سألني:

- هل سبق ودفعتُ لك؟

- لا، ليس بعد.

توقّعتُ أن يضيف شيئاً. لكنه لم يفعل، فلم أتكلّم. ثم نظرتُ في مرآتي البيضوية، فبدا لي واحداً من أولئك المجرمين العابسين، وهم على وشك ارتكاب جريمة.

أخيراً، اكتشفتُ أن ذلك العنوان هو عنوان متجر أسطوانات. بدا لي المتجر من واجهته مهملاً، فأغطية الأسطوانات المعروضة هناك صفراء باهتة من تأثير شمس الظهيرة الحارقة، والتقلبات المناخية، وتكدس الغبار وراء الزجاج. أما الستارة الحمراء الباهتة في الخلف مثل «تريو» الغناء الداعم، فبالكاد تلفت الأنظار.

ظهر أصحاب الأسطوانات على أغطيتها شباناً خالدين بابتسامات أبدية. ومن يدري؟ فقد نجد الخلود وراء أي عرض أزلي أبدي.

قال لي زي:

- سأبقى في السيارة. وأنت ستسلّم الحقيبة.

تردّدتُ قليلاً. ثم نظرتُ إلى الحقيبة من دون أن ألمسها.

- ما بك، هل أنت خائف؟

- ماذا يوجد في داخلها؟

- ماذا يوجد في داخلها؟ ومن تعتقد نفسك - بحق الجحيم -

لتسألني، أيها البغل؟ كل ما عليك القيام به هو فتح بابك، ودخول المتجر، وتسليم الحقيبة كما أمرتك.

عفواً لكنني هنا لإيصالك، لا لإيصال الحقيبة.

- ماذا قلت؟

كرّرتُ ما قلتُه أولاً، لكن هذه المرة وأنا أنظر مباشرةً في المرآة.

- قلْ لي إذاً لمَ أدفع لك كل هذا المال، يا ابن الساقطة؟

- ربما لأنك لا تجيد القيادة، أو لأنك في عمق أعماقك صديقاً للبيئة ومشجّعاً لوسائل النقل العامة.

- يا لك من ابن ساقطة. أنت مهرّج كثير الكلام.

عندئذ رأيتُ في المرآة جسمه الأعلى يمط من ناحية واحدة، ويده تحط على خصره. ثم سمعتُه يسحب الزلاقة.

- لا تجبرني على قتلك يا فلاي. اعتبرها ترقية، أو مسؤوليات جديدة، أو ترفيعاً في شركة زي. لا تدعني أدخل المتجر، وأرجع إلى البيت متأسفاً على قتل حشرة. فذلك لن يعجب فتاتي. والآن، ماذا تختار يا رجل: هذا أم ذاك؟

حملتُ الحقيبة، وخرجتُ من السيارة، ومشيتُ باتجاه المتجر. كان مقفلاً على الرغم من أنني رأيتُ أشخاصاً في الداخل. نقرتُ

على الزجاج، فاقترب أحدهم. تخيّلتُ سوطاً في يدي ورسمتُ له حرف Z كما يفعل زورو عادة، ففتح الرجل الباب ودخلت.

في الداخل سمعتُ موسيقا صاخبة تخرج من مكبرات صوت معلّقة على الجدران. ورأيتُ رجلين يقفان عند نافذة علّية داخلية، يشاهدان ما يحصل في الطابق الأرضي. حين رآني أحدهما، نزل الدرج اللولبي، وكان يترنّح بصعوبة من ثقل فخذيه العملاقين. التقت نظراتنا فشعرتُ بحدة نظراته. أومأتُ إليه دون أن أنطق بكلمة، فاقترب مني، وتلمّسني في خصريّ، ثم قال:

- ممّن هذا؟

- من زي.

- من الأفضل لك أن تكون جيدة.

أخذ الحقيبة وتفحّصني من الأعلى إلى الأسفل ثم قال:

- من الأفضل لك أن تكون كاملة، وإلا ستكون هذه آخر أغنية تستمع إليها.

وقفتُ في مكاني في حين صعد الرجل الكبير إلى العلّية. نظرتُ إلى الخلف، فرأيتُ موظفاً عند الباب، يسد المخرج ويعبس في وجهي. ثم رأيتُ في الأعلى، ظلال رجال تتحرّك ذهاباً وإياباً، وتنحني فوق طاولة. بعد قليل، عاد الرجل والمحفظة في يده. مدّها لي وقال:

- قل لزي أن يجلبها بنفسه في المرة القادمة.

ثم أعطى الموظف إشارة، فأفسح لي المجال لأخرج.

عدتُ إلى السيارة، وكان زي قد وضع نظارته الشمسية على عينيه.

ناولتُه الحقيبة، ففتحها بسرعة وأمرني بالانطلاق. وحين وصلنا إلى الطريق سألني:

- هل واجهتَ مشكلةً ما؟

- لا. لكن الرجل الكبير يقول لك أن تجلب الحقيبة بنفسك في المرة القادمة.

فكّر قليلاً، ثم نظر إلى الأعلى، وقال:

- من قال ذلك؟

- الرجل الكبير.

- ماموث قال ذلك؟

- الرجل الكبير.

- ابن الساقطة! ابن الساقطة! سأعلّم ابن الساقطة هذا الاحترام فيما بعد. والآن، خذني بسرعة إلى الجزيرة. أتعرف كيف تصل إلى هناك؟

أخبرتُه أنني على ارتباط مسبق، وأشك في أن أتمكن من إيصاله إلى الجزيرة والعودة إلى موعدي ضمن الوقت المحدد.

- ارتباط؟ أنت مرتبط بي الآن. وإذا تركتني سأقتلك قبل موعد زفافنا. خذني إلى الجزيرة، ولا تجبرني على إخراج المسدس مرةً أخرى. لأنني هذه المرة، لن أخرجه عبثاً يا فلاي.

قدتُ باتجاه الجزيرة، لكنها لم تكن في الواقع جزيرة. ربما أطلقوا عليها اسم جزيرة لكونها منعزلةً عن مركز الثراء، ومقفرة وموحشة، ومبانيها مدمَّرة ومتاجرها فارغة. وصلنا إلى هناك، فوجدنا الشوارع مهجورة. عبَرنا الفراغ نحو مقصورات القطار على ضوء المصابيح الذي شقّ أمامنا العتمة إلى أن بلغنا مرجاً أخضر، أو ما يشبه المرج. هناك في الأفق، رأيتُ سيارةً كبيرةً تنتظر قرب كوخٍ صغير. قلتُ لزي:

- ماذا الآن؟

- أطفئ الأنوار وانتظر. فالدعم في طريقه إلينا.

- الدعم.

- نعم. انظر في المرآة ساكتاً إلى أن يصل جيب بزجاج أسود.

انتظرنا فترةً طويلة. ثم بدأ زي يلعن:

- أين هم بحق الجحيم؟

وبعد دقائق لعن مجدداً:

- اللعنة عليهم.

ثم قال لي:

- انطلق إلى الأمام. أضئ الأنوار.

وبعد أن تقدمتُ ببطء نحو الكوخ، قال لي:

- توقف هنا. أضئ وأطفئ النور العالي ثلاث مرات.

وحين نفَذتُ أوامره، قال:

- أعطِني مفاتيح سيارتك.

ترددتُ قليلاً. فقال:

- أقسم بأنني سأتخلص منك فوراً. لا تجبرني على ذلك.

فأعطيتُه المفاتيح.

- لن تذهب إلى أي مكان قبل أن أعود، هل سمعتني؟ سأذهب مشياً إلى هناك. أنت ابقَ هنا، واترك النور مضاءً. هكذا سيتمكَنون من رؤيتي ولن يطلقوا النار عليّ.

قلتُ له:

لن يتعرّفوا إليك، فالضوء من الخلف. ستبدو مثل خيال على خشبة مسرح. لن يروا وجهك بوضوح.

لكنه لم يستمع إلي.

أغلق الباب بعنف، ومشى أمام سيارتي والمحفظة في يده. رحتُ أنظر إلى خياله الذي يتمايل في الظلمة.

سيداتي، سادتي، هذا هو زي في دوره الرائع كتاجر مخدرات. ويا لأدائه المدهش! والآن حان دور الشقلبة الخلفية. بعد وصوله إلى نهاية الأداء... ويا له من أداء!

شعّ مصباحان من ناحية الجمهور على زي. رأيتُ السيارة الكبيرة تنطلق، ثم تتوقّف قرب زي. ركبها التاجر، وبعد دقائق قليلة، خرج منها. شاهدتُه يعود من دون الحقيبة. وفجأة ظهر مسدس من نافذة السيارة، وسمعتُ طلقات نارية، فاختفى زي عن ناظرَيّ. لا بد أنه سقط أرضاً. ثم رأيتُ السيارة تتقدّم باتجاهي، فأطفأتُ النور. رحتُ أتذكر كل الكلمات التي قد تعزّز شعوري بالأمان، وتبقيني على الحياد. وبحثتُ مذعوراً عن عبارات تهدئ من روعي، فتذكّرتُ الحنان والدموع، لكني بحثتُ عما يخفّف من الانفعال، ويرشدني إلى أفعال تفيدني في هذه الحالة، مثل: خُذْ نَفَسَاً عميقاً.. فكر بعمق.. انطلق بسرعة.. اهرب فوراً!

عندئذ تذكرتُ أن مفاتيحي مع زي. فتمددتُ تحت لوحة العدّادات، وانتظرتُ أن ترحل تلك السيارة. بالأحرى، أملتُ أن ترحل. يا للمفاجأة، فقد رحلت بسرعة كبيرة عرفتُ من خلالها أن

لا رجلَ قادر على القفز من تلك السرعة الكونية، والحط سليماً وهو يحمل مسدساً.

الأمر مستحيل وغامض. حتى المجرمون عاجزون عن البقاء أحياء وسط سرعةٍ مطلقةٍ كهذه.

انتظرتُ إلى أن عمّ السكون تماماً. ثم شمختُ برأسي مثل فقمةٍ في وسط المحيط، وألقيتُ نظرةً سريعةً حولي. فتحتُ باب السيارة، ومشيتُ على أرض موحلة باتجاه آخر مكان رأيتُ زي فيه.

كان ممداً على الأرض، ووجهه مدفون في الوحل. دحرجتُه فبان بياض عينيه من وجهه المغطى بالتراب. لكزتُه، ثم ناديتُه باسمه. لكنه كان قد مات.

بحثتُ في جيوبه، فوجدتُ مفاتيحي. فتحتُ سترته، وأخرجتُ منها المحفظة، ورحتُ أعد المبلغ الذي كان يدين لي به. حسبتُ متوجبات التأمين، والتقليد، والمخاطرة، والترفيه، ورسوم الإطاعة، وكلفة الوقود، وسوائل تنظيف الزجاج الأمامي، والإهانات، ووقت الانتظار، وكلفة تلميع الحذاء، والعقوبات على الأضرار التي لحقت بخير المجتمع، وبالطبع أجرة التاكسي. باختصار، بعد حسبة شفهية سريعة، تبين أن المجموع يساوي تماماً كل المبلغ الموجود في محفظته. أسرعتُ إلى سيارتي، ورجعتُ بها إلى الشارع التالي. ثم شققتُ طريقي عبر أزقة المدينة، باتجاه الطريق السريع. وأبحرتُ عائداً من الجزيرة إلى المدينة.

في ظل تلك الظروف، قررتُ التوقف عن العمل تلك الليلة، والعودة مباشرة إلى البيت. كنتُ أتقدّم نحو مدخل المبنى، حين رأيتُ البواب خارجاً وهو يرتدي سترة سوداء. كان قد حلق ذقنه النابتة، وثبّت شعره المتطاير، وخلع سترته الجلدية، فبالكاد تعرفتُ إليه. أوقفتُ السيارة لأراقبه، فرأيتُه يمشي باتجاه سيارة سوداء طويلة تسد مدخل المرأب. ثم رأيتُه تحت ضوء المصابيح، يتّجه نحو مقعد الركاب الخلفي، ويفتح الباب. أطلّت من ورائه امرأة عجوز وأمسكت بيده. ثم مدت جوربها الأسود السميك، وحذاء السيدة المتدينة الذي كانت تنتعله خارج تنورة مصمّمة على شكل جرس باتجاه الرصيف. وقفَت هناك، وحاولَت الوصول إلى عنقه، فأحنى رأسه كالأخرق، فقبّلت خده وهي تبكي. أوشكت علبة المناديل الورقية أمامي على الإقلاع لتمسح أوراقُها الدموعَ المذروفة، لكن منديل السيدة ظهر من العدم، وراح يمس وجنتيها برفقٍ وحنان. نظر البواب خلسةً صوب سيارتي لكنه، على الأرجح، لم يتعرّف إلَيّ. بعد لحظات، كنتُ أصعد إلى شقتي، فرأيتُ أكاليل زهر كبيرة في رواق الطابق الأول.

تابعتُ الصعود إلى شقتي لأتمدّد على السجادة. ففككت حزامي، لكنني شعرتُ بالموت يحوم حولي. ويهيمن على أفكاري، فيمنعني من تخيّل المصارعين، والبحارة، وحتى النساء اللواتي

يحتجن إلى الإنقاذ. قمتُ عن السجادة، ومشيتُ باتجاه الخزانة، باحثاً عن مشروب. لم أجد شيئاً. فقلتُ في نفسي: تباً، حين تفتقد الكحول، ابحثْ عن العرب. سأدق باب زينب.

حين كنت أشبك حزامي من جديد، تذكرتُ أميراً سعودياً جلتُ به مطوّلاً في أرجاء المدينة. كنتُ قد التقيتُه على حافة مسبح تابع لفندق فخم. في ذلك الحين، كنتُ أنصب على الناس، وأعمل في الوقت نفسه سائق تاكسي. وكنتُ قد أتقنتُ اللعبة في وقت قصير. ففي صغري، لقّنني البهلوان تماماً كيف أحتال وأسلب المال.

كنتُ أترك الأمير يربح مرات عدة، وفي آخر اللعبة أعاقبه بشدّة، فيجد نفسه في وقت قصير من دون سيولة، حتى أنه قدّم لي ساعته الرولكس. وذات يوم، أدركتُ أنه سعودي، فأخبرتُه أن لا قيمة للأشياء المادية بيننا نحن الإخوة، ثم أشبعتُه بعض الإطراءات الأخوية، إلخ... فصدّقني فوراً. أوصلته إلى بار «منعش»، وأفهمتُه أن سيارتي ستبقى تحت تصرفه. فشرب الويسكي حتى الثمالة، وضاجع دون توقف. وسرعان ما كان يخرج من المملكة ليبدأ الشرب والعربدة. وكان يقول إن أولئك الغربيين الزنادقة لا يصلحون إلا لذلك. عقدتُ اتفاقاً مع ليندا لأقدّم لسموّه كل أنواع الملذات. وذات يوم، وصل من لندن قريبان له، كانا أيضاً من العائلة المالكة، حينذاك ازدهرت الأعمال فعلاً.

كنتُ أقل ليندا وصديقتيها من زاوية الشارع، وأنتظر في موقف

الفندق حتى ينتهي. وكنتُ محقاً في ما خططتُ له، لأن البدو يفضَلون النساء المائلات إلى السمنة. وهذا حقق لنا ثراءً كبيراً. وتكافؤاً في الفرص ليعمل الجميع. ففي جلسة واحدة، كانوا يفرغون ميني بار الغرفة مرات عديدة، ويتبادلون النساء فيما بينهم، ويضاجعون ويغنون طوال الليل.

وكانت الفتيات ينزلن من عندهم ثملات، ومصابات بدوار خفيف، بعد أن أُمطرن بالهدايا والساعات الذهبية الثمينة. علينا الاعتراف بأن هؤلاء البدو فاحشي الثراء هم أكثر من يحسن الضيافة والترحيب والاستقبال على هذا الكوكب. أحياناً كانوا يقررون الذهاب إلى الرقص، فأضطر إلى طلب سيارة أجرة ثانية. كنتُ أتصل بماني أو العنكبوت الجنسي أو الـ ٧٩ أو أي سائق آخر من مقهى بوليرو... وذات يوم، جاءت ثلاث أميرات سعوديات، من أخوات وقريبات ذلك الرجل، في زيارة. فقرروا الذهاب إلى مطعم فرنسي. ركب الرجال في سيارتي. ثم وصل الـ٧٩، وهو نيجيري حسن المظهر، يتمتع بمنكبين عريضين، محدّدين بشكل رائع، وبعضلات مقطعة، وضحكة مشرقة، ليقل الأميرات. فتح لهن الأبواب، ونظر إلى واحدة منهن مبتسماً لها. في وقت لاحق تلك الليلة، وقبل أن يعود إلى بيته، ادّعت تلك الأميرة أنها نسيت غرضاً في سيارته، فانحنت فوق المقعد الأمامي، وناولَته إكرامية كبيرة، ثم طلبت منه أن يلاقيها في فندق آخر.

في الساعة المحددة، عاد صاحبنا مرتدياً أفضل ما عنده، مستحماً، حالقاً، تفوح منه رائحة عطر. كانت الأميرة تنتظره في بار الفندق، لكنه لم يتعرّف إليها، لأنها كانت ترتدي تنورةً قصيرةً، وكعباً عالياً، وتمسك بين أصابعها سيجارة وراء كأس من الويسكي. لوّحت له بيدها، ثم طلبت كأساً أخرى أو ربما اثنتين، ورافقَته إلى فوق، حيث شربا ومارسا الجنس طوال الليل. حتى أنهما انبطحا في الفراش رأساً على عقب، وتردّد صدى صراخها في جميع أنحاء المدينة.

في اليوم التالي، أحضرتُ لهما الكوكايين من تاجر يقف في الشارع الرئيسي. فاستنشقاه ومارسا الجنس من جديد طوال الليل. وقبل أن تعود الأميرة إلى بلادها، أعطت السائق شيكاً وعنواناً بريدياً. ثم طلبت منه ألا يتصل بها أبداً، لكنها سمحت له بالمراسلة.

راسلها الـ٧٩ كثيراً. وفي كل مرة كان يؤلّف قصة ليطلب في نهايتها المساعدة وبعض الدعم المادي. كانت قصصه تدور حول الحروب، والملاحم العائلية الطويلة، وموت أمه، وتعطل سيارته. وفي وقت قصير، يصله شيك عبر البريد ليسانده في محنته. أما ضربته الموفقة فكانت بطلب نفقات المحامي، حين كان على وشك الترحيل. فترحيله يعني جرّه إلى الخدمة العسكرية، وإجباره على الحرب، ومجابهة الموت. ولم يتأخر ساعي البريد في تسليمه شيكاً آخر بمبلغٍ كبيرٍ من المال.

ذات يوم، كتبت له الأميرة رسالة أخبرَته فيها أنها قررَت التخلي عن كل شيء لتهرب معه. وطلبَت منه أن يلاقيها في الفندق حيث التقيا أول مرة. لم يردّ على رسالتها. فأرسلَت رسالةً أخرى، لكنه لم يكتب لها شيئاً. وفي رسالتها الثالثة، هدّدَته بالقتل، وبإرسال عناصر من الحرس الملكي ليقتلعوا له خصيته. عندئذ اتصل بقريب له يعيش في لاغوس، وأمره بكتابة رسالة إلى الأميرة ليعلمها بأنه تم ترحيل الـ ٧٩ إلى بلاده، برغم الجهود التي قام بها المحامون، وبأنه جُرَّ إلى صفوف التجنيد، ومات أثناء تأديته لواجبه الوطني. أما أمنيته الأخيرة فكانت إخبار الأميرة بأنه يأسف لما حصل، وأن لقاءهما التالي سيكون في الجنة.

ذكريات كهذه تجعلني أرغب أكثر في الشرب. ومن باب الحزن أو الفرح، قرعتُ باب زينب. فتحَت لي وقالت:

- عزيزي فلاي، الوقت متأخر، ولديّ زائر.

اعتذرتُ منها، وسألتُها إنْ كان بإمكانها أن تقدّم لي بعض الويسكي أو الكونياك. ثم شرحتُ لها أن يومي كان طويلاً وصعباً، ولهذا السبب كنتُ بحاجة إلى المشروب. وتابعتُ قائلاً إن قدحاً صغيراً قبل النوم، سيساعدني على قضاء ليلة هانئة.

قالت: حسناً يا فلاي، تفضّلْ. سأقدّمك إلى صديقتي جينا. نحن نشرب أيضاً، ويمكنك الانضمام إلينا... هيّا ادخلْ.

دخلتُ شقتها، فوجدتُ امرأةً تجلس في الداخل. وقفت وقبّلتني على وجنتي، ثم قالت:

- لا شك في أنك الرجل الذي حمل حديقة الأزهار إلى هنا. زينب حدّثتني كثيراً عنك.

- بالفعل، أنا حامل الزهر وناقل البشر.

- وصاحب ذوق رفيع أيضاً. ففكرة الأزهار كانت رائعة. سمعتُ عنك الكثير يا فلاي. سمعتُ عنك أموراً جيدة.

- هذا يشرفني. يا لهذا الفرج والإطراء. يهدر الناس حياتهم لاعتقادهم بأنهم منسيون. فيقومون بأعمال هائلة كيلا يختفوا عن وجه الأرض دون أن يلاحظهم أحد.

قالت جينا ضاحكةً:

- أوافقك الرأي. كثيراً ما يستخف الناس بحاجتهم إلى الإقرار بالفضل.

فأجبتُها متباهياً بأفكاري الفصيحة وأخلاقي النبيلة:

يسعى الناس دائماً إلى أن يتذكّرهم الجميع. فعبء الزوال يحوم مثل سيف فوق رقابهم. وبالحديث عن الموت والأزهار، لمَ كل تلك الأكاليل في الخارج؟

أجابتني زينب:

- توفّيت السيدة البولونية.

- آه! سأمرّ غداً لأعزي ابنها. أو ربما من الأفضل أن أكتب له رسالة تعزية. هل يمكنني الحصول على المشروب الذي وعدتِني به من فضلك؟ فبعض الأيام لا تنقضي من دون جرعة محدّدة من السموم.

قالت زينب وهي تصب لي كأس الويسكي:

تفضَلْ.

شربنا ثلاثتنا ونحن نتابع الحديث عن الموت والتاريخ، وغيرهما من المسائل الحتمية.

ثم سألتُ زينب بلهجةٍ ملحّة:

هل أستطيع دخول حمامك؟ ولو أنني أستطيع الذهاب إلى شقتي، إذا وعدتِني بأن تدخليني مجدداً.

- لا، لا نريد أن نفقدك بعد أن بلغ حديثنا ذروته. يمكنك استخدام حمامي، نحن في انتظارك.

قالت جينا:

هيا، أريد أن أعرف المزيد عن رجل المدفع ورفيقه.

مشيتُ في الرواق إلى الحمام، وكأس الويسكي ما زالت في يدي. ثم فكرتُ في الخطورة التي يشكلها إدخالها إلى الحمام. فقد تختلط صدفةً قطراتُ سائلين من لون الأصفر ذاته، وتسكر في لحظة التباس أو إثارة. عدتُ إلى المطبخ لأضعها على الطاولة، ويا لهول

ما رأيتُ. كانت زينب والمرأة الأخرى تتعانقان، وتتبادلان القبلات، وتحضن الواحدة الأخرى بشدة وسط حديقة أزهار ذابلة.

احتسيتُ مشروبي دفعةً واحدة، ورجعتُ إلى الخلف على رؤوس أصابعي لأنجو بنفسي. كنتُ لا أزال في المطبخ، فسكبتُ لنفسي كأساً أخرى، وقررتُ العودة إلى البيت. قلتُ لزينب إنني سأترك الكأس فارغة على بابها.

فابتسمت وقالت لي:

- لا مشكلة، يا فلاي. خذْ احتفظ بما بقي في الزجاجة. فأنا وجينا قد انتهينا من الشرب.

جلستُ إلى مكتبي أشرب المزيد. ألقيتُ الضوء على الجدار، وسلَطتُ نور المصباح على نسيج العنكبوت. ذلك الضوء كان سيكشف عن الغنائم المذبوحة من جثث الليل الطائرة. فالنهاية، على عكس ما يعتقده الجميع، لا تأتي بنفسها إلينا، بل نحن، المخلوقات الزائلة، من نتقدّم صوبها بأجنحةٍ مفتوحة، وسعادةٍ وسخافةٍ وفلسفة، ثملين من قسوة نكران الذات، وغموض الإيمان. الموت شبكة لا مفر منها، تلتقط الجولة الأخيرة، النفس الأخير، النظرة الأخيرة، قبل نهاية العرض، وقبل عزف آخر نوتة من سمفونية الأوتار التي تنسجها الطبيعة، والتي لا بد يوماً من أن تلتف حولنا، وتنقضّ علينا لتطرحنا في نومٍ أبدي.

استيقظتُ في اليوم التالي، فاكتشفتُ أنني قد غفوتُ على السجادة في محاولةٍ فاشلةٍ أخرى لتغيير التاريخ ومنع سفك الدما.

ميمي

مساء اليوم التالي، نزلتُ لأركب سيارتي. تحت ضوء المرآب الخفيف، رأيتُ ظلال لحافٍ على المقعد الخلفي. فتحتُ باب الركاب لأرفع ما على المقعد، فتبين لي أنه لحاف بالفعل. حملتُه. وفتحتُ الصندوق لأضعه في الداخل. لا أذكر أنني رأيتُ لحافاً الليلة الماضية، لا قبل موت زي ولا بعده. ثم شممتُ رائحة كحول ورائحة تعبٍ وخوف.

واظبتُ على العمل تلك الليلة، ولما طلع الصباح، عدتُ إلى البيت. كانت الشوارع شبه فارغة، باستثناء مئات الأكواب البلاستيكية، وقناني البيرة المبعثرة على الأرض. بدت لي من وراء السديم الذي يغطي زجاجي الأمامي، كأنها محيط مليء بقنانٍ في داخلها رسائل. فتذكرتُ الرسائل التي كانت تتلقاها السيدة الملتحية من جماعة السيرك المنتشرة في العالم. كانت تتسلّم بين الحين والآخر، رسالة ملونة من الساحر الذي قصد ألمانيا، ومن مروّض الأسود الذي انتقل إلى أفريقيا. كما استلمت صوراً من التوأمين السياميين اللذين تزوجا امرأتين وأنجبا أربعة أولاد.

بقيت جماعة السيرك على تواصل دائم رغم تفرّقها. فعرفنا،

عبر شبكة الرسائل، أن حارس الحيوانات كان يمر بأوقات عصيبة في كسب عيشه، وأنه أجهد نفسه في البحث عن عمل في حديقة حيوانات أو في حلبة سيرك، لكن جهوده باءت كلها بالفشل. وفي إحدى رسائله، أخبر السيدة الملتحية بأنه يعمل في فرن معمل للإسمنت. ووصف لها مطولاً النيران الملتهبة التي تخرج من هناك، وعملية طبخ التراب. وكتب لها أن موقعه هناك أساسي، فكل تلك الأمم الجديدة تطبخ التراب عنده لتصنع حجارة البناء.

لكن وطأة التطور، ومصالح المتعهدين، وثراء الأمم، فرضت عليه ضريبتها. فأُصيبت بشرته بالحكاك، وانسدّت رئتاه من تنشق الغبار والكيماويات، إلى أن مات ذات يوم. خنقه الدخان، والمساحيق السامة، والأسبست الذي تُعمّر به المدن، وتُبّلط أرصفتها الممتدة على الجوانب.

عرفنا أيضاً بالمأساة التي أصابت الساحر، بعد أن ترك ألمانيا وانتقل إلى قرية في البلقان ليتقاعد فيها. عاش هناك في منزلٍ متواضع، وأكل مما كان يبيعه القرويون بسعر مقبول. كان يرى الحياة حلوة، إلى أن أخفى ذات ليلة زوجة الخباز وراء الشجيرات، وأعادها عارية في الصباح، وحوّل ابنة العمدة إلى أرنب محبوب، يقفز كل مساء عبر النوافذ إلى السفوح. فكان عليه أن يحمل قبعته العالية، ويهرب من القرية ليطير فوق «الكاب» عائداً إلى المدينة.

هناك أيضاً ميمي القزمة، التي تورطت في تجارة الألماس غير المشروعة.

حملت ميمي جواز سفر مزوّراً تغيّر فيه اسمها وعمرها. وارتدت ملابس فتاةٍ صغيرة، وحملت دميةً بين يديها، ورافقت سيدة ادّعت أنها أمها، في رحلة بحرية على متن مركب فخم. كان عليهما أن تعبرا المحيط لتهرّبا الألماس داخل دمية ميمي. وادّعت السيدة، التي لعبت دور أم ميمي، أنها كونتيسة روسية بيضاء من منطقة القوقاز. وعرّفت عن نفسها باسم الكونتيسة تامباركوسا. كانت تعامل الجميع بازدراء كما هو متوقع، وتتحدّث باللغة الفرنسية الكلاسيكية التي اشتهر بها كتّاب القرن التاسع عشر الروس مثل تورجونيف وبوشكين. ثم درّبت تلك السيدة ميمي على *Savoir Vivre*(*)، فنجحت هذه الأخيرة في التآلف مع ذلك المجتمع، والظهور دائماً بأفضل صورة، في فستانٍ قصّته رائعة، وشعرٍ خصلةُ مموّجة.

صارت ميمي تنحني أمام سيدات المجتمع ورجاله. حتى أنها عزفت لهم البيانو، ورقصت أمامهم رقصةً إيقاعية. وحين تصبح أحاديثهم طنانة ومحافظة ومملة، كانت ميمي تظهر نوبات غضب هائلة، فتركل السيدات على كواحلهن، وتلكم الرجال على ضلوعهم. أما أحاديث الكونتيسة تامبار كوسا المكررة على سطح الباخرة فكانت تحيي ذكرياتها مع كلبيها، وتظهر قساوتها لمنع حيواناتها

(*) الإتكيت والخصال الحميدة.

من دخول قاعة الطعام. كانت تصرخ دائماً على ميمي: يا غالية، انتبهي لئلا تبلّلي نفسك! وكانت تقصد بذلك، لا تتحمّسي كثيراً للبحارة وأصحاب العضلات المنفوخة على متن السفينة. أولئك الذين يزورون ميمي كل ليلة في خيالها لتمارس عادتها السرية تحت الملايات في السرير العلوي للحجرة.

في اليوم التالي ثملت ميمي، والتقت مصادفة دكتور السفينة الوسيم. حدّقت عيناها، وارتعشت شفتاها، وارتجفت فخذاها فوق منحدرات السفينة المعدنية السفلى. ثم نسيت عمرها، ونسيت الدمية، وراحت تبتسم له. حملت الدمية تحت إبطها، وأشعلت سيجارة، وراحت ترسم بدخانها دوائر بيضاء أبحرت مع رياح المحيط. قفزت الدلافين داخل الأطواق البيضاء، وسط بهجة المسافرين. وهبطت بعض الغيمات كالسحر لتنضم إلى دوائر دخانية من التأوهات المتعاقبة وسط حرارة الأجواء الاستوائية.

حين لاحظ الطبيب إيماءات ميمي المثيرة، قلق واضطرب لتحرك رغبته الشهوانية على فتاة صغيرة. فراح يراقبها، ويتتبّعها إلى أن قبض عليها ذات يوم متلبّسة تقف في غرفة المحرك تحت حزام الميكانيكي، وتحشر رأسها بين فخذيه.

اعتبرها أولاً حالة تحرشٍ جنسي بقاصر. وبعد التحقيق والتدقيق، اكتشف أن ميمي ليست تلك الطفلة البريئة التي تظاهرت بها أولاً، وأن الكونتيسة تامبار كوسا ليست روسية بيضاء. ولتكلّل

الكذبة بالإهانة. تبيّن أن من لقّبت نفسها بالكونتيسة لم تكن سوى امرأةٍ عربية، تحمل اسماً عربياً مركّباً، إذا ترجمتَه، تحصل على «الكونتيسة ذات المهبل المنتفخ». استُجوبت الكونتيسة حول جواز سفرها المزوّر، وانتحالها لشخصية أرستقراطية، وهُدّدت بالسجن. وخوفاً من مدة عقوبة طويلة، اتفقت مع السلطات على التخفيف في الحكم عليها مقابل إخبارهم عن الألماس المخبّأ داخل دمية ميمي. قُبض على ميمي، وحُكِم عليها بالسجن المؤبد. وفي السجن، تعرّضت للتحرش والضرب من قبل سيدة الحجرة الضخمة. وقد أجبرَتها هذه الأخيرة على القيام بما سمّوه في السجن رقصة السيرك، وعلى المشي فوق حبل مشدود بين سريرين. وتعرّضت في الحمامات أيضاً لتحرش جنسي من قبل حارسة تستغل الأطفال، هاجمتها وتحدّثت عنها بالسوء أمام الأخريات. وذات يوم، في الصباح الباكر، والسجينات نائمات، وقبل أن يدق الجرس، ويتم عد السجينات، فكّت ميمي الحبل المشدود بين السريرين، بعد أن مشت عليه الليلة السابقة وسط هتافات زميلاتها في الحجرة وسخريتهن وضحكاتهن، وأحكمت ربطه بواحد من قضبان الحجرة العالية، وشنقت نفسها حتى الموت.

في ذلك الصباح، غاب التصفيق عن الغرفة، وحل محله صمت رهيب تخلّله صرير حبل خافت، وضوء باهت، وترجّح بطيء لجثة صغيرة.

القبعة

وصلتُ إلى البيت، وركنتُ سيارتي في المرأب، ثم فتحتُ صندوقها، وأخرجتُ منه اللحاف الذي وجدتُه مرمياً على المقعد الخلفي. لففتُ المال الذي في محفظتي داخل قبعتي، ثم طويتُ اللحاف، ووضعتُه مجدداً على المقعد الخلفي، وتركتُ القبعة فوقه.

نمتُ طول الصباح. وبعد الظهر نزلتُ إلى السيارة، فوجدتُ اللحاف مبعثراً على المقعد، وقد اختفت القبعة والمال.

ركبتُ السيارة، وقررتُ أن أجول من دون هدف، ومن دون إضاءة إشارة التاكسي. كنا قد بلغنا ساعة الذروة. وفي ذلك الوقت، يسهل على أي سائق إيجاد ركاب. لكنني قررتُ الابتعاد عن وسط المدينة لأقصد النهر. سرتُ مباشرة إلى أن وصلت إلى أسفل الجسر، حيث سكن أوتو ذات مرة، وثمل ونام في «النقطة» كما كان يدعوها.

لم يكن أوتو من اكتشف تلك النقطة، ولا تامر، بل فريداو. تعوّد فريداو وأوتو أن يقضيا ليالي طوالاً هناك في الشرب والمناقشة، وفي التآمر أيضاً إذا قررنا أن نأخذ حديثهما على محمل الجد. أما تامر فيبقى مستيقظاً إلى جانبهما، منتظراً أمه لتعود من جولاتها الليلية، وهو يصغي إلى أحاديثهما المتنوعة في السياسة والسلطة.

ذات مرة، أخرج فريداو مسدسه وقال لتامر:

اسمع يا بني، أنا لست والدك اللعين، على الرغم من أنني أناديك

يا بني. أعرف من يكون والدك البيولوجي. أنت لقيط ابن عربي، وهؤلاء العرب هم أول من أتوا ليستعبدوا شعبنا، وباعوه لاحقاً إلى البرتغاليين. نصفك الأول، يا بني، يحمل جينات سفّاح إسباني، ونصفك الثاني يحمل جينات قائد مستعبِد. وتلك المناشدات والمطالبات بالرحمة بالمستعبَدين كلها هراء، لأن العبد يولد عبداً ويموت عبداً. وكما تقول الكتب السماوية، ليس هناك شيء اسمه الرحمة بالمستعبَدين. تعالَ إلى هنا. أريدك أن تتعلّم السلطة لتبقى حراً طوال حياتك. والآن امسك هذا المسدس، وصوّبه إلى الهدف، وارمِ القنينة بالرصاص.

لا بد من أن طلقات الرصاص سُمعت وقتها في سفن الشحن المارة في النهر. لكن بحارتها، إما أنهم لم يأبهوا للأمر وإما أنهم كانوا ثملين، مثل أولئك الموجودين على الضفة، المتمايلين مع تموّج المياه، والمنتظرين على مضضٍ إبحار سفينتهم.

في عطلة نهاية الأسبوع، كان تامر يقف أسفل الجسر ليراقب البحارة وهم يتعثّرون من كثرة الشرب، وينشدون كلهم الأغنية نفسها. وأكثر ما فاجأه، لم يكن لكنتهم، ولا ملابسهم، ولا ربطات العنق الضائعة أو القبعات الملتوية، بل معرفتهم التامة كلمات الأغنية الواحدة. فبالرغم من حالة السكر المهيمنة عليهم، راحوا ينشدون دون أن يخطئوا. أما فريداو فكان يلعنهم:

- لقطاء قذرون بيض. لو عدنا مئات السنين إلى الوراء، لكانوا

الآن يطاردونني ليضعوا الأغلال حول عنقي، ويجبروني على نقل قذارتهم، والتجذيف على مراكبهم الموبوءة بالجرذان.

وحين كانوا يمسكون الطعام بأيديهم، كان تامر ينظر إليهم بحسدٍ وجوعٍ، ويقول:

- هذا لحم. إنهم يأكلون لحماً.

ويدل عليهم بإصبعه. فيبصق عليهم فريداو قائلاً:

- متوحشون قذرون. هؤلاء قادرون على أكل لحوم البشر.

- ماذا يعني ذلك؟

- يعني أنهم بشر يأكلون لحم غيرهم من البشر.

قبل أن أصل إلى الجسر، توقفتُ عند متجر لأشتري القهوة والكعك، ثم عدتُ أقود إلى النقطة. ركنتُ السيارة وخرجتُ منها، فرأيتُ صبيين ينامان متلاصقين داخل صناديق كرتونية، ويتشاركان بطانية. كان أحدهما تامر والآخر صديقه البق سكيبي. ورأيتُ في برميلٍ صغيرٍ مركونٍ جانباً، بعض فحمٍ شبه متوهج تحت قطعٍ من الحطب. وقفتُ هناك أنتظر وأنا أدخنُ وأشرب القهوة، ثم اقتربتُ منهما قليلاً. رأيتُ قناني بيرة فارغة، وقناني ويسكي شبه فارغة. وحين كنت على وشك الركوع لأوقظ تامر، كان سكيبي قد رفع البطانية عنه ووضع المسدس في وجهي.

- سكيبي، هذا أنا فلاي، أخفض مسدسك.

انفجر سكيبي ضاحكاً، وسمعت ضحك تامر من تحت البطانية، كما لو أنه كان يرى ما يجري في الحلم.

قال لي تامر بصوتٍ خافت: «فلاي، ألديك خمسون دولاراً»، وعادا يضحكان من جديد.

قلتُ: تامر، انهض. وأنت يا سكيبي من أين لك هذا المسدس؟

أجابني تامر: لقد ورثتُه. ماذا هناك يا فلاي؟

- هيا اشربا قهوتكما. سنذهب في نزهة.

- الطقس بارد يا رجل. تباً، يجب أن أبول. اللعنة على هذا المشروب، فقد قتلني. قتلني ابن الساقطة.. أكره أن أبول في البرد.

وراح يبول على العمود.

سألتُه عن أمه، فقال:

- ليست على ما يرام. ما زالت في المستشفى. سأذهب لأراها غداً.

- إذاً سأرافقك. في أي مستشفى أجدها؟

- في ذلك الذي يقع على رأس الجبل.

ثم نفض نفسه، وشبك حزامه، وطلب من سكيبي أن يقلّد أمامي أصوات النساء.

فراح سكيبي يصرخ بنبرةٍ عالية:

- اترك عبوات الكوكا بسلام، ماذا تفعل هنا!

وحين كنت أدير ظهري لأعود إلى سيارتي، سمعتُ تامر يقول لي:

- فلاي، هل يمكنك أن تقدّم لنا الهمبرغر؟

فردّد سكيبي وراءه:

- نعم، همبرغر.

قلتُ لهما: لا، ليس اليوم. علَيّ العودة إلى العمل.

في اليوم التالي قصدتُ المستشفى لأرى ليندا. فوجدتُ سكيبي يدخن في موقف السيارات، ويتلاعب بالحجارة. سألتُه:

- هل تامر في الداخل؟

- لا، ذهب ليشتري سجائر.

- وهل زار أمه؟

- نعم.

- كيف حالها؟

- ليست بخير.

- هل دخلتَ معه؟

- لا.

- من أين أنت؟

فأجابني وهو يضحك:

- من القمر. أنا آتٍ من القمر.

- وهل تحمل المسدس معك؟

ضحك مجدداً. فسألته:

- ألهذا السبب تنتظر في الخارج؟

- نعم. وأنتظر عودة تامر. سيعود بعد قليل.

وضحك مرة أخرى.

حين عاد تامر سألتُه: كيف حال أمك؟

إلا أنه مرّ بجانبي متجاهلاً سؤالي، وتابع سيره. فلحق به سكيبي.

تردّد في الشارع أن فريداو فقد احترام الفتيات بعد أن سبب الأذى للبيندا. فعصيْنَه وثرنَ عليه، إلى أن حل قوّاد آخر مكانه عند الزاوية. فاختفى عن الوجود ولم يره أحد لأيام. ثم سرت شائعات بأنه أصيب بمرضٍ خطير، فحنّ إلى أنغولا، وقرّر العودة بحقيبة مليئة بالمال.

صعدتُ إلى غرفة ليندا. فوجدت أنها فقدت أسنانها كلها. أما

حنكها فكان متضرراً إلى درجة أنها عجزت عن الكلام. كان عليّ أن أقوم بمجهودٍ إضافي لأفهم ما تقوله لي. عندما قلتُ لها إنني رأيتُ تامر في الخارج، ذرفت دموعاً غزيرة على خديها، وأمسكت بيدي، وعصرتها في قبضتها. ثم أبقت عينيها وأصابعها ثابتة في مكانها وقتاً طويلاً.

بعد أسبوعين، وُجِدت جثة فريداو ممدّدة على ضفة النهر، وكان مصاباً في رأسه بطلقاتٍ عدة. أوردت الصحف في خبرٍ قصيرٍ على صفحاتها الخلفية، أنه فقد ثلاثة أعضاء من جسمه، وأن العضّات قد تعود لكلابٍ متشردةٍ جائعة. وذكر التقرير الطبي أنه تعرّض إلى طعنات سكين، وأن أجزاء مفقودة من جسمه.

الطيور

حين كنت عائداً من المستشفى، شاهدتُ زينب تمشي في الشارع باتجاه محطة الحافلات. أوقفتُ سيارتي على الجهة المقابلة وناديتُها، إلا أنها بالكاد لوّحت لي، وتابعت سيرها. فاستدرتُ بالسيارة لأقود على جهتها، ثم فتحتُ نافذتي وطلبت منها أن تصعد. تردَدَت قليلاً، ثم فتحَت الباب، وصعَدت إلى المقعد الأمامي. قلتُ لها: سأوصلك إلى المدرسة.

فقالت بهدوء: لا حاجة لذلك. أنا راحلة.

- إذاً سأوصلك إلى البيت.

- عن أي بيتٍ تتحدّث، يا فلاي؟ فبيتي مسلوب مني.. إنه محتل. سأنتقل للعيش في مدينة أخرى.

- وهل للأمر علاقة بجينا؟

- هل رأيتنا؟

- نعم. لم أكن أعلم.

كانت تزور الأردن، والتقينا هناك. وأُغرمت كل منا بالأخرى. كان علَيّ الرحيل، فتركتُ كل شيء من أجلها. إن بعض الأماكن لا تتقبل علاقة كهذه.

- أرأيتِ يا زينب، هذه نتيجة الديانات التي تعتنقينها وتدافعين عنها. أنا لا أفهمكِ.

- لا يمكننا التنكّر للديانات، يا فلاي. هي حقاً موجودة، وستبقى موجودة إلى الأبد.

- هل سأراكِ مجدداً؟

- لا أعتقد ذلك.

- عجباً، هذه أول مرة لا تعتقدين فيها.

ابتسمت وقالت:

- وأنت يا فلاي، بمَ تعتقد؟ ولمن تعيش؟

- وبمَ تعتقد النجوم يا زينب؟ وأين تذهب أرواح الأحصنة الميتة؟ وماذا تعبد العصافير؟ ولمَ تعيش الأنهر؟

- انتبه إلى نفسك، يا فلاي.

ثم انحنت فوقي وقبّلتني ورحلت.

كانت تلك آخر مرة أرى فيها زينب.

الفصل الخامس

الجرائم

عُثر على الرقم ٦ مقتولاً برصاصة في حي جزيرة سان لوكاس، وعُثر على سيارته بعد اختفائه بست ساعات. أول من بلّغ عن اختفائه كان شريكه الـ١٠٧، فقد كانا يتشاركان السيارة نفسها، يعمل كل منهما عليها اثنتي عشرة ساعة، سبعة أيام في الأسبوع. وبقيا، على مدى عشر سنوات، يلتقيان في الصباح عند موقف سيارات التاكسي نفسه، ويتبادلان المفاتيح وبعض الكلمات، قبل أن يعود السائق الليلي إلى منزله، وينطلق السائق النهاري إلى عمله. وعندما لم يظهر الـ٦ في نهاية مناوبته تلك الليلة، اتصل شريكه الـ١٠٧ بالمراسل ليبلّغ عن اختفائه. فحاول المراسل التواصل مع الـ٦ مطوّلاً، لكنه فشل في ذلك فأبلغ الشرطة.

كان أحد حراس الأمن قد سمع النداء المتواصل الذي أطلقه مراسل التاكسي على الراديو، فعثر على الـ٦ مصاباً بطلقٍ ناري في طرف رأسه داخل سيارته. لا شك في أن تلك الرصاصة اخترقَت دماغه من مقعد الركاب الأمامي، فانفجرت دماؤه على مقعده وصولاً إلى الزجاج. تم احتجاز السيارة، فتوقفت لشهور عن العمل. وبعد خمس عشرة سنة من العمل وراء المقود، تخلى الـ١٠٧، شريك المرحوم، عن عمله كسائق تاكسي، وراح يخطّط لفتح مطعم.

وُجِد الـ٤٨ راكعاً على ركبتيه، بعد أن أُبرح ضرباً بحجرٍ في منطقة السكك الحديدية. عَثر عليه متشرّدان جوّالان قالا إنهما وجداه بعد أن سمعا دويّ ذباب قوياً، ورأيا كلباً يهرب بقطعةٍ من لحم إنسان في فمه. حين اقتربا من السيارة، شمّا رائحةً كريهة ووجدا جثة في داخلها. حضرت الشرطة، واهتاجت الصحف وامتلأت أوراقها بالصور الفوتوغرافية التي التقطت في موقع الجريمة. طُلب من المتشرّديْن الوقوف بجانب السيارة لتُلتقط لهما صورة تذكارية. وقفا قربها، وابتسما للعدسات، وقام مكتب التحرير بالتعليق مطوّلاً على أسنانهما المفقودة.

ترك الـ٤٨ وراءه زوجة شابة وولدين صغيرين. لكنه لم يترك لزوجته أي مدخول غير الذي كان يجمعه من سيارة التاكسي. ولم يكن للزوجة عائلة في تلك البلاد، فقررت العودة إلى الجزائر لتعيش مع أخيها وزوجته.

مات الـ٩٦ أيضاً مقتولاً، إثر صدمةٍ في أول عموده الفقري. عثر أحد المزارعين على سيارته وسط حقلٍ من التبن، بعد أن سمع صوت موسيقا عالياً طوال الليل. فانتظر بزوغ الفجر، وحمل بندقية صيد، واتجه بشاحنته الصغيرة إلى مسرح الجريمة. اشتكى المزارع لاحقاً، من صوت الموسيقا العالي الذي تردّد صداه في الأرجاء ليصل إلى مخازن الحبوب، ويخيف الأبقار، ويمنعها من قضاء ليلة هانئة.

أما أشقاء المغدور الأربعة، الذين انتقلوا مثله حديثاً من الشق الغربي إلى هذه البلاد، فقد أمضوا الليلة يشربون. وفكر اثنان منهم في دفن الجثة في ذلك البلد الجديد، كما كانوا يصفونه. وفكر الآخران في إرسالها إلى بلدهم الأم. أثار ذلك نقاشاً محتدماً بينهم. فشربوا وغنوا وبكوا وتعاركوا بالأيادي، إلى أن تصاعد الخلاف بينهم وبات عنيفاً، فاضطرت الشرطة إلى التدخل لتوقيفهم.

المرة الأخيرة التي شوهد فيها الـ٧٢، المعروف أيضاً باسم العنكبوت الجنسي، كانت حين دخل أحد فنادق المدينة متأبطاً ذراع عاهرة. كان الـ٧٢ يعمل أغلب الأحيان في الليل، لأنه يفضّل المناوبة الليلية على ازدحام السيارات الخانق في النهار. وكان لديه أيضاً زبائن دائمون ينقلهم عند الصباح إلى المطار. فتلك الرحلة ذات أجرة ممتازة لكل سائق تاكسي.

قيل إن الـ٧٢ كان ينتظر كل مساء، امرأةً شهوانيةً طويلة القامة أمام مقر عملها ليعيدها إلى البيت. وبتوالي السنين، صارا يتمازحان، ويتشاركان أوهامهما الجنسية فوق مقاعد السيارة. وحين تصل إلى شقتها، كانت السيدة تترك له إكراميةً كبيرةً. انقضت أعوام على ألعابهما المغرية إلى حدّ ما. وذات مرة، دعته إلى شقتها وقيّدته بسريرها ورحلت. بقي الـ٧٢ خلال يومين، مغلول اليدين، من دون أكل ولا شرب. وحين عادت وجدته يعاني من الجفاف والهذيان. سألها عن سبب ذلك التصرف، فأجابته ببساطة: أنت من أراد ذلك.

عُثِر على سيارته تحت الجسر مصابةً بخمس رصاصات، عبرت باب السائق والزجاج الأمامي. وأفاد تقرير الشرطة أن القاتل كان، على الأرجح، خارج السيارة، وبالتالي جاءت الطلقات من الخارج. حضر جنازته عدد لا بأس به من النساء، وكان معظم الرجال من سائقي التاكسي. لم يكن للضحية عائلة في البلاد، ولم يكن أحد يعرف الكثير عن حياته الشخصية. قال الـ٩٢ بهذا الخصوص: ليتنا سألناه عن حياته من قبل. كنا دائماً منشغلين في الاستماع إلى مغامراته الجنسية... كان رجلاً مرحاً.

شارك في جنازة الـ٧٢ خمسة مخنّثين وامرأتان، التفّوا كلهم حول نعشه. كان أحدهم يُدعى لاري، أو ليمو، وقد شوهد يبكي كثيراً. مشى لاري وسط المشاركين ثم قال: أطفِئوا الأنوار من فضلكم لتعرفوا كيف كان ماني يرى كل واحد منا. وقف أمام النعش، وبدأ صدره يلمع. ثم بدأت بعض الشّرار الضوئية تظهر على صدور الحاضرين. وإلى جانب ليمو، وقفت سيدتان تشعّان بألوان زاهية. كما لمع سائق تاكسي قليلاً، وهو يقف عند الزاوية.

عُثر على جثة الـ١٨ طافية على سطح نهر المدينة الكبير. ثم ظهرت سيارته شمالاً، على بعد ستة أميال من مكان وجود الجثة. ذكر الطبيب الشرعي في تقريره أن الـ١٨ تعرّض للطعن أولاً، ورُمي لاحقاً في النهر، فسحبه التيار بعيداً عن مسرح الجريمة. لا بد أن حادثة الطعن وقعت على الرصيف الخشبي الذي يبعد أمتاراً قليلة

عن السيارة، لأنهم وجدوا عليه أثناء التحقيق آثار دماء. كما رجّح الطبيب أن يكون الـ ١٨ قد سبح في النهر مسافةً قصيرة، لكن النزيف أوهن قواه، وأدى إلى غرقه.

لاحقاً، قال الـ ٥٩، وهو ابن عم للضحية، أنه ترعرع هو وابن عمه على شواطئ الكاريبي، وأنهما كانا صياديْ سمك وسبّاحيْن محترفين. في حين تقول شهادة الوفاة إن المغدور مات غرقاً. وكان القتيل مولوداً جديداً في المسيحية، فآمن المشاركون في جنازته داخل الكنيسة بأن حياته التالية ستكون أفضل.

وقعت كل تلك الجرائم خلال يومين اثنين. وتبيّن في التحقيق أن كل تلك الرحلات انطلقت من قلب المدينة، من مكان ما بين وسط المدينة وضفة النهر.

أظهرت سجلات المراسلين أن أحداً من هؤلاء السائقين لم يتلقَ مكالمة صادرة من منزل أو عنوان محدّد. ورُجّح أن يكون الراكب، أو بالأحرى القاتل، أوقف سائق التاكسي في الشارع، أو استقل سيارته من الموقف. توصلت الشرطة إلى أن القاتل اختار ضحيته عشوائياً رغم وجود خيوط مشتركة بين كل تلك الجرائم.

كان جميع الضحايا ذكوراً، ووصلوا إلى البلاد حديثاً. كلهم يُعرفون بالمغتربين، ويعملون في مناوبات ليلية. لم يُعثر في جسم أيّ منهم على كدمات أو أثرٍ لعراك أو مواجهة جسدية. وساد الاعتقاد

بأن الضحايا تشاركوا الحديث مع القاتل، بوجود سجائر دُخنت حديثاً تحمل علامة تجارية واحدة في منافض سياراتهم. الأمر الذي أكّد أن القاتل قدّم سيجارة لكل من الضحايا الخمسة.

ومن ضمن الخيوط المشتركة بين كل تلك الجرائم، ضبط أجهزة الراديو في السيارات الخمسة على موجة محطة تبث موسيقا الهيب هوب. وهذا ما جعل أحد رجال الشرطة يشتبه بشابٍ أسود أو ربما بشبانٍ سود. والغريب ضمن الخيوط المشتركة، أنّ أولئك الذكور الخمسة، الواصلين حديثاً إلى البلاد، هم في منتصف عمرهم، ويستمعون كلهم إلى المحطة نفسها، وجميعهم نحيلون.

أثارت كل تلك الجرائم الذعر بين سائقي التاكسي. فنظمت لجنة سائقي الأجرة مسيرة احتجاج في المدينة، سار فيها حوالى سبعمئة سيارة، وسببت جموداً كبيراً في وسط المدينة. رفرفت أعلام بلدان الضحايا، ورُفعت شرائط سود وصور للضحايا خارج تلك السيارات. مشت عائلات المغدورين في الطليعة، ومشى بعضهم بجانب السيارات. وحمل أبناء الضحايا صور آبائهم، فأربكهم الصحافيون والمصوّرون.

فجأةَ، وجد السود أنفسهم عاجزين عن توقيف سيارة تاكسي في الشارع. وبعض السائقين الذين اعتادوا الانتظار في آخر الليل أمام مداخل البارات، ونوادي الرقص التي تعزف موسيقا الجاز، والآر أند بي، والهيب هوب، تخلّوا عن تلك العادة. وصرتَ ترى

الشبان السود كل صباح، عند الثانية فجراً، وبعد توقف وسائل النقل العام عن العمل، والنوادي الليلية عن استقبال الزبائن، يمشون وسط الشوارع، يلوّحون للسائقين، ويعترضون طريقهم، ويقرعون نوافذهم، ويخبطون على أسطحهم، في محاولة فاشلة لركوب سياراتهم. وذات ليلة، تم استدعاء الشرطة، بعد أن حاولت مجموعة من هؤلاء إجبار سائق على توصيلها فرفض. وأدى ذلك إلى خللٍ في الأمن، أُلقي إثره القبض على كثيرين.

لامت لجنةُ سيارات الأجرة عمدةَ المدينة على تلك الجرائم، لأنه رفض سابقاً فكرة وضع عازلٍ زجاجي بين المقعدين الأماميين والمقاعد الخلفية. فذلك العازل كان سيحدّد عدد الركاب في السيارة الواحدة بثلاثة. وهذا الأمر لم يوافق خطة العمدة القائمة على تشجيع العائلات والمجموعات على زيارة المدينة، معتبراً أن السيارة التي تسع أربعة ركاب مناسبة أكثر لخطته. بالمقابل، اتّهم اتحادُ مكافحة التمييز العنصري سائقي التاكسي ولجنةَ سيارات الأجرة بالتمييز العنصري ضد السود. فقد ظهر سائق تاكسي وافد من بلد شرق أوسطي أمام عدسات الكاميرا يقول إن السود مسؤولون عن وقوع كل تلك المشاكل. بُثّ التصوير في نشرة أخبار السادسة مساءً. ثم سُمع ذلك السائق يصرّح في مقابلة مع بعض المناضلين ومواطنين من المجتمع الأسود بأنه كمسلم لا يفرّق بين الأعراق. فالنبي محمد، صلى الله عليه وسلّم، حثّ المسلمين على المساواة

بين الأعراق. لكن السائق أعلن بعد ذلك، أن الشبان السود في تلك المدينة خطيرون وبلا أخلاق.

أثناء تشييع الـ١٨، اتهم كاهن الكنيسة الموقّر محطات الراديو المحلية بنشر الكره وبإفساد عقول الشبان. وتابع قائلاً إنه يجب منع هذه المحطات من بث تلك الموسيقا العنيفة التي تصف المرأة بالساقطة والعاهرة.

في إحدى المقابلات التلفزيونية، رد منتج موسيقي على كل الاتهامات التي وجّهتها الحملة الانتخابية لأحد السياسيين. ثم أكد أن للهيب هوب معجبين ذوّاقة من كل الفئات العمرية والعِرقية. واستشهد بإحصاءات تعرض نسبة مبيعاتٍ عاليةٍ ليثبت وجهة نظره. وحين أدان ذلك السياسي لغة التعنيف المتَّبعة في تلك الأغاني، استنكر المنتج هذه الإدانة، موضحاً أن كلمات الأغاني ليست أكثر عنفاً من كلمات الأغنية الوطنية *Rule Britannia* (الحكم البريطاني).

من جهة أخرى، افتُضح أمر أحد المغدورين، إذ كان يقود سيارة التاكسي بشكل غير قانوني، مذ بدأ العمل عليها، لأنه رسب في اختبار اللجنة الخطي لضعفه في اللغة الإنجليزية. فاستخدم رخصة قريبه، على أساس أن شبههما الكبير في المظهر سيخدع أي مفتش من أي لجنة. ولم ينجح ذلك المغدور في الاختبار إلا مؤخراً، أي قبل ستة أشهر فقط من مصرعه. وهكذا حصل على الرقم ٤٨. عقب ذلك، طرح ممثل اتحاد سائقي سيارات الأجرة مسألة الرسوب في الاختبار، وطالب بوضع الأسئلة في أكثر من لغة واحدة.

وطُلب من السائقين الذين يقفون في أركان سيارات الأجرة، أن ينتبه بعضهم إلى بعض، وأن يحترسوا من الزبائن الذين يلوّحون لهم في الشارع. وقرر كثيرون التوقف عن العمل ليلاً. فاستبدلوا أوقات عملهم في النهار بساعات الليل. وقد أدى ذلك بالطبع إلى زيادة الرسوم على إيجار سيارات الأجرة في النهار.

كنا لا نزال في موسم الكرنفال، فرفض بعض السائقين توصيل الزبائن المقنّعين. أما الآخرون الذين لم يرفضوا إدخال المقنّعين إلى سياراتهم، فكانوا يحدّقون جيداً إلى بشرة الزبون قبل أن يفتحوا أقفال أبوابهم. وذُكِر أن أحد السائقين رفض إدخال شخصين مثليين يرتديان زي رعاة البقر بسبب المسدسين البلاستيكيين البارزين على خاصرتي كل منهما. وعندما قدّم الثنائي اعتراضاً أمام اللجنة، صرّح السائق أنه رفض توصيلهما لأسباب صحية. فأحدهما كان يرتدي بنطلوناً جلدياً مشقوقاً في الوسط يترك قفاه عاريةً تماماً.

وبرزت في الصحف عناوين كثيرة من بينها «هل يحق لنا اتهام سائقي التاكسي بالعنصرية؟». وأُعيد بث تقرير خاص بعنوان «الوافدون الجدد والتمييز العنصري» مراتٍ عديدةً على المحطات الإذاعية المختلفة. وبرز في الصحف عنوان آخر في هذا الإطار: «هل نتسامح مع من لا يتسامحون؟». من جهة ثانية، لاحق ثلاثة منتجين المرأة الوحيدة التي تعمل سائقة تاكسي في المدينة لإجراء مقابلة معها. كانت سحافية تدعى بايبي. فسُئِلت على الهواء:

- هل باتت مهنة قيادة التاكسي خطيرة بالنسبة لامرأة مثلك؟

أجابت بايبي وهي تضحك:

- لا، ليس إذا ركبت امرأة سيارتي، يا عزيزي.

وتعاقدت إحدى دور النشر مع متخرجة من قسم الكتابة الإبداعية في إحدى الجامعات المحلية، كانت قد عملت سائقة تاكسي خلال سنتين، لتجمع في ملف واحدٍ مجموعة قصص تكشف أسرار مهنة قيادة التاكسي. كان الكتاب سيصدر في الخريف، متزامناً مع موسم الجوائز الوطنية. وأُطلق على الكتاب عنوان «قصص من التاكسي».

سلّط قاتل التاكسي، كما لُقّب في الصحف، الضوء على الجانب الرومانسي والخطير لمهنة قيادة التاكسي. فقام الصحافيون والمنتجون باستئجار سائقين ليوم كامل، مقابل مبلغ محدّد من المال، أو مقابل ما يسجله عدّادهم أثناء إجراء المقابلات، ليطرحوا عليهم الأسئلة ويرافقوهم إلى أحياء المدينة الخطيرة. واقتيد السائقون أيضاً إلى دهاليز محطات التلفزة حيث أجريت معهم المقابلات. هناك، كانوا يقدمون لهم المياه الباردة، وينادونهم بأسماء عائلاتهم، فتجري أحياناً بشكل خاطئ على ألسنة السكرتيرات والمنتجين، ويضطر المذيع إلى الخروج من غرفته الزجاجية ليسلم بيده على سائق التاكسي، ويطلب منه أن يصحّح لفظ اسمه، فيردّده في نفسه مرات عديدة، وهو عائد إلى كرسيه العالي وراء المايكروفون. وفي كثير

من استوديوهات التسجيل، كانوا يمررون أسلاكاً من أسفل سترات السائقين، صعوداً إلى رقابهم، فإلى داخل آذانهم. فتصدر أصواتاً فجائية تردِّد عبارات مثل «هل تسمعني، يا سيدي؟»، تليها هزات رأس متشنِّجة تعكس إجابة سائقين جنوب أفريقيين. وتُبقي التقنيين في حالة ضياع لعجزهم عن فهم ما إذا كانوا يقصدون بها نعم أم لا. كما كانوا يضعون مستحضرات تجميل على مقدمات بعض الرؤوس، ومنطقة تحت العينين للحد من توهج البشرة ولمعانها. وقد رفض بعض السائقين وضع مستحضرات التجميل لاعتبارها مسألة نسائية بحتة.

قام أحد منتجي برامج تلفزيون الواقع، بتقديم برنامج جديد من نوعه تحت عنوان «أطول رحلة»، كان سيستضيف فيه نجماً من المشاهير وراء مقود سيارة أجرة تخفي في داخلها كاميرات مراقبة. كاد ذلك البرنامج أن يُلغى في منتصفه، بعد أن حاول أحد الركاب مهاجمة النجم ليسلبه ماله تحت تهديد السلاح. فحين رأى فريق التلفزيون، الذي كان يلاحق التاكسي في سيارة مستقلة، المسدس في يد الراكب، أعلم الشرطة. وكان الأمر سينتهي بالأسوأ، لو لم يخبر النجم السارق بأنه لا يملك أي نقود لأنهم يصورون برنامج «أطول رحلة»! ابتهج السارق، الذي تبين أنه من المعجبين بذلك البرنامج، حين عرف أنه يظهر على شاشة التلفزيون. ووافق على التوقيع على عقد للتقليد قبل أن يتم تسليمه للشرطة.

الجرائم (مجدداً)

إنه الصباح. بعد دفن آخر ضحية من ضحايا جرائم التاكسي، عُثِر على طبيبٍ نفسي مذبوحاً داخل عيادته. وعُثِر على معطفه معلقاً وراء الباب. أفاد تقرير الشرطة، أن بقع الدماء التي لطّخت المعطف، ربما تعود لكون القاتل ارتدى المعطف أثناء ذبح الطبيب من حنجرته.

شعر بعض المرضى الذين يتعالجون عند ذلك الطبيب بانزعاجٍ شديدٍ فور قراءتهم الخبر في الصحف. وذُكِر أن جهاز كمبيوتر، وجهاز راديو، ومئتي دولار، وعلبة سيجار كوبي فُقِدت من العيادة. كما ذُكِر أنه لم يُعثر على أية بصمات في أماكن أخرى، باستثناء بعض بقع الدماء الموزّعة في أنحاء الغرفة. كان على الشرطة أن تحجز على الملفات لحسن سير التحقيق، فأثار ذلك اعتراض المرضى والمدافعين عن الخصوصية الشخصية، واتهم هؤلاء الشرطة باختراق حق كل مواطن في الخصوصية.

عُثر على رئيس مجلس تنفيذي مرموق مقتولاً بالرصاص قرب سيارته، في موقف النادي الرياضي الذي يتردّد عليه ثلاث مرات في الأسبوع.

كان ذلك الرئيس التنفيذي يترأس إحدى أكبر شركات التعدين في المدينة. وكانت تلك الشركة قد تورّطت قبل سنوات في تسليح فريق من المتمردين في أحد البلدان الإفريقية للانقلاب على النظام

الميّال إلى حزب اليسار، والذي كان يطالب بتأميم شركة التعدين. بعد الفضيحة، استقال رئيس مجلسها التنفيذي، ورُشح مكانه رئيس شاب يدعى إدوارد ستاين الثالث (المشهور في أوساط الملاهي الليلية باسم إدي). وفور توليه المنصب، اقترح الرئيس على أعضاء مجلس الإدارة التعاقد مع شركة علاقات عامة تقوم بحملة إعلانية. تسلِّط الضوء على برامج المسؤولية الاجتماعية الخاصة بشركته. التي تخلق فرص عمل جديدة لعمال دول العالم الثالث، وتتبنّى تقنيات متطورة جديدة تعزّز الوعي البيئي أثناء التعدين.

أولى تلك التقنيات الجديدة عُرِفت بـ«الخطوة التقنية». فالحفريات وتعرية الأرض كانت ستتم على مراحل، تتيح رسم خطط مستقبلية تطال الزراعة، تنتهي بتغطية جميع المواقع المشوّهة بالخَضار. وفي هذه الصورة دعا ذلك الرئيس التنفيذي الشاب مختلف الجمعيات البيئية إلى طاولة حوار لمناقشة الإجراءات الجديدة.

شارك في جنازة السيد ستاين الثالث حضور كريم، وعده عمدة تلك المدينة بأنه سوف يتخذ لاحقاً تدابير صارمة تجاه الجرائم. وكان رئيس المجلس التنفيذي قد ترك وراءه زوجة وابنتين جميلتين.

في اليوم التالي، عُثر على بروفسور يدرّس مادة العلوم السياسية في إحدى الجامعات المحلية مقتولاً هو وزوجته. وأُعلن أنهما ماتا محروقين مشوّهين في غابةٍ تقع خارج المدينة. وتبيّن في التحقيق اختفاء ملابس الضحايا وجميع لوازم التخييم من مسرح الجريمة.

أفاد الطبيب الشرعي بأن الثنائي تعرّض للتقييد ثم الطعن. كما تحدّث تقرير الشرطة عن فقدان أجزاء من جسد كل من الضحيتين، وعن شوائها على طريقة الباربكيو. ووُجِدت آثار لعاب بشري على أذرع الضحيتين وأفخاذهما. كما وُجِدت سيارة المغدور به إدوارد ستاين الثالث، رئيس المجلس التنفيذي الشاب لشركة التعدين، مركونة في الغابة قرب مسرح الجريمة الأخيرة. فاتضح أن القاتل - أو القتلة - قد استبدل إحدى السيارتين بالأخرى. فوصل - أو ربما وصلت، أو حتى وصلوا - إلى الغابة في سيارة الضحية الأولى، وغادرها في سيارة الضحية الثانية. وأخيراً، تبيّن أن الجريمتين وقعتا في اليوم نفسه.

أثارت الأخبار عن أكلة لحوم البشر الذعر مجدداً بين الناس. فحرّكت النقاشات في جميع أوساط المدينة، وتخطّت صفحات الصحف المحلية لتطال الصحف الأجنبية. وشوهد خبراء في ظاهرة أكل لحوم البشر، وفي الطقوس الشيطانية، على جميع محطات التلفزة. من جهة أخرى، أدانت المؤسسة الروحية أحد المحاورين حين صرّح بأن فعل أكل لحوم البشر مبرر في زمن المجاعة. وانهالت عليه الاتهامات والتهديدات عبر المحطات التلفزيونية. أوضح الخبير لاحقاً أن في ذلك التصريح إشارة سريعة إلى تاريخ البشرية. فظاهرة أكل لحوم البشر ليست جديدة، ولا يمكننا غض النظر عما حصل في الماضي. وأشار إلى الدلائل التي برزت في صفوف المحاربين

خلال الحرب العالمية الأولى. ولم ينس طبعاً ذكر الحوادث التي وقعت مؤخراً في حرب فيتنام وبعد تحطم بعض الطائرات الجوية. وقد تمادى الصحافيون في تناولهم لذلك الموضوع. فترأسوا حلقات نقاش حول ظاهرة عَبَدَة الشيطان، والمحافل الماسونية، والاتهامات الباطلة التي وجّهتها الكنيسة والنازيون على حد سواء لليهود في أوروبا بالقيام بأعمال شيطانية.

وفي نعي طويل أصدرته إحدى الصحف المحلية، استُذكر البروفسور في كثير من السياسات المحافظة التي ساعد في إدخالها إلى الحكومة الحالية. فقد لعب من وراء الكواليس، دور الناصح الفعلي لبعض السياسات مثل إلغاء تسجيل الأسلحة، وتفكيك تعداد السكان، وغيرها من الخطوات المعيقة للرتابة الحكومية. وحثّت حياته وأعماله على فتح نقاش آخر حول الدور الأكاديمي في الحكومة، والعكس بالعكس. عندئذ قامت البرامج السياسية الإذاعية والتلفزيونية بالتشكيك بكفاءة السياسيين. فطُرِح سؤال إذا ما كان رئيس الحكومة مجرد واجهة للإيديولوجيات ومؤسسات الفكر والرأي؟ وسؤال آخر عن هوية الأدمغة التي تدير البلاد، وعن دور الأكاديميين وصانعي السياسات في وضع قيمنا؟

لم يستطع المحقّقون ولا الصحافيون إيجاد أي رابط بين كل تلك الجرائم. فلو نظرنا إلى حياة هؤلاء الضحايا، يسهل علينا الافتراض أن القتل تم لدواعٍ سياسية. أما الواقع فيحتم علينا أن

نستنتج أنه من فعل عقلٍ مضطربٍ أو قاتلٍ سفاح. لذلك ركّزت الشرطة في تحقيقاتها أولاً على ملفات الطبيب النفسي، ثم على المرضى المنتمين إلى أحزاب سياسية راديكالية.

خمّن رجال التحري أن خمسة وسبعين بالمئة من موظفي الدواوين والحكومة الذين يتعالجون عند الطبيب، يعيشون على الأدوية المضادة للاكتئاب، ويتعالجون من اضطرابات ذهنية. وتردّد في مقار الشرطة الرئيسية مزاح بأن البلد محكوم من قِبَل مجموعة مخدّرة من الزومبي، أو ربما من قتلة جماعيين متنكّرين بأقنعة بيروقراطيين. وسُمِع كبير المحقّقين في القضية يقول، وهو يشعل سيجارة ويناقش المسألة مع أحد رؤسائه: «لمَ تخلّينا عن الذهاب إلى البار والشرب حتى الثمالة، أو الخروج ليلاً مع عاهرة، والاستيقاظ في الصباح الباكر للذهاب إلى العمل؟ فالكأس الآن لم تعدْ تفي بالغرض. لقد غدت الحبوب الملاذ الوحيد للمضطربين، ولذلك من الطبيعي أن ينهار البلد».

وطالب مَن هو على رأس الكنيسة الأسقفية بإلغاء الكرنفال، لجذوره الوثنية التي اعتبرها دافعاً قوياً وراء الفسوق والعصيان. لكن الكنيسة الكاثوليكية اتخذت موقفاً متحيّزاً، لأن الكرنفال لعب مطوّلاً دوراً في تاريخ الوظائف الكنسية. وعبر سنين طويلة، لم يتم إيقاف تلك الاحتفالات يوماً أو حتى إدانتها. فاستشهد المتحدث باسم الكنيسة الكاثوليكية بلهجةٍ فصيحةٍ مدافعة، بأقوال القديس فرنسيس

الأسيزي الذي تحدث عن «الفرح الروحي». واشتهر بالتعريف عن نفسه وعن رفاقه بـ«بهلوانات اللّه». إلا أن ذلك المتحدث لام بعض العناصر الفاسدة، التي تحوّل الكرنفال من نشاط اجتماعي ترفيهي، إلى أجواء استعراضية فخرية للمثليين الموبوئين بالمخدرات المسيطرة على جوهر ذلك الاحتفال المحتشم.

وحين شُكّلت فرقة عمل تحث سكان المدينة على قمع الكرنفال، هدّدت لجنة التجار المحليين، والمؤسسات الكبرى، والرعاة، بإيقاف دعمهم المادي لحملة العمدة الانتخابية القادمة، إذا تم التقيد بتوصيات الفرقة.

بقي الرابط بين مقتل سائقي التاكسي من جهة، ومقتل الطبيب النفسي والبروفسور ورئيس المجلس التنفيذي من جهة ثانية، مبهماً في نظر المحقّقين. واشتبهوا في النهاية بوجود سفاحيْن منفصليْن يعمل كل واحد منهما على حدة. ففي حين انطبعت الجرائم المؤسساتية، كما اشتهرت لاحقاً، بطابع ذهني مرضي، توصلوا إلى أن جرائم التاكسي كانت ذات طبيعة مختلفة. فتلك الأخيرة لم تكن دراماتيكية ومختلّة مثل نظيرتها المؤسساتية.

بقيت كلّ من المسألتين لغزاً بالنسبة إلى الشرطة، إلى أن حصل تطور مفاجئ في قضية القتل المؤسساتي، نتيجة لإهمال القاتلين وتهوّرهما. فقد التقطت كاميرات الأمن صوراً لرجلين يخرجان سيارة الرئيس التنفيذي من موقف النادي الرياضي. وتمكن التحريون من

المطابقة بين البصمات الموجودة على السيارة وبصمات قاصرين مدرجين في سجل الجنايات.

اشتُبِه بصبيين في السادسة عشرة من عمرهما، تامر غونزاليس عثمان وبيلي بلوم المعروف بالبق سكيبي، في ارتكاب كل الجرائم المؤسساتية. فأُلقي القبض عليهما، واستُدعيا إلى مقر الشرطة الرئيسي للاستجواب.

اعترف البق سكيبي، خلافاً لما توقّعته الشرطة، ومن دون تردّد، بارتكابه الجرائم الثلاث، ذاكراً اسم كل من الضحايا وعنوانه، واصفاً بدقة تفاصيل كل جريمة ومراحل ارتكابها، حتى أنه قلّد رد فعل كل من الضحايا. واعترف أيضاً على تامر كونه شريكاً له. وحين سُئِل عن سبب اختيار أولئك الأشخاص بالتحديد، قال إنهم كانوا مدرجين في قائمة طويلة من الأسماء. وسألوه من أين أتيا بتلك القائمة، فقال إنهما وجداها في منزل شخص يدعى أوتو.

رجّح طبيب الشرطة النفسي بأن يكون الصبي عاجزاً عن الكذب أو بأنه يعاني من تأنيب الضمير. وقد طلب خلال استجوابه، طبقاً من الهمبرغر وكوباً من الكوكا. ثم تخلّلت اعترافه موجات من الضحك المخفي والضحك العالي.

أما تامر فتم استجوابه على انفراد.

حين سألوه عن سبب زيارته لمنزل أوتو، قال لهم إن أوتو قد طلب منهما أن يحضرا له بعض الحقائب الخاصة من هناك.

- وأين الحقائب الآن؟

- تحت الجسر.

ماذا يوجد فيها؟

- أوراق.

- أي نوع من الأوراق؟

- مجرد أوراق.

- ماذا كُتب عليها؟

- أسماء بعض الأثرياء.

- كيف عرفت أنهم أثرياء؟

- أوتو دوّن عليها مدخول كل واحد منهم.

وسألوه إن كان سكيبي اطّلع بدوره على القائمة. فأجاب إن سكيبي غير قادر على القراءة.

وسألوه عن آخر مرة رأى فيها أوتو، فقال لهم: حين ظهر في لباس مهرّج تحت الجسر.

وطلبوا منه أن يذكر أسماء الأشخاص الذين قتلهم، فذكر

الأسماء الثلاثة التي ذكرها سكيبي، وأضاف إليها اسماً رابعاً: فريداو مواليلا. ثم اعترف بأنه استخدم مسدس فريداو لقتل رئيس المجلس التنفيذي.

إبان ذلك، طلب سكيبي، في غرفة الاستجواب الثانية، السماح له بالذهاب إلى الحمام. فاصطحبه عنصران من الشرطة إلى الحمام مغلول القدمين. هناك، خلع قميصه وغسل شعره ووجهه، وظهرت بعض آثار الدماء على ملابسه الداخلية. وقبل أن يخرج، قام بسرقة الصابون متمتماً في نفسه مبتسماً: يا له من صابون!

حين وضعوا تامر وسكيبي في الغرفة نفسها، سُئِلا إن كانا ينتميان إلى أي حزب سياسي، فأجابا بالنفي.

ثم سألهما المحقّق إن كانا يُعرفان باسم آخر؟ فأجابه سكيبي: «الرأسماليون المتوحشون». ثم نظر كل منهما إلى الآخر وانفجرا ضحكاً.

وحين سألهما إن كان أوتو قد أمرهما بالقتل، نفيا ذلك، واعترفا بأن فكرة القتل كانت فكرتهما.

وحين سألهما إن كانا مسؤولين عن مقتل سائقي التاكسي، نفيا ذلك.

وعاد المفتش يسأل نفسه عمّن يمكنه أن يكون مسؤولاً عن تلك الجرائم. فأجابه سكيبي ضاحكاً:

- الله أعلم.

توقفتُ عند مقهى بوليرو. كان العناكب يفرشون الصحف على الطاولات مثل عرض لمجموعة فراشات من تشكيلة هاوٍ. تهامسوا فيما بينهم، وعرضوا عليّ بعض صور المجرمين اليافعين.

تعرّفتُ فوراً إلى تامر وسكيبي في الصور، فركضتُ في الشارع لأشتري كل ما يمكنني حمله من صحف ذلك اليوم. وجلستُ إلى الطاولات لأقرأها. كانت صورهما تحتل الصفحات الأولى من الجرائد والمجلات الكبيرة والصغيرة. وفي الصفحات الداخلية تناولوا محطات في حياة سكيبي داخل مراكز اعتقال الأحداث، ومراكز الطب النفسي، وكتبوا مقالات عن تأثير الأمهات العاهرات على حياة أولادهن. ونشروا كل ذلك في الصحف المحلية، والوطنية، والعالمية على حد سواء. وظهرت صورة لأوتو في كثير من الصحف، على اعتباره المشتبه به الأول في مقتل الصحافي الفرنسي. ثم قيل عنه إنه الأب الروحي لأحد هذين المجرمين اليافعين. وسبّب الرابط بين الاثنين تضارباً في الآراء، وأدى هذا الأمر إلى اختلاق قصة معقّدة افتقرت إلى نهاية واضحة ومنطقية. قالوا عن أوتو إنه في حالة هروب، وإنه مُلاحَق من الشرطة، ونعتوه بالمنظِّر الخطير، وبالإرهابي اليساري المتطرّف المرتبط بمنظمات فوضوية.

فعاد الخبراء في تاريخ الفوضوية إلى الواجهة الصحافية. وأظهر أحدهم حقده وابتهاجه حين روى قصة الصربي غافريلو برينسيب

وعصابة الفوضويين التي كانت تتبعه، والتي ضمّت عربياً غامضاً تم إعدامه لاحقاً، واغتيالهم للأرشيدوك فرانز فردينان النمساوي وزوجته، ما تسبب باندلاع الحرب العالمية الأولى. خرجت تلك الرواية إلى العامة كأنها شرح لدرس في التاريخ يُعطى في الصفوف الابتدائية. كما تداولت الصحف حياة الفوضوية الشهيرة إيما غولدمان، وكأنها كانت تعطي درساً في سقوط الحركة الفوضوية، وفي حرية الممارسات الجنسية التي لم تؤدِّ، حسب قولها، إلا إلى البغاء والفسوق. فأعادت إلى الأذهان كثيراً من الكليشيهات والأفكار الخاطئة عن الحركة. وبرزت عناوين فرعية في أسفل الصور المنشورة مثل «اختباء الفوضويين» و«عودة الفوضوية إلى الغرب» و«لَمَ يُقتل مواطن صالح على يد فوضوي»، وغيرها من العبارات التي دفعتني لأقود سيارتي بلا هدف، وبلا إشارة.

قدتُ طوال الليل. رأيتُ الخارجين عن القانون يطوفون، والمحتفلين بالكرنفال يمشون مثل راقصين، ويتباهون مثل نجوم سينمائية، ومثل أفراد عصابات يشدّون ياقاتهم، ويثبّتون قبعاتهم، أو يضعون مزيداً من أحمر الشفاه على شفاههم الباهتة. قدتُ طوال الليل متجاهلاً كل تلك المخلوقات المطلّة برؤوسها أمام زجاج سيارتي، مثل عصافير عمياء وخفافيش صمّاء وقعت في فخ عالم خالٍ من الحشرات. تابعتُ القيادة باتجاه الجبل لأحدق إلى الأسفلَ باحثاً في الشوارع، ثم فكرتُ والخيبة تملأني: وسط فوضى كرنفال

كهذه، يسهل على أي مهرّج أن يختفي، كما تختفي الضحكة عن الوجوه. ومع اقتراب الفجر، قررتُ العودة إلى البيت. فتحتُ باب المرأب وركنتُ سيارتي. ثم رأيتُ ظل إنسانٍ غامضٍ عند الزاوية. اقترب مني، فتعرّفتُ إلى أوتو. كان يضع لحافاً على كتفيه، وبدا لي مثل خفّاش مهزوم. أصبحت لحيته طويلة، وتضاعفت التجاعيد على وجهه لتصل إلى طرف عينيه. أما ظهره فاحدودب بالكامل. وظهر وجهه مثل صورة فوتوغرافية بيضاء وسوداء في طريقها إلى معرضٍ للصور. قال لي:

- لم أشأ الصعود. ربما يبحثون عني هناك.

- هل تشعر بالجوع؟

- لا، شكراً.

- يمكنني أن أحضّر فوراً ما تأكله.

- لا حاجة لذلك، سنشتري ما نأكله في طريقنا.

- إلى أين؟

- إلى عائشة.

قدتُ باتجاه الضواحي. وصعد أوتو إلى المقعد الخلفي، وتمدّد فوقه خوفاً من أن يراه أحد، وغطّى نفسه باللحاف إلى أن عبرت الأزقة وصولاً إلى الشوارع القاحلة. أبحرتُ في ذلك المركب كما

لو كنتُ أقود مركباً أسود وذهبياً، يحمل فرعون إلى ضفة النيل، مثواه الأخير. حين خرجنا من المدينة، توقفتُ عند محطة للوقود، واشتريتُ، طعاماً وماء وكحولاً.

انتقل أوتو من المقعد الخلفي إلى المقعد الأمامي. أخذ قنينة كحول وفتحها وشرب منها. أما أنا فتابعتُ القيادة.

قال: أشرف الوضع على النهاية.

فأجبتُه: لكل شيء نهاية. وبقيتُ صامتاً وسط الأجواء الساكنة من حولي.

ضاقت الطرقات أمامنا، وتمايلت الأشجار لتكسر صمت الفجر. تجاوزنا بعض السيارات، فبدت لي وكأنها لا تسير. كان كل شيء ثابتاً في مكانه باستثناء الطريق، فقد انحدرت وابتعدت واختفت تحت عجلاتنا. فجأة ظهرت الأشجار على جانب الطريق. كانت تكبر أمام أعيننا ونحن نقترب منها، وتصغر في المرآة الخلفية ونحن نبتعد عنها. فتح أوتو النافذة، وجمّد وجهه في وجه الريح الباردة، ثم قال وهو يرفع صوته ليخترق صفير النافذة المفتوحة: «الهواء نقي. هذه الريح نقية للقوارض ورجال الكهوف». ثم أغلق النافذة ليتمكن من إشعال سيجارة، وعاد ليفتحها من جديد، وينفث الدخان في الهواء المتسارع.

قال: الأرض رطبة. انظر كيف أصبح كل شيء رمادياً. أكره

لون الشحوب. أكره لون المساواة والخضوع، ولون المهاجع والمستشفيات والسجون. عندما توفّى والدي، اشترت لنا أمي بذلات رمادية، لبسناها في الجنازة. وقالت إن الصغار لا يرتدون الأسود. وبعد ذلك، رحلت هي أيضاً. لا أذكر أين دفنّاها. هل تذكر أين دفنت أمك يا فلاي؟

- قرب النهر. في مكانٍ ما بين الدانوب والكعب الإيطالي. أذكر أن فرقة موسيقية عزفت في جنازتها، وارتدى الجميع ألواناً فاقعة.

- ألواناً فاقعة. يا لحظك الرائع.

مررنا قرب نهر، فاقترح أوتو أن نتوقف عنده لنمتّع نظرنا بالمياه: هناك منظر جميل. يمكننا الوصول إليه عبر محطة وقوف الشاحنات. توقّفْ هنا. فلا شاحنات في هذا الوقت.

أوقفتُ السيارة وخرجتُ منها، فلفحتني ريح باردة خرجت من مياه النهر. لم يُظهر أوتو أي انزعاج. حين رآني أرتجفُ مدّ لي القنينة، وقال: خُذْ، هذا سيُبقيك دافئاً. تناولتُ جرعة. ثم سلكنا ممراً طويلاً بين الشجيرات. كان التراب تحت أرجلنا رطباً وموحلاً، فوقفنا عند ضفة النهر، ورحنا نتأمل التيارات المسرعة باتجاه الجسر القديم لتضرب الصخور الثابتة على الشاطئ. قال أوتو مجدداً:

- عليّ أن أنهي ذلك.

- ذلك.

- ذلك، أنا. ذلك الشخص هنا، ذلك الكون الصغير، ذلك الكوكب التافه، ذلك النهر العابر. كل ذلك يجب أن ينتهي.

وصلنا إلى الكوخ، كان بابه مفتوحاً.

قال أوتو: لا بد أن أجد قنينة مخبّأة في مكانٍ ما. كانت عائشة قد توقفت عن الشرب، وقلقت عليّ من تلك العادة، فاضطررتُ إلى إخفائها عنها. دخل المطبخ وعاد بكأسين وقنينة روم.

صبَبْنا لأنفسنا كأسين من الروم وشربناهما.

سألتُ أوتو:

- عمّ كنت تتحدّث مع عائشة قبل أن ترحل.

- عن أمور كثيرة. عن عائلتها وعن طفولتها. أخبرتني عن قراءتها للإلياذة على مسمع جارتها السيدة روني. وأخبرتني أن الإغريق كانوا يحرقون الجثث في معاركهم، وأن الطرواديين كانوا يدفنونها. لأنهم كانوا يخافون من العصافير والكلاب الجائعة على جثامينهم... وذات مرة، طلبتْ مني أن أجد لها إذاعة تبث موسيقا الجاز. فلم أتمكن من التقاط أيّ واحدةٍ هنا. ضحكنا مطوّلاً على الموضوع. كنا نتحدّث عن الأيام التي لم تشعر فيها بسوء كبير، عن الموسيقا وعن الرقص. تذكّرَتْ قصة عازف الجاز الأسود الذي عزف سنوات طويلة في النوادي الباريسية المنتشرة وراء الأتلانتيك. وذات يوم، قرر العودة إلى وطنه. فبدأت مطاردة المجتمع له وتم إعدامه من دون

محاكمة... تذكّرتْ أيضاً الأيام التي كنا نرقص فيها، كما تحدثتْ عن والدها. وحين سألتُها مرة كيف كانت تشعر، أجابتني بأنها باتت تشعر بالسلام، بعد أن أشرف كل شيء على نهايته.

فجأة قال أوتو: «هيّا نشعل النار». ثم وقف على قدميه، وخرج من الكوخ. اختفى لبعض الوقت، ثم عاد يحمل بين يديه حطبتين. وضعهما في الموقد، وراح يضرم النار بواسطة بعض أوراق الشجر.

جلسنا في الجهة المقابلة، وانتظرنا اشتعال النار. وحده الدخان كان يخرج من هناك.

كان الجو بارداً ورطباً داخل الكوخ.

قال أوتو: الأوراق رطبة. ستجف بعد قليل.

وقال: ستشتعل النار، ويدفأ المكان. هل تذكر ذلك اللحن يا فلاي؟ *Between The Devil and The Deep Blue Sea* (بين الشيطان والبحر الأزرق العميق) كنتَ تسميه ثيلونيوس مونك. تقول الأغنية... وتمتم مقاطع منها وهو يتمايل بخفّة. هذه عادته، فهو يتمايل حين يشرب. «في أي ألبوم نجدها يا فلاي؟»

- *Straight, No Chaser* (سترايت، نو تشايسر).

- طبعاً، أعرفه يا أخي.

ثم ابتسم وقال:

- لم يبقَ لي أحد سواك يا فلاي.

- وأنت بقيتَ لي.

لم يجبني.

توقف الحديث حين بدأت النار تشتعل . فجلسنا صامتين، ننظر إلى لهيب الدخان.

ثم اقترحتُ عليه أن نأكل. فلوّح بيده ورفع كأسه. فهمتُ قصده. لقد رفع كأسه ليحافظ على هدوء المكان. ثم قال:

- يمكنك أن تنام على السرير، إذا كنت تشعر بالتعب.

رفعتُ رأسي نافياً ذلك. ولكن حين بدأت ألسنة النار تتراقص داخل المدخنة، شعرتُ بثقلٍ في عينيّ، ثم غفوتُ على الكرسي، وأنا أحمل الكأس فارغةً في يدي.

أيقظني أوتو بلطف قائلاً: اذهب وتمدّد على السرير يا فلاي. سترتاح أكثر على السرير.

لم أقاوم. تمدّدت على السرير، وغطاني أوتو بلحافه.

فجأةً سمعتُ طلقاً نارياً. فكرتُ أولاً أنني في حلم، ذلك الحلم المزعج الذي يراودني منذ أسابيع قليلة، ويترك فيّ انطباعاً بأنه حقيقي من صلب الواقع. كان حلماً فوضوياً، يصوّر سيارات كثيرة وأماكن مهدّمة، أسير فيها بصعوبة لأهرب منها. وكان فيه أشخاص

كثر يطاردونني، على الرغم من أنني لم أرَ لحظةً وجهاً لهم. لكن في تلك الليلة، تذكّرتُ أنني استدرتُ لأواجههم، وأحاربهم، وأطاردهم بدوري... فاستيقظتُ متعرّقاً لاعتقادي أنهم قتلوا رجلاً آخر. في ذلك الحلم، لم يكن لهؤلاء الرجال أي اسم.

مرّت لحظات قبل أن أميّز الحلم من العلم، قبل أن أستوعب وجودي في ذلك الكوخ. ساعدتني نيران الموقد على إعادة تحديد الجهات، فنظرتُ من حولي، ولم أجد أوتو. خرجتُ من الكوخ لأبحث عنه، فرأيتُه ممدّداً تحت ظلال الشجرة. ركضتُ إليه وأمسكتُ به. ثم ركعتُ على التراب وحملتُ رأسه بين يدي، فتبلّلتا دماً.

تسمّرتُ في مكاني، وأنا أضم جثة أوتو بين يدي. بقيتُ راكه لساعات ربما، أو ربما لأيام، دون أن أهتز من مكاني. لم أعد أذكر. مرت الدقائق والساعات بسرعة خيالية لم أفهمها. بدا كل شيء مثل رحلةٍ سريعةٍ في الزمن.

تركتُ أوتو على الأرض وعدتُ إلى الكوخ. نزعتُ الملاية عن السرير، وحملتُ المجرفة المرمية في آخر الرواق. غطّيت جسم أوتو بالملاية، وحفرت قبره في التراب الليّن.

دفنتُه هناك، فبدأت تمطر. عدتُ إلى سيارتي، وبقيتُ داخلها لأشاهد مياه المطر تنزلق على الزجاج الأمامي. ثم حرّكتُ المقود بيدين موحلتين لأعود إلى المدينة. قدتُ عبر السفوح، ووسط أشجار

كانت تحني أغصانها تبجيلاً للمطر، تحت أجنحة غربان تطير في الفضاء الواسع باتجاهات مختلفة. بدا سوادها شاحباً تحت الغيوم السوداء، وحجمها مختلفاً لاختلاف مسافة طيرانها. تابعتُ القيادة في أرجاء تحكي عن الاختفاء والزوال. وفكرتُ أن كل شيء ينتهي بحركة سريعة... منظر السفوح في مرآتي الخلفية، وثبة عصفور نحو الضوء، تنهيدة حصان أخيرة قبل الوصول إلى خط النهاية... تابعتُ القيادة، وشعرتُ ببلادة سيارتي فوق جثث من الوحل. ثم سمعتُ ضحكةً، فضحكتُ بدوري.

المدينة

عدتُ إلى المدينة، أقود في الشوارع المحتفلة بنهاية الكرنفال. كنا في آخر يوم من الشهر، وسنُصبح غداً على يوم عادي. بدا كل شيء محلَقاً ومرفرفاً. جلتُ بسيارتي في الشوارعِ التي تودّع الكرنفال. رأيتُ رجالاً في ملابس نسائية، وصغاراً في أزياء قوطية ملطَخين بدمٍ كذبٍ على وجوههم وملابسهم، يتقدّمون كما لو كانوا قتلة حقيقيِّين. رأيتُ مصاصي دماء يتباهون بأنيابهم، وهم يعبرون أماكن تشع بالأضواء. رأيتُ رجالاً يعتمرون قبعاتٍ طويلة، ويمسكون بعصيٍ، ويلفون «الكابات» مثل سَحَرَةٍ وأبطالٍ طائرين. رأيتُ أشخاصاً يتنقلون برؤوس حيوانات بين الأزقة، ويحملون قناني بيرة في أياديهم، ويغنون أغاني الحانات القديمة بأصوات قرويين جشّاء.

كنتُ في طريق العودة إلى البيت، حين وقع نظري، قرب ضفة النهر، على جملٍ يمشي وراء رجلٍ ملتحٍ. ثم رأيتُ خيم صحراء تجتاح المكان، وقوافل جوّالة، وحيواناتٍ أليفة تجهّز نفسها للرحيل. قلتُ في نفسي: ها هم هنا. لقد حان الوقت لأنزل بدوري، وأودّع من حولي، وأجول من جديد.

وصلتُ إلى المبنى. ركنتُ السيارة، وصعدتُ راكضاً على الدرج. أسرعتُ إلى الأعلى، وقرعتُ جميع الأبواب، فلم يفتح لي أحد. دخلتُ شقتي، وجلستُ على مكتبي، وقررتُ كتابة رسالة للبوّاب. قدّمتُ له تعازيّ على خسارة والدته، وأخبرتُه أنني راحل فوراً عن الشقة، وإلى الأبد. ثم أرفقتُ الرسالة بشيكٍ بدل إيجار الشهر القادم، لأننا كنا في آخر يوم من الشهر. رجوتُه ألا يسمح لمن سيسكن من بعدي بمطاردة الفئران أو برمي كل تلك الكتب، ملمّحاً فيها إلى الموت، والمعرفة، وأهمية الكتب في حياة كل إنسان. ولأشجعه على عدم التفريط بها، ذكرتُ قيمة تلك المكتبة المادية. وهددتُه، في حال لم تنفع حججي السابقة، بالطرد والحرق، عاكساً تهديداتي في رسمةٍ ضخمةٍ تصوّر انفجاراً كبيراً، ورجالاً عراةً متوعّدين، يختبئون وراء أقنعة قوارض وذيولٍ طويلة.

إلا أنني في الأعماق، كنتُ أعرف أن لا جدوى من كل ذلك. وقّعتُ الرسالة، وحملتُ سجادة أبي، وأغلقتُ باب الشقة، ونزلتُ الدرج. وضعتُ الرسالة في صندوق البواب، وفرشتُ سجادتي

الطائرة، لأنطلق فوق المدينة. ثم انحرفتُ إلى شارع جانبي، وعبرتُ زقاقاً، لأتخلص نهائياً من الحشود.

حين وصلتُ إلى النهر، طرتُ تحت الجسر، وصرختُ: وداعاً! تابعتُ القيادة باتجاه الطريق الضيق، نحو الجنوب، إلى قريةٍ صغيرةٍ فيها مصانع كبيرة وعمّال رجال. هناك حططتُ بأمان. نزلتُ عن سجادتي وتركتُها تترجّح فوق عتبة الفندق، حيث كانت فتيات الماغداليناز يقدّمن أجسادهن لقتلة البهائم. رأيتُ التركي يقف وراء مكتب الدخول، تماماً مثلما رأيتُه آخر مرة زرتُ فيها المكان. سألتُه عن العربي الطويل إن كان لا يزال في الغرفة. أجابني: نعم، نحن في آخر الشهر. هو فوق يدخن عند النافذة. وباب غرفته دائماً مفتوح.

صعدتُ الدرج، ودخلتُ الغرفة، فرأيتُ العربي يقف وراء النافذة. قلتُ له بأن يكف عن الانتظار، وطلبتُ منه ألا يحزن، فقد ماتت ولن تعود إليه أبداً. ثم تركتُ الغرفة وعدتُ لأطير.

International
Press

الجية، طلعة زاروط،
مبنى International Press، لبنان
هاتف: ٣٠٠/ ٩٩٦٢٠٠ ٧ ٩٦١+
البريد الإلكتروني: Interpress@int-press.com
الموقع الإلكتروني: www.int-press.com

راوي حاج

كاتبٌ لبناني-كندي ومصوّر محترف. ولد في بيروت، ثم انتقل إلى نيويورك عام ١٩٨٢، وبعد إنهاء دراسته في معهد نيويورك للتصوير، انتقل إلى مونتريال حيث درس الفنون. وعُرضت بعض أعماله في المعرض الكندي للحضارة ومعرض كيبك للحضارة. له روايتان حازتا جوائز مرموقة واهتمام النقاد عالمياً وهما: «لعبة دي نيرو» و«الصرصار»، وقد صدرتا باللغة العربية عن شركة المطبوعات أيضاً.

كرنف [redacted]

قذفته أمٌ ت [redacted] ن لبساطٍ وليس لطائرة.. شبَّ في هذه الأجواء وكبر على شغف كبير بمراقبة الآخرين...

رواية ساخرة تطرح أحداثها وأبطالها وأماكنها بقسوة الحياة نفسها وغرابتها. تدعوك لتلتقي وجهًا بوجه مجرمين وبائعات هوى ومعتوهين وسحرة وثوّارًا ومهرجين في كرنفال يبدو أنه بدأ في زمن لا يعرف أحد متى ينتهي.

تصوير متقنٌ لمشاهد حياتية قد تبدو بسيطة للوهلة الأولى لكنك تجد فيها الحياة كلها من طموحات ورغبات ونزوات وجنون وجشع ورغبة في القتل والتحرّش.

قصة مهرّج وسائق تاكسي وجد نفسه متورطًا بخصوصيات الآخرين فرواها بلا تردُّد. لم تجىء قط مكملةً لروايتي الكاتب السابقتين بل بنت معلمًا روائيًا جديدًا وإن يكن راوي الحاج حاضرًا فيها بقوّة.

ISBN 978-9953-88-790-6
9 789953 887906

الجناح، شارع زاهية سلمان،
مبنى مجموعة تحسين الخياط
ص.ب.: ٨٣٧٥-١١ بيروت - لبنان
تلفون: ٨٣٠٦٠٨ ١ ٩٦١+ فاكس: [redacted]

[redacted]